
ثورة الأدب
محمد حسين هيكل

ثورة الأدب

تأليف
الدكتور محمد حسين هيكل



ثورة الأدب

الدكتور محمد حسين هيكل

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٥٢٠٦
تدمك: ٣ ٩٩ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

المحتويات

الإهداء

إلى الشباب

رجاء الغد، وأمل المستقبل

أهدي هذا الكتاب

هيكل

تقديم

هذا الكتاب جديد قديم؛ هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه، وبعضها نشر لم يُغير منه إلا عنوانه، وهو جديد من ناحيتين؛ الأولى: وحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعًا، والثانية: أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة، وبعضها ألف أكثر من جزء من عدة فصول نشرت، وهذه الأجزاء جميعًا تتسق من حيث الفكرة، وتؤدي إلى الغاية التي وُضع الكتاب من أجلها؛ فالكتاب إذن جديد قديم، وأحسب طابع الجدَّة فيه أغلب؛ لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن بارزة في أيٍّ من الفصول التي سبقتُ إلى نشرها بروزها فيه.

وقد اخترت له: «ثورة الأدب» عنوانًا بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه: «نحو الأدب القومي»؛ لأن فصوله الأولى جميعًا لا تتحدث عن الأدب القومي، وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدها نصف القرن الأخير في شؤون الكتابة والأدب، وتصف المجهود المتصل الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الأدب العربي الجديد، والواقع أن هذا الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية في مصر، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى، من يومئذٍ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة: حظيرة الدواوين، ومن النطاق المحصور: نطاق التعليم؛ لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره، وقد كان هذا العمل وما يزال شاقًا. فأية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية، ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان؟ ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها؛ لأن لكل إقليم لغة كلام تختلف عن لغة الإقليم الذي يجاوره، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين لغة الإقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه،

واختلاف لغات الأقاليم التي تتكلم العربية يجعل من المحال وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة، ولغات الأقاليم لم يدوَّن لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد. فلا بدَّ إذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور. لكن هذا الجمهور لا يفهم عنك إذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون، ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم، فكيف ترتفع بالجمهور إلى حسن وإدراك لغة القرآن؟ وكيف تقرّب اللغة العربية إلى إدراك الجمهور؟ … من الإجابات المختلفة عن هذين السؤالين نشأت ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر، وفي خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة صورًا من الأدب مختلفة في النثر والشعر، ويدرسها بعض المستشرقين اليوم، وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالأدب، معنيّ بتاريخ الكتابة العربية في العصر الأخير.

وكما أن الثورة العرابية لم تنته إلى اليوم؛ لأنها لم تحقق غاياتها، كذلك لم تنته ثورة الأدب بعدُ إلى غاية، وكما أدت الثورة العرابية إلى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالًا اتجه بالثورة السياسية إلى ناحية جديدة، كذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الأدب إلى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الأولى من الثورة، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة، ولم يبق بعدها محل لبحث أو جدل، لم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام أساسًا للأدب، وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الأدب واللغة، وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة، وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة.

كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة، وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية، كما كانت تمسُّ في رفق صور الأدب، وما يصحُّ أن تكون عليه، وإلى يومئذٍ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم، وكان السجع والإغراب في اختيار الألفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر، وكان الأدب الغربي يومئذ جديرًا بأن يسمى الأدب الكبير في النثر والشعر. فقد كان الأدب القصصي قد بلغ مجده، وكان كبار الشعراء قد أقاموا في ذلك العصر ما يقف إلى جانب الإلياذة والإنيادة في الأدب اليوناني، وإلى جانب شعر فرجيل من أدب الرومان، وكان كثيرون من شبابنا الذين ذهبوا يتمون دراستهم في أوربا يومئذ — سواء منهم من أوفدتهم الجامعة، ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها، ومن ذهبوا يتمون دراستهم العالية — قد فتنوا أكبر فتنة بهذا الأدب الغربي الكبير. فلما آن لهم أن يعودوا، وكانت الحرب الكبرى قد أعلنت أو قد انتهت، كان هذا الأدب الغربي الكبير في أوربا قد آن له أن يستريح بسبب انصراف النفوس في الغرب عنه، ويرجع هذا الانصراف إلى أن النفوس

شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها، كما شعرت في الوقت نفسه باستهتار بالحياة أدى بها إلى التهالك عليها، وماذا تريد من الإنسانية خارجة من أفظع مجزرة شهدها التاريخ بعد أن ظلَّت خلالها أربع سنوات تباعًا ترى الألوف ومئات الألوف والملايين يحصدهم الموت حصدًا وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب! أية قيمة للحكمة في نظرها، ولهذا القصد في الحياة ننهل منها على مهل إذا كنا نجهل كل الجهل ما سنصير إليه في غدنا؟! وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه؟ أم سنصبح لا شيء كما أصبح ملايين غيرنا؟ إذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء، ولنترام بكلنا في أحضان المسرات ننال منها في أقصر وقت أكبر حظٍّ ما دمنا غير موقنين بأنا سنأخذ حظنا منها كاملًا إذا نحن تناولناه على مهلٍ، وبمقدار ما تطيقه قوانا الإنسانية.

وكان من أثر هذه الحالة النفسية في الأدب أن اضطر كثير من الكتاب إلى إرضائها وإمتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة، ولكنها مختلفة متفرقة؛ لأنها تقصد إلى إرضاء شهوات النفس جميعها، وهذا النوع الصغير من الأدب هو الذي تهافتت الجماهير عليه، لا قدرًا منها إياه ولا إعجابًا منها به؛ بل لأنه يسد مطامعها ونهمها للمتاع، كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها إضرار بها، ولكنها تهافتت عليها؛ لأنها تسد حاجتها إلى نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذي يخبئ لها ما لا تدري — المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم.

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوربا قبيل الحرب أو خلالها أو في أعقابها ممتلئة صدورهم إعجابًا بالأدب الكبير الذي قرأوا والذي شهدوا على المسارح، موجهة عقولهم توجيهًا جديدًا على الطرائق العلمية الحديثة، وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصر مثلهما في زمن غير قليل إلا من أفراد قلائل موهوبين كان لهم أثرهم في توجيه التفكير المصري، وفي مقدمتهم المرحومان: الشيخ محمد عبده وقاسم أمين، كما كان من بعض أساتذتنا من لا يزال أثرهم في هذه الناحية متصلًا.

وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا إلى الميدان ونشاطهم: أن البعوث إلى أوربا لإتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمنًا غير قصير، ولم تعد سيرتها الأولى إلا في سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعة المصرية، وقد تأثرتها في ذلك وزارة المعارف في السنة التالية. أما ما قبل ذلك فقلَّ من كان يسافر إلى أوربا للقيام بدراسات عليا متصلة، والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا وإنجلترا كان أكثرهم ممن لم يلق نجاحًا

في مصر فلم يستطع متابعة دراساته في مدارسها. فلما عادت البعوث سيرتها وأوفدت الجامعة من أوفدت، واقتدت بها وزارة المعارف، انتقلت العدوى إلى بعض الأفراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم، وعادوا بعد إتمامهم إياه فنقلوا ميدان القديم والجديد في الأدب، ووجهوه وجهة أخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فُرغ منه، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتَّاب طابعًا جديدًا نقلها من مجرد المحاكاة إلى بروز الذاتية. هذا الميدان الجديد الذي انتقلت المعركة إليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون. لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صور الأدب القومي الكبير؛ هي القصة والأقصوصة، وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي، وقد أعان ثورة الأدب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في أثر الحرب الكبرى؛ إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩. ألم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم، ويطلبون حياة سياسية وصورًا من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء؟! فلتكن مظاهر الفن والأدب مصبوبة عندهم في قوالب غريبة؛ لتكون آية للناس جميعًا على تقدمهم، وعلى أنهم يسابقون الغرب إلى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه.

ولم تكن ثورة الأدب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها، ولم تكن أقل لفتًا لنظر الغرب من الحركات السياسية التي دمغها الطابع القومي، والتي امتدت إلى بلاد الشرق جميعًا، ومهما يكن من غمر الحوادث لزعماء ثورة الأدب في ميادن السياسة فإن جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تراقب وتحلل؛ ذلك بأن الأدب واتجاهه في أيَّةِ أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها، وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية، وإنما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجيهها، ويُخيَّل إليَّ أن مجهودًا كبيرًا قد أنفق في هذا السبيل، كما أنفق من قبل ذلك مجهودٌ كبيرٌ للقضاء على حركة الإصلاح الديني التي بدأها المرحوم الشيخ محمد عبده، والتي كانت جديرة بأن تؤتي أعظم الثمرات. مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن ثورة التجديد في الأدب قد ظفرت بالقديم، وقد جرَّت إلى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون إلى المجددين مفاتحها، ولكن ما أُنفق من الجهود التي هيأت الفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة، وجعلهم يتساءلون: إلى أين نذهب؟ وإلى ماذا من جديدنا نقصد؟

وقد كان طبيعيًّا أن يقفوا هذه الوقفة، وأن يطرحوا هذا السؤال؛ فالحضارة الإنسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن، ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة

انطوت، ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية وقد قامت هذه الحضارة أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان، واتجاه الأدب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع، وما أحاط بهما في عصورهما من صور الفن والأدب. ثم جعلت أوربا تستقر بحضارتها رويدًا رويدًا؛ لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر، ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة وإلى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر، ثم إلى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية، وإلى دين الإنسانية في القرن التاسع عشر، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان، ومن غير أن تنقطع الصلة بينهما وبين المسيحية من ناحية أخرى. صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم في أحيان كثيرة؛ ولكن الحضارة الغربية لم تقطع، ولا تستطيع أن تقطع صلتها بهذين العاملين اللذين أنشآها، والأدب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة، وتستطيع أن تقرأ في الأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو أي ما شئت من آداب الأمم الأوربية، وأنت دائمًا واجد مظهر هذا الاتصال قويًّا واضحًا، فماذا عسانا نحن نصنع؟ وإلى أية فلسفة في الماضي القريب والماضي البعيد يجب أن ننتسب إذا أردنا به أن يكون مظهرًا لحضارة ما؟ وقف المجددون هذه الوقفة، وواجهتهم هذه المسألة، فلم يتردد أكثرهم في الإجابة بأن ماضيهم هو الأب الطبيعي لحضارتهم ولأدبهم. أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدًى ضعيفًا زاده ضعفًا ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الأدب الكبير. من هنا بدأت الصلة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف يُنقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة، وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها أنصار الحديث في بعث الأدب الجاهلي وأدب عصور الإسلام المختلفة بعثًا علميًّا دقيق التحقيق خطوة موفقة في سبيل إعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة.

ولكن! … ما هي هذه الحضارة؟ أعربية هي أم إسلامية؟ سؤال وجه، وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلًا بتوجيهه، حتى لقد رأينا أخيرًا طلابًا وطالبات غربيين يفدون إلى مصر وإلى مختلف جهات الشرق العربي يحاولون — فيما يقولون — تحقيق هذه المسألة، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم أنهم رجال الأدب الحديث، ويلتمسون إليهم أن يدلوهم على عقيدتهم العلمية في الأمر، وأشعر بأنني في حل من القول بأن هذه الطليعة الغربية متجهة إلى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسة تسوّغ الاعتقاد

بأن المسألة لم تثر للبحث العلمي وحده، وسواء أصح اعتقادي هذا أم لم يصح، وسواء أكان المقصود إثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية، أم كان المقصود به ألا تقرن إلى الإسلام حضارة ما، أم لم يكن المقصود هذا ولا ذاك، وإنما المقصود البحث التاريخي النزيه — سواء أكان هذا أم ذاك فإنا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتمًا بعنصر من الإيمان.

وقد خُيل إلى العلماء زمنًا أن العلم سيغذي النفوس بهذا الإيمان؛ ليقيم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو أن يقيمه، أو دين الإنسانية على ما وضعه أوجست كومت. لكن ما تم من محاولات في هذه السبيل لم ينجح في أن يقدم للجمهور الغربي ما يرضي تطلعه إلى رجاء أو أمل في الطمأنينة والسعادة، ومن ثم انقلب هذا المجهود إلى الناحية المادية والاقتصادية، وجعل منها كل رجائه في الحياة؛ فكان من ثمرة ذلك ما تعاني الإنسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا في إغراء الجمهور بالتشبث بهذا الأمل وهذا الرجاء. فالنفس بحاجة إلى رخاء في غذائها الفكري والعاطفي كحاجة الجسم إلى شيء من النعيم في حياته المادية؛ ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسي في أديان الشرق وصور الإيمان فيه، والأدب — بوصفه مظهرًا للحضارة — لا غنى له عن تجلية جانب الإيمان في النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف أثره في الحياة، وجانب الإيمان في بلاد الشرق العربي قوي أيًّا كان الدين الذي يدين هؤلاء الشرقيون به، وقد كان الإسلام ومازال دين أهل هذا الشرق العربي إلا الأقلين منهم. فلا يمكن أن يؤدي الأدب رسالته إذا أهمل هذا الجانب القوي من جوانب حياة الشرق العربي، وإذا لم يحاول أن يصل ماضي هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم مع التفكير الحديث، وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة.

لم أغل إذن حين استقر رأيي على أن أتخذ «ثورة الأدب» عنوانًا لهذا الكتاب. فالأدب في ثورة متصلة بالفعل منذ نصف القرن الأخير، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة في مسيرها أيضًا، وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها. لكن لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويرًا كاملًا، وأحسب تصويرها في دقة، ما دام اتصالها غير ممكن، هو بعدُ ليس من عمل رجل مثلي لم ينقطع له، وإنما ألم بما ألم به منه في أوقات فراغه، وقد تكون الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها، ومن العسير على مشترك في

عمل من الأعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديرًا دقيقًا على نحو ما يفعل المشاهد المراقب.

وما دمت قد أشرت إلى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لي عن القول بأن عوامل السياسة التي حاولت صرف التيار السياسي في نواحٍ معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الأدب والكتابة، ولقد أشرنا في هذا التقديم إلى ما بُذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الأدبية، وحاولت من غير نجاح كبير إفساد اتجاهها، وليس موضع تفصيل هذه الجهود ها هنا، ويكفي أن أذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي، ومن إظهار هذا الماضي في صورة زرية غير جديرة بالاعتداد بها أو باستلهامها، وقد وصفت في الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الأدب في عصور الطغيان، ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق أكثر مما صحبها لو أن الإيمان بالحضارة الغربية بقي قويًّا كما كان، ولو أن الأدب الكبير عاون على بقاء هذه القوة. لكن ما أصاب الأدب الغربي في أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة إليه نهضة مصر والشرق نهضة قوية، جعل الجهود التي أنفقت لا تؤتي ما أريد منها من ثمرات، وإن جعلها تحول بين ثورة الأدب والاستقرار إلى ناحية تطمئن إليها.

وأكبر اعتقادي أن هذه الثورة ستظل متصلة زمنًا طويلًا. فنحن ما نزال من بعد في بدايتها، وحسن توجيهها في حاجة إلى جهود شاقة جبارة، وإلى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو إلى استقراره، وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله إلا عدد قليل، وبناء صرح الأدب على الصورة التي تدور في نفوسنا — ونرجو أن تراها أعيننا — في حاجة إلى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين، والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة. فرجاء استقرار ثورة الأدب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو، وإن كنا نرتاب أشد الريبة فيه.

والآن أختم هذا التقديم وأخلي بين القارئ وفصول الكتاب، ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله أو تدعوه إلى التثاؤب، ولعله أن يرى — إذا استطاع أن يتم قراءتها — أني لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها، ثم نفذت الفكرة، وأظهرت الملأ على «ثورة الأدب».

الطغاة وحُرية القَلم

في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آنًا بعد آنٍ يعمد الباطشون البغاة إلى تقييد حرية القول والكتابة، وفي سبيل هذا التقييد يُصلون أَرباب الأقلام حربًا لا رحمة فيها ولا هوادة: فمن إرهاق، إلى سجن، إلى نفي وتشريد، وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم، محمارّة عيونهم، مفتحة خياشيمهم، أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية، ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بالٌ، ولا يطمئن لهم خاطر إلا إذا اطمأنوا إلى أنهم حطموا تلك الأقلام إلى غير عودة إلى الكتابة، وأذلوا نفوسَ حملتها إذلالًا لا قومة لهم من بعده.

هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم وحملته، لا تهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغًا ما بلغ أصحابها من العز والمكانة، والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها ما يجول بخاطره وما يمليه خياله أو يتسق لمنطقه، وكل ما يسطره القلم إنما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس من شاء، فيتلو ما فيها، وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها إلى حيث شاء، والأمر كذلك سواء أكانت هذه الورقة صحيفة أم مجلة أم كتابًا من أي صنف من الكتب. فما عسى أن تنشر هذه الورقة حولها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد، ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشانق، وما هو أكبر من ذلك من ألوان الإرهاب والإرهاق؟ وهل انتصر الظالمون يومًا على القلم وأربابه؟ أم كان للقلم النصر دائمًا آخر الأمر، وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان، وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكرى وأتعس الأثر؟

أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر؛ فحرية القلم هي المظهر الأسمى لحرية الإنسان في أسمى صورها ومظاهرها، وحرية القلم إنما تكون حيث

يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله. رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء ما لا سبيل إليه إلا في جو من الحرية المطلقة، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقًا ولو ألقى به هو في غيابات السجون، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور، ونحن ما نزال نرى ثمرات الأقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تهز العالم حتى اليوم هزًّا، وتنشئ فيه إلى اليوم وإلى الأبد ألوانًا من الخلق جديدة؛ ذلك بأن القلم هو الأداة لتصوير النفس الإنسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير، والنفس الإنسانية التي تلتمس هذه النواحي المضيئة من حياة الكون هي دائمًا نفس قوية لا تقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها، نفس تخلق فوق الاعتبارات الكونية جميعًا؛ لترى مكان الحق الذي تريد إيضاحه، أو الحرية التي تريد نشرها، أو الجمال الذي تعالج تصويره، أو الخير الذي تعمل لبثه وإذاعته. فإذا اهتدت إلى ما ابتغت نفثت منه على القلم ما يسطره على الورق، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانبًا من جوانب أنفسهم كان محجوبًا عنهم ضياؤه، ويرون أن هذا الضياء هو الذي يبعث لهم في الحياة نورًا يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم، وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه، فإن لم يتبعوه حيًّا اتبعوه ميتًا.

هذه القوة التي تنبعث من القلم على صحف الورق لتنقلها إلى الإنسان هي أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان. هي قوة الإيمان القائم بالنفس القوية التي متى امتلأت إيمانًا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل. هي هذه القوة الإنسانية التي تصل بين الإنسان وقوى الكون العليا، وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التي يستند إليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة، وما عسى أن تكون هذه القوة المادية، وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما في الحديد والنار من بأس وهول إلى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله، والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون إلى أبده، هذه القوة الروحية الكبيرة التي يصدر القلم عنها وتوحي إليه، هي مصدر الخلق والحياة، ومصدر كل شيء في الوجود؛ بل هي التي تشكل تلك القوة المادية التي تناوئ الروح وسلطانها لكي لا يحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها، وأي ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعًا إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها في العالم، ولم يقف عائق في سبيلها فلم تبطئ في سيرها!

وكما أن حرية القلم هي وحي هذه القوى العليا، فإن الطغيان منشؤه أخس غرائز الإنسان وأكثرها أنانية وانحطاطًا. فتش عن الطغاة في التاريخ، واستمع إلى كل ما

يتشدقون به من الأقاويل والدعاوى، وما يزعمونه من حبهم الخير لبني الإنسان، ومن سعيهم لذلك جهدهم، تجدهم دائمًا ينتهون إلى هذه النتيجة: إنما نطغى ببني الإنسان؛ لأنهم من غير طغياننا يضلون. هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هي الكمينة دائمًا وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره، وهي عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التي يرتكبها الطغيان. فالطاغية يقضي على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا، والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا، والطاغية يرى المزيد من انتشار العلم ضارًّا بالناس فليحجب العلم عن سوادهم. أو يضلوا، والطاغية يعلِّم الناس كيف يفكرون؟ وكيف يتكلمون؟ فإن هم خالفوا تعاليمه ضلوا، والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه، فإن لم يصادرها ضلوا، والطاغية يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التي يفرضها على الناس، ويريدهم على أن يؤمنوا بها ويصدقوها، فإن لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار.

هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد إنقاذ الإنسانية منه — وهو إنما يرديها فيه لشهواته وأنانيته — قد تنوء به الإنسانية زمنًا يجثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام، فيمد للباغي في أسباب بغيه، وهو ناشب في قلب الإنسانية أظافره ما كثّف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق، وللطغاة في تكثيف الظلام الذي ينشرونه حولهم أساليب عجب؛ فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء أضدادها؛ ليسخروا من الناس، وليزيدوهم ظلمًا. يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء، وكل الغاية التي تكلَّف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج الأباطيل ومحاربة العلم الصحيح، بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ما شاء لهم خيالهم المجرم، ويطلقون على طائفة الكتاب، وما هم بكتاب، وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافًا لسادتهم، وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة إلى الحق وإلى الحرية. هؤلاء ليسوا كتابًا وإنما هم كالكلاب تبصبص بأذنابها لمن يلقي إليها بطعام أو بعظمة من العظام، وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه، وهؤلاء لن يكونوا كتابًا ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أي اسم يتصل به؛ لأن الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة.

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابًا يخلقون ما شاءوا من طوائف أخرى يُطلقون عليها أسماء أضدادها، وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام

الذي يعيشون، ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة فإذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعًا من النور يبدد منه، فله الويل، وله النكال، وله عذاب السعير.

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التي يخلقها الطاغية ليعيش فيها، أنّك ترى كل ألوان التكريم والإعزاز في عهده تذهب إلى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور، ويسميهم باطلًا العلماء والكتاب ومن إليهم من خلائقه، وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم إلى ما بعد موتهم. أما هؤلاء فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم. في ذلك اليوم ينهال التراب على صحيفتهم، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد، وأعتقد أن ليس ثمة ما ينقض من هذه الحجة حرفًا.

وإذا كنا بسبيل الكتّاب ورجال العلم فإن المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الإنسانية بلاء دائم وشر مستطير، يفسدون الآداب والأخلاق، ويعلمون الناس الكذب والنفاق، وينزلون بأدب الكتابة إلى أحط درجاته، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه، وإن شاب الإعزاز احتقار، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والأدب واللغة أي أذًى. بل إنك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الإكبار من بطانة الطاغية؛ لأنهم يعتقدون أن في الزلفى إليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق.

على أن الظُّلم وإن تكاثفت، والمظالم وإن اشتدت، والطاغية وإن استبد، كل ذلك كان من أثره دائمًا أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه، وكما تتراكم السحب حتى تحت الشمس وتبعث على الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس، ثم إذا بالمطر يستنفد السُّحب، ويجعل للنور من جديد منافذه، كذلك ما تلبث هذه الظلم المتكاثفة في جو الطغيان أن تبعث إلى نفس ملهمةٍ كلمة الحق ترتفع في صيحة قوية خالصة، فإذا الظلم تضطرب قوائمه، وإذا الطاغية يكفهر وجهه، وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقًا على صاحب الصوت وعلى أنفسهم، ثم إذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع ويرتفع، وإذا القلوب التي وجلت من قبل رعبًا وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة، ثم إذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة، ثم إذا النور نور الحرية والحق يعم الأرجاء، وإذا الظلم والظالمون والطغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحي القيوم.

في العصور المختلفة جميعًا علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم، ليكن نصير الحرية والحق خطيبًا أو كاتبًا أو محدثًا، وليكن عالمًا أو أديبًا أو داعيًا دينيًّا، فهو يرسل بصيحته الضياء إلى النفوس المشتاقة إلى الضياء، وما تكاد هذه الصيحة تنبعث حتى ينتبه الطغاة إلى مصدرها ويقدرون خطرها، وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخمد صوته، ولا يمتد إلى ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه، لكنهم لم يستطيعوا في حقب التاريخ جميعًا أن يخفتوا هذا الصوت، وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية، ولقد عاش تولستوي في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والإرهاب التي كان ينشرها حكام ذلك العصر، ويعلي في الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق، وكان الحكم في روسيا قائمًا على الاستبداد المطلق، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد إلى تولستوي، ولا اجترأت على أن تغض منه؛ لأن ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان، ولأن الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعاني يزيدها في النفوس قوة، وللظالمين مقتًا واحتقارًا.

وليس مثل تولستوي إلا واحدًا من مئات من الأمثال، وأرباب الأقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الأسباب في ارتفاع كلمتهم، وذيوع صوتهم ومحبتهم، وحسن استماع الناس لهم، وشديد إيمانهم بآرائهم، وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عُذِّبُوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان، وإن درست أسماء الذين اضهدوهم وعذبوهم؛ فإذا جاءت إلى الأذهان أسماء الآخرين يومًا جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة؛ ذلك بأن الذين جاهدوا لخير الإنسانية قد نسوا أنفسهم في الإنسانية فأحلتهم الإنسانية مكان الكرامة والإعزاز من قلبها، فأما الطغاة والمستبدُّون فلا يذكرون إلا أنفسهم، ولا يفكرون إلا في أشخاصهم، ويريدون من الإنسانية جميعًا أن تكون مجيبة إياهم لما تمليه أنانيتهم، فإن هي لم تفعل أكرهت على ذلك إكراهًا، واضطرت إلى أن تخضع له ذليلة صاغرة، وقد تصغر الإنسانية أحيانًا أمام إنسان ينزل بها كما ينزل الوباء أو كما يدمرها الزلزال. لكن هذا الوباء والزلزال عارض لا بقاء له. فأما الإنسانية فباقية خالدة.

وهي في خلودها تتمثل خير تمثيل في رب القلم؛ لذلك يمقت الطغاة هذا الذي يمثل الإنسانية، ويدعو لحريتها وخيرها، ويفتح أمامها باب الحق والجمال، ولذلك تكرم الإنسانية هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في سبيل سعادتها وهدايتها، وتنصرهم في حياتهم وبعد موتهم على الأنانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الإنسانية وفوق الحياة، فتزدريهم الإنسانية وتلفظهم الحياة.

ولعل الأدب في مختلف صوره خير ما تتجلَّى فيه مواهب أرباب القلم، حقًّا إن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة في حاجة إلى ربِّ قلم قدير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته إليها قوة تكفل دوام تقدمها، لدوام حياتها. لكن الأدب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعًا. هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الإنسانية، والأديب الجدير حقًّا باسم الأديب هو الذي يستصفي هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه. هو الذي ينبت من حقول العلم والفلسفة وما إليهما أزهار الأدب، والذي يستخلص من مناجم التشريع، ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الإنساني الذي سارت الإنسانية وما تزال ولن تزال تسير على هداه متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال، وهذا التوجه نحو الكمال هو الذي يرجّ قلوب العتاة والطغاة، وهو الذي يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا. فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية إذا لم تكن هذه الحرية. لكن حربهم لها كانت دائمًا حافزة إياها على القيام برسالتهم العليا، وإن لقي أصحابها في سبيل إقرار هذه الرسالة ما لقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب؛ ولذلك كان النصر دائمًا لرسالة الأدب، وكان الفوز الأخير دائمًا لحرية القلم.

ثقافة الأديب

هل الأدب العربي قديمه وحديثه يكفي وحده لتكوين الأديب؟ هذا سؤال طرح، وكان موضع بحث ومناظرة، ويجب قبل الجواب عليه أن نطرح سؤالًا آخر وأن نجيب عليه: فما الأدب ومن الأديب؟ وإذا نحن وفقنا للإجابة عن هذا السؤال، واتفق رأينا عليه لم يبق لخلاف ولا لمناظرة محل.

وعندي أن الأدب فن جميل، غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود من حقٍّ وجميل بوساطة الكلام، والأديب هو الذي يؤدي هذه الرسالة. فكل ما ينتجه فنُّ الأدب الصحيح في أية لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية، وكل أديب يكتب في أي باب من الأبواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها، والأدب العربي لا يخرج عن أدب سائر اللغات في هذا التعريف.

ما هي وسائل عرفان ما في الحياة من حق وجميل؟ ما نحسب هذا محلًّا لإثارة أي خلاف. فوسائل هذا العرفان: العلم والفلسفة. العلم هو الوسيلة الأولى والأساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها، والفلسفة هي الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك الحياة والوجود، وما فيهما من حق وجميل، وكذلك كانت الفلسفة وكان العلم في كل العصور، وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند العرب كما هي عند سائر الأمم.

الأدب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة، وكالثمرة الناضجة، وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة، ومن الجذور التي نبتت عليها هذه الشجرة والتي هي بمثابة العلم من الفلسفة. فلكي تكون حديقة الأدب جميلة، ولكي يكشف الأديب للناس عما في الحياة من حقٍّ وجميل، وليؤدي الرسالة العظيمة الملقاة على أدباء

العصور جميعًا، يجب أن يتغذى ما استطاع من وِرد الفلسفة ومن وِرد العلم، وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردين كان أقدر على أداء الرسالة، وكان أديبًا حقًّا.

ولهذا كان العرب يقولون: إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف، وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الأديب الوقوف عليها لا يقتصرون على ذكر علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة، بل كانوا يضيفون إليها علومًا كثيرة من سير العرب وأخبارهم، أي من التاريخ، ومن مواقع بلاد العرب، أي من الجغرافيا، وهلم جرًّا.

فن هذه غايته وذاك مداه يتسع لصور لا تتسع لها الفلسفة ولا يتسع لها العلم بمعناه الضيق. ففي الحياة وفي الوجود من صور الحق وألوان الجمال الشيء الكثير، وقلَّ أن تيسر الأجيال للإنسانية الرسول القوي الصادق الذي يستطيع خلال السنوات القصيرة التي يحياها الإنسان، وإن امتد به العمر — أن يبلغ هذه الإنسانية رسالة الحق والجمال كاملة؛ لذلك كان الأدباء الخليقون حقًّا بهذا الاسم هي الملهمون الفحول الذين يطبع كل منهم عصرًا في تاريخ الإنسانية، ويبقى فلذة خالدة برغم موت صاحبها من هذا التراث العظيم الذي تتوارثه الإنساينة جيلًا بعد جيل. هؤلاء الأدباء إنما يبلغون الإنسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعًا على نحو ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم، وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على ما خلف الأدباء العظام، فالأدباء الكبار، فالأدباء، فالمتأدبون، رأيت ضياء الحق والجمال يخبو رويدًا رويدًا حتى يصل إلى الأديب أو المتأدب الزائف الذي لا حياة ولا نور فيما يكتب؛ إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل، وإنما هي ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها إلى معنى خاص شأنها شأن تلك «البذلة» التي توضع في «فترينة» التاجر على مثال خشبي سُوّي وجهه بالألوان، لا يقصد بهذه البذلة إلى الاستعانة على الحياة، ولكن يقصد منها إلى عرضها بضاعة في انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة، وأن يبعث إليها شيئًا من هذه الحياة.

كتب فيشته الفيلسوف الألماني المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال: «إنه إنما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة؛ ليرى هذه الحقيقة بنفسه، ثم ليرينا إياها، وفي كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا في لهجةٍ من لهجات الكلام جديدة، ورسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يُبعث فيه.» ويشتد فيشته حين يقصد إلى التمييز بين الكاتب الأصيل، أو الكاتب البطل، كما يسميه كارليل، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال: «فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا، لكنه لن يكون لذلك كاتبًا، وإنما هو أفّاك مزور لا قدر ولا مقام له».

والحقيقة التي يذكرها فيشته، والحق والجمال اللذان نراهما غاية الأدب بوصفه فنًّا جميلًا، ينكشف للناس من صورهما في كل جيل ما لم يكن معروفًا في الجيل الذي سبقه، أو ما يختلف عما كان معروفًا في الجيل الذي سبقه، وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الأجيال المختلفة في اللغة الواحدة، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة؛ ولذلك كان لا مفر لمن يريد أن يكون أديبًا حقًّا، أديبًا أصيلًا غير زائف، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفًا صحيحًا، وأن يحيط ما استطاع بعلوم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة، وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى إلى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل، وإلى تبليغه للناس في صورة أقرب إلى الكمال ممن أوتي مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه.

هذه كلها أوليات ما أحسب لخلاف فيها محلًا، وهي تنطبق على الأدب العربي في عصوره المختلفة، وتدل على أن أدب أية لغةٍ من اللغات قديمه وحديثه، لا يكفي وحده لثقافة الأدب، وعلى أن ذلك أصدق في عصرنا الحاضر الذي قربت فيه المواصلات بين أمم الأرض منه في العصور السابقة، وأنه أصدق بالتطبيق على الأدب العربي قديمه وحديثه منه على آداب الأمم التي لم يصبها ما أصاب الأمم العربية من تحكم فيها واستبداد بها وقفا سير العلم والفلسفة العربية سيرًا كان يجعلنا من علم الأمم الأخرى وفلسفتها في موقف تعاون وتنافس، لا في موقف تعلم ومحاكاة.

والآن فلنطبق هذه الأوليات على الأدب العربي نفسه في مختلف عصوره: فهل كان الأدب العربي في عصوره الأولى مستقلًّا عن الآداب المجاورة له والمتنافسة معه، وأجلها خطرًا أدب الفرس والرومان واليونان؟

يضيق المقام إذا أردنا أن نستقصي ما أفاد العرب، وبخاصة منذ ظهور الإسلام، من علوم وآداب كانت للبلاد التي اقتحموها فاعتنق أهل الإسلام. على أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أنهم في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية أيام الأمويين والعباسيين كانوا مجدين أعظم الجد في نقل علوم الفرس واليونان والرومان وآدابهم من تلك اللغات إلى اللغة العربية، وأن أكبر الكتاب كابن المقفع والجاحظ كانوا متأثرين بهذه الآداب تأثرًا ظاهرًا، وكانوا يعرفون هذه اللغات أو بعضها معرفة صحيحة. بل إن ابن المقفع نفسه كان فارسيًّا ككثير من فحول الأدب العربي أمثال الهمذاني والزمخشري، والجاحظ مشكوك في عربيته وإن تك معرفته للفارسية ليست محل ريبة لما جاء عنها في كتابه البيان والتبيين، وكثير من كتب الفلسفة اليونانية نُقل في عصر العباسيين إلى اللغة العربية، وتأثر علماء العرب وأدباؤهم وكتابهم بهذه الفسلفة تأثرًا واضحًا، ولو أنك رجعت إلى المذاهب المختلفة

في التصوف والاعتزال وغيرها لرأيت كثيرًا منها يرجع إلى مذاهب كانت معروفة من قبل في الفرس، وإلى مذاهب كانت معروفة من قبل في اليونان، وكان من أثر هذا النقل للكتب أن حدثت في الأدب العربي شعرًا ونثرًا، صور لم تكن معروفة من قبل، وإن اتسع أفق هذا الأدب العربي سعة لا عهد للمتقدمين بها. لقد تناول التطور، الذي نشأ عن اختلاط العرب بهذه الأمم وبأمم شمال إفريقية وبالأندلس وصقلية أساليب النثر والشعر، فاستحدثت الموشحات الأندلسية واستحدث في النثر شيء كثير، وزادت بذلك ثروة اللغة العربية في ألفاظها وفي علومها وفي فلسفتها وفي أدبها زيادة هي في تاريخ هذه اللغة فخر نفاخر به نحن حتى اليوم.

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من الأمم الإسلامية، وأن تقلص ظل الحضارة الإسلامية عن الأندلس، وأن استقل الفرس، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الإسلامي في شؤون اللغة العربية، وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات؛ لأن حياة الأمم العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال، وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة كانت نهضة الغرب في العلم والفلسفة والأدب، وكان أن استحدث الغربيون من ذلك الشيء الكثير، وأدخلوا على آدابهم من ألوانه ما لم يتطلع أهل هذه الأمم العربية الخاضعة للنير التركي إلى الاتصال به. فتدهور التفكير العربي، وصار الأدب العربي القديم هو وحده الأثر الخالد لهذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي سار في ضوئها وعلى هداها عدة قرون، ولولا ما في اللغة العربية لذاتها من قوة قدّسها القرآن الكريم وزادها جلالًا وإعجازًا، ولولا ما كدست الحضارة الإسلامية من ثروة لم تنفد ولا سبيل إلى نفادها، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والآشورية والهيروغليفية، ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الإنساني وكفى.

لكن قوة اللغة العربية وثروة أدبها التي تكونت منذ الإسلام وعظمة الحضارة الإسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة هذا المصاب، حتى دار التاريخ دورته، وآن للغة العربية أن تنهض نهضتها من جديد، وكان طبيعيًّا أن تبدأ النهضة بنشر اللغة، وإحياء آدابها القديمة، وتعليم الناس أصول التعبير بها؛ ليمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية، وأن يكون فن الأدب العربي بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيها من

حق وجمال، حتى تبعث الأقدار الأديب العربي الذي يؤدي لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الأدب، ويرجع الفضل في هذه الخطوة الأولى لشيوخ الأزهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد علي باشا إلى أوربا؛ للاتصال بموارد العلم فيها، ولرجال مدرسة دار العلوم التي أنشأها علي باشا مبارك منذ أكثر من نصف قرن؛ للقيام ببعث اللغة العربية بعثًا جديدًا.

على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة إلى انتشار فنون آدابها، حتى رأوا إلى جانب الفنون القديمة فنونًا في الأدب جديدة، أحدثها بعث الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل، ورأوا أن هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند إلى فلسفة جديدة في تصويرها أيضًا، وإلى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها، وأن لا بد إذن من الاتصال بالعلم والفلسفة في آخر صورهما؛ ليكون الأدب العربي مؤديًا إلى الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات، غاية تبليغ الإنسانية ما في الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذي تعيش الإنسانية فيه.

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين في الأزهر وعند رجال دار العلوم بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربي والمتصلين في الوقت نفسه بآداب اللغات الأخرى، وظهر ذلك في حرص الأولين، وهم ذوو الفضل في الخطوة الأولى من خطى بعث اللغة والآداب العربية القديمة، على الوقوف على اللغات الأوربية وتعلمها، وفي حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها إلى اللغة العربية في صورة عربية صحيحة، وأمامي من الأمثال على ذلك كثير. فأساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية، كلهم من ناشئة الأزهر أو دار العلوم أو القضاء الشرعي، وكلهم قد شعروا بالحاجة، بعد إتقانهم اللغة العربية، إلى دراسة لغات أخرى، ودراسة آداب أخرى، سواء منها ما تُرجم إلى العربية وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها، وها هم أولاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة: أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام، هم جميعًا من أبناء هذه المدرسة — الأزهر — وهم اليوم جميعًا من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها؛ ليكوِّنوا لأنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال.

مثل آخر أضربه هو هؤلاء المشايخ الذين بدءوا يكتبون في الأدب الحديث مكتفين بمطالعاتهم في الآداب العربية، ثم إذا بهم لا يجدون منصرفًا عن دفع أنفسهم إياهم لورد

آداب اللغات الأخرى. فالمرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بدأ يكتب «النظرات» و«العبرات» متأثرًا إلى حد بما ترجم من القصص الغربي، وإن جاهد ليظل في كنف الأدب العربي القديم. لكنه ما فتئ أن اندفع إلى الاستعانة بالأدب الغربي، فاستعان بمن يعرف هذا الأدب، ويدله على ما فيه من صور الجمال، ثم إذا به ينشر على الناس كتبه «ماجدولين» و«في سبيل التاج» وغيرهما.

والأستاذ الزيات وغير الأستاذ الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربي القديم خالصًا سائغًا لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من الأدب، ولم يجدوا الوسيلة إلى ذلك إلا عن طريق الأدب الغربي وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكمين في عصرنا الحاضر.

وهذا طبيعي بعد الذي كان من تقدم العلم وتطور المذاهب الفلسفية، وبعد الذي كان من إبداع صور الأدب الجديدة في الغرب، ويطول المقام إذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية والأدبية في القرن الأخير، بله القرون الثلاثة التي سبقته، ومن هذه الصور ما لم يكن له وجود فيه، ونكتفي من صور الأدب هذه بالإشارة إلى القصص والروايات المسرحية. فهذان النوعان لم يكونا معروفين بصورتهما الحاضرة عند العرب، مع أنهما اليوم يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلها في متناول القراء جميعًا، ويجعلها كذلك في صورة فنية بالغة الجمال. فهل يتسنى لنا إذا نحن اكتفينا بالأدب العربي القديم، أن نبدع في هذه الأنواع مثلما أبدع الغرب، فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من حق وجمال إلى نفوس قراء العربية، فنؤدي الرسالة الملقاة على عاتق كل كاتب جدير بهذا الاسم؟

وليست القصص الطويلة والروايات المسرحية هي وحدها ما أبدع مما لم يكن العرب الأقدمون يقدرونه، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية كالآداب الاشتراكية والشيوعية، وكآداب المذهب الحر والمذهب الفردي لا سبيل إلى بسط شيء منها لقرائنا إلا إذا وقفنا على ما كتب باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من جهة أخرى، وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة في الآداب العربية القديمة، ومما لا بد لنا، إذا أردنا أن نقف إلى جانب الأمم الأخرى فيه، من الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه اطلاعًا واسع النطاق.

وما نحسب أحدًا إلا يشعر بالحاجة إلى هذا الاطلاع كما شعر بها أولئك الأساتذة الذين أشرنا إليهم، وكما شعر بها غيرهم. فإذا اطلع إنسان استطاع أن يؤدي رسالة الأدب

على وجه صحيح، وكان لذلك أديبًا أصيلًا. أما الذين يقفون عند الاطلاع على الأدب العربي فلن يستطيعوا مجاراة هذا العصر مجاراة تمكنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على عاتق الأديب، وسيظل أدبهم أدب ألفاظ لا تحمل في طياتها سنا المعاني السامية ولا ضياء الحق وبهجة الجمال، وسيظلون أطفالًا في الأدب. ربما يُعجِب بعض الناس زخرف قولهم، ولكن هذا الزخرف لن يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية لا حياة فيها وإن أتقن صانعها رسم تقاطيعها.

وهذه الحاجة إلى الاطلاع التي يشعر بها كل محب للحقيقة ليس معناها الانصراف عن الأدب العربي قديمه وحديثه. فنحن في حاجة إلى التضلع من هذا الأدب؛ لأنه هو الأساس الذي نبني عليه ونريد أن نبلغ به الكمال، ولا سبيل إلى هذا الكمال إلا أن نفعل ما يفعله غيرنا من أهل الأمم السابقة اليوم في الحضارة. فإنك ترى قاموس اللغة الفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية أو غير هذه من الغات يعاد النظر فيه كل عقد من السنين؛ لتحرِّي معاني الكلمات، وهل اتصل بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أو الآداب الحديثة، وللنظر في إضافة كلمات جديدة، وكثيرون يعرفون ما دخل في اللغة وفي الأدب الفرنسيين من الألفاظ والعبارات الإنجليزية في هذا الزمن الأخير. فكلمة «جنتلمان» و«سبورت» وغيرهما قد أضيفت أخيرًا إلى القاموس الفرنسي، كما أضيف في العصور المتقدمة إلى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية «كالورد» و«السلسبيل» وغيرهما، وما دام هذا في طبيعة اللغات وآدابها فلا معدى لنا عن أن نأخذ به، ونحذو حذوه إذا أردنا للغة ازديادًا في القوة، وللأدب تحقيقًا صحيحًا لرسالة الأدب.

قد يقال: إن الأدب العربي الحديث يكفي لسد هذا النقص الذي أشرت إليه بما استحدث من صور الأدب الغربي التي أبدعت في العصور الأخيرة، ولشد ما وددت أن يكون هذا صحيحًا؛ فهو لو صح لكان سببًا لفخر كثير من أصدقائي الذين أعزهم، ولكني وأصدقائي هؤلاء نشعر بأن في ذلك غرورًا لا يليق بالأديب. فما استحدث في الأدب العربي ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ في تلك الهوة التي تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر، وهي محاولات شعر أصدقائي وشعرت أنا بنقصها منذ زمان طويل. فإني لأذكر أن مطالعاتي العربية التي تناولت من كتب الأدب العربي القديم الشيء الكثير قد أقنعتني منذ عشرين سنة مضت، وكنت ما أزال طالبًا بالحقوق، بأن أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالإنسان إلى أكثر من طفولة الأدب في العصر الذي نعيش فيه، فأكببت يومئذ على دراسات في الكتب الإنجليزية فتحت أمامي آفاقًا جديدة غير ما مهدت

له دراساتي. فلما سافرت إلى فرنسا بعد نيل إجازة الليسانس ودرست الفرنسية أكببت على آدابها في نواحيها المختلفة، فإذا آفاق جديدة تتفتح، وإذا بي أطل على صور من الحق والجمال لم أكن أتوهمها من قبل، وكيف يمكن أن يكتب الإنسان عن الفنون الجميلة كالحفر والموسيقى والرسم وقد عفت آثار الموسيقى العربية، وقد كان العرب يُنكرون صناعة التماثيل وينكرون التصوير والرسم! فإذا هو قرأ عن الفنون الجميلة شيئًا من ألوف الكتب التي ألفت فيها استطاع أن يفهم من جمال الحياة ما لم يكن له إلى إدراكه سبيل من قبل، وكذلك الأمر في غير الفنون الجميلة من العلوم والفلسفة الحديثة جميعًا.

وإلى أن ننقل هذه العلوم وهذه الفلسفة إلى اللغة العربية، وإلى أن تكون لنا مذاهب في العلم والفلسفة والأدب تقف إلى جانب مذاهب الغرب — إلى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفي الآداب العربية، قديمها وحديثها، لثقافة الأديب، أما في ذلك اليوم فسيشعر أدباء العربية أنفسهم، بدافع المنافسة وحب السبق في الوصول إلى الحق والجمال، أنهم لا يقلون عنا اليوم حاجة إلى الاطلاع على كل ما يظهر في عالم العلم والفلسفة والأدب من جديد.

وستزداد هذه الحاجة كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العالم. فإن أمكن أن يتوهم الإنسان مجرد توهم، إمكان استقلال حي من الأحياء، سواء أكان هذا الحي أمة أم فردًا، عن غيره من الأحياء في شؤونه المادية أو العقلية أو النفسية، فإنَّ مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل؛ لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر، وهو سيزداد كل يوم إمعانًا في الاستحالة، وسيرى الأدباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب الذي يريد أن يخطو بالأدب العربي إلى مراتب الكمال الفني مضطر ولا بد إلى الاطلاع على أكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعًا إذا هو كان جديرًا حقًّا باسم الكاتب أو الشاعر، حريصًا حقًّا على أداء رسالة الأدب السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما في الحياة من حق وجمال، وبالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال.

اللغة والأدب

حضرت يومًا مجلسًا ضم جماعة من كبراء مصر بينهم فحول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة، وفيما ينتقل الحديث من موضوع إلى موضوع سأل أحد المحاضرين شيخًا لغويًّا: أي الشعرين يفضِّل، الشعر القديم الذي اتخذ عنوانًا له: «قفا نبك»، أم الشعر الحديث وعنوانه: «حفَّ كأسها الحبب»؟ فكان جواب الشيخ على الفور: إني لأفضل الشعر الحديث فهو أعذب مدخلًا إلى النفس، فأما الشعر القديم فحاجتنا إليه للغة أكثر من حاجتنا إليه للأدب.

وأثار هذا الحديث جدلًا هادئًا لم يطل أمده، ولا يستوقف منه النظر شيء خاص في البحث الذي أريد أن أعرض الآن له، وإنما استوقفت نظري هذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب. فنحن في حاجة إلى الوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام، وعلى كل أدب سبق عصرنا؛ لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور، ولنجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورهما ما لا غنى لنا عنه إذا أردنا أن تظل اللغة في تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيدة عن أن يندس إليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف. فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية والفنية وما تنطوي عليه من مختلف الصور والألوان، فتابع في تطوره للعصر الذي يعيش فيه غير مضطر أن يتصل بالقديم النائي عنه بأكثر من صلة الوراثة ومن صلة اللغة، واللغة في الأدب ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذي يعبر الأدب عنه. فأما قوام الأدب ففي الروح الذي يلهم ما فيه من معانٍ وصور وعواطف وإحساس. لهذا تراك إذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صورًا مختلفة من الأدب، لم يكن اللفظ هو الذي يقفك عنده، بل كان ما يدل هذا اللفظ عليه وما يعبر عنه، وإذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة في الأدب من حيث موسيقاه وما تهز هذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتلاء المعاني التي ينطوي عليها، فلن

يسمو هذا اللفظ بالغًا ما بلغ رنينه ورصانته بمعنى غير سام، وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبتذل والناشز الرنين بالمعنى السامي أو الصور الجميلة، أو يترك على الأقل من سوء الأثر في النفس ما يجعلها تأسى، وتأسف ألا يكسو المعنى الجميل لفظ جميل.

أنت إذن في حاجة إلى إتقان دراسة اللغة وتاريخها في المعاجم وفي كتب الأدب إذا أردت أن تكون لغويًّا وكفى، كما أنك في حاجة إلى هذه الدراسة إذا كنت ممن مُنحوا هبة الأدب. فكلما زادت ثروتك من الألفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعاني لذاتها أو مضافة إلى ألفاظ غيرها، ازددت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذي يصلح للتعبير عن قصدك تعبيرًا دقيقًا وموسيقيًّا معًا، وهذا هو الذي يدعو الأمم الغربية المستمدة لغاتها من اللاتينية واليونانية إلى تدريس هاتين اللغتين للنشء. فليس جمال هذه اللغات القديمة الميتة هو الذي يقصد لذاته أولًا وبالذات. كلا! وإنما يقصد من دراستها إلى دقة إدراك المعاني التي تعبر عنها الألفاظ المشتقة منها، ومهما تكن آداب اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبي في أوربا إبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها، فإنما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية في العصور التي سبقت عصر البعث ذاك، واحتياج الناس فيه إلى وحي جديد، ولم يكن يومئذ خيرًا من هذه الآداب القديمة مهبطًا للوحي، ومحلًا لإلهام شكسبير وراسين ودانتي … وغيرهم من الذين قام هذا البعث على نبوغهم. لكن هذه التبعية أو هذا الرق للأدب القديم لم يدم طويلًا، وفي القرن السابع عشر نفسه قام كتّاب وشعراء أمثال موليير ولا برويير نزعوا غير نزعة العصر، وأنشأوا أدبًا مستقلًا عن أدب اليونان والرومان وإن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق؛ ليحيطوا بلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة، وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس فجره حتى تنفس عن فولتير وروسو وديدرو … وغيرهم من الكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم، ومهدوا للأدب الغربي أن يستقل بنفسه عن الأدب القديم، ومع هذا الاستقلال التام في أدب الغرب ما تزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدبًا؛ لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يندس إليها عامل من عوامل الفساد والضعف، وإذا كانت لغتنا اليوم وستبقى أبدًا هي اللغة العربية، وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لكياننا، فإن كثيرًا من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائدًا أو في حكم البائد؛ لأن أطوار الحياة التي مرت بالأمم التي أصبحت العربية لغتها جعلت هذه الألفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعاني التي تداولتها عصور فجر الإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين والأندلسيين … وغيرهم ممن تطورت حضارة

العالم بعملهم تطورًا عظيمًا. مع هذا فدراسة تلك الألفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحتة، وقد تفيد الأديب في دقة تحديد المعاني التي تعبر عنها ألفاظ أخرى مشتقة منها أو كانت بينها وبينها في بعض العصور صلة لغوية من أي نوع من الأنواع.

على أن دراسة اللغة هذه لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث هي كساء الأدب على نحو ما قدمنا، وبمقدار حاجة الأدب إلى هذا الكساء. صحيح أن الكساء كان له في بعض الأزمان المقام الأول، وما تزال طبقات الناس إلى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها، وصحيح كذلك أن اللغة بوصفها كساء للأدب، كانت في بعض الأزمان صاحبة المقام الأول عند الأكثرين، وأنها ما تزال ذات أثرٍ لا سبيل إلى إنكاره، لكن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الأزياء بأقدار الناس في الحياة، وصلة الأزياء بالأقدار تتلاشى رويدًا بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة في اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب، حتى لنرى أكثرها أخذًا للنظر أشدها نميمة عن الحياة ودقائقها، كذلك تطورت لغة الأدب، فصار أجدرها بالامتزاج بالأدب ما كان شفافًا عن المعاني والصور التي يعبر عنها، معوانًا على زيادة ما في هذه الصور والمعاني من حياة وموسيقى، هذه اللغة الشفافة المضيئة السيالة التي لا تحجب عنك جمالًا ممَّا أراد الأديب الموهوب إظهاره، ولا تقف في سبيل متابعتك الأديب في أثناء تدفُّقه واندفاعه في تفكيره أو تصويره أو تغنيه وشَدوه، هي التي تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب في كسائها إياه، حتى لتصبح جزءًا من رحيق الحياة الذي يعبر الأدب عنه، وهي كلما لطفت وازدادت بساطة، وشفت بذلك عن كل ما أراد الأديب أن يحملها إياه، وكانت في ذلك النغمات الصادرة عن نفس الأديب الصادقة التعبير عنه؛ كانت ألصق بالأدب في العصر الذي يصدر هذا الأدب عنه.

الوصول باللغة إلى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير؛ بل هو يحتاج إلى جهاد الأدباء جهادًا عنيفًا شاقًّا يتناول كل نواحي الحياة، ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها، وأدباء عصرنا الحاضر لا يجدون من أدوات هذا الجهاد في الأدب القديم إلا ما قدمنا من ضبط اللغة، وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها لا تغني كثيرًا في عصرنا الحاضر، والواقع أن الأدب القديم كالأزياء القديمة كان يعتمد على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الأزياء القديمة على نفاسة القماش وكثرة حواشيه، وأنت إذا ذهبت اليوم إلى مسرح من المسارح تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية، ويظهر فيها الممثلون بأزياء تلك العصور، رأيت على المسرح أكوامًا من أقمشة غالية تحيط بها أشرطة ودنتلات وغيرها من أسباب الزينة، ورأيت فوق ذلك شعورًا صناعية مزينة أيضًا،

ورأيت دونه أحذية تكاد لكثرة ما يرصعها من الأحجار الثمينة تنكر أنها أحذية، وهذا كله يذهب ويجيء على المسرح، ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذي يدلك على أن هذه الكومة النفيسة تحتوي في أعماق داخلها حياة إنسانية هذا الوجه مظهرها … ما صورة هذه الحياة؟ ما حقيقتها؟ أجميلة هي أم قبيحة؟ أجذابة هي أم ثقيلة؟ أنت لا تستطيع أن تحكم؛ لأن اللباس وحده هو المتحرك أمامك، ولأن الوجه الذي عرفت منه أن ما ترى إنسان، وأنه رجل أو امرأة، قد كسي هو أيضًا بأصباغ وألوان أخفت معالمه ونكَّرت معارفه، ولأن التحيات والعبارات والأفكار لا تصدر عن أصحابها، وإنما هي صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لبيئتهم، فحياتهم ليست لذلك حياتهم، وإنما هم صور متحركة مختفية خلال نفائس الأقمشة وألوان الزينة ممَّا ترى وما قد يفيدك كثيرًا أو قليلًا عن حياة ذلك العصر ولباسه، ولكنه لا يفيدك شيئًا عن الشخصية الإنسانية التي يصدر عنها الفن والأدب، والقديرة وحدها على استخلاص ما في الحياة من رحيق هو إكسير ما في الحياة من جمال.

قارن بين هذا الذي رأيت على المسرح ممثلًا عصرًا مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها، تجد البون شاسعًا؛ فالحضارة الإنسانية اليوم تنزع إلى البساطة، وإلى الصحة، وإلى حكم الإنسان حياة الوجود بكل ما تمكنه قواه ومواهبه، وإلى ظهور الذاتية الإنسانية خلال ذلك كله ظهورًا قويًّا واضحًا؛ فلم يبق شخص الإنسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والدنتلات، وتحملها الأحذية المرصعة، وتكسو أعلاها شعور مستعارة، وتطل من خلالها صورة وجه إنساني مختف تحت الأصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته، ويشف عن الحياة الإنسانية حتى لقد كاد يصبح بعضًا منها، وصارت الحياة الإنسانية كذلك هي موضع الجمال لا اللباس الذي يكسوها، وبمقدار ما يعبر الزي عن الحياة يكون أشد للنظر استرعاء، وأقوى عن جمال الحياة تعبيرًا، وكبساطة الناس في اللباس بساطتهم في الطعام. لم تبق الألوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة. بل صارت الألوان التي تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هي التي يميل الناس إلى إتقان صنعها؛ لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته. كذلك أصبح الترف ذاته ينزع إلى البساطة والصحة، وإذن فالحياة الإنسانية قد صارت من الزي والطعام والترف كما أصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هي الظاهرة القوية لا يخفيها اللباس بل ينمُّ عنها، ولا يتخمها الطعام بل يقويها، ولا تغص بالترف بل تنعم به. كذلك تريد ألا يثقل اللفظ على

روح الأديب، وألا تجمُد التقاليد بريشة الفنان، وأن تصبح الذاتية الإنسانية حرة متوثبة دائمة الإبداع دائمة السعي في إبداعها إلى التحكم في كل ما في الكون، وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس، متاع أساسه البساطة والصحة.

ولقد عاون العلم، وما يزال يعاون، على توجيه الحياة في هذا السبيل بما ربط بين أجزاء العالم، وما أخضع من قواه لحكم الإنسان، وما فسح لذلك من ميادين متاعه. فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف ... وما إليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم في قبضة يد الفرد، وقرّبت بين أجزائه تقريبًا لم يكن يحلم به أسلافنا. أتراك تستمع إلى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا، وتسمع وأنت في مقعدك إلى ما يجري في مختلف أنحاء العالم، وتصل في ساعات إلى ما كان يقتضي من قبلنا أسابيع أو شهورًا، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها السلف، ويكون رحيقها منك ما كان رحيقها منهم؟ لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التي نعيشها، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنأ، ولست أخالف وأنا أشعر في كثير من الأحيان شعورهم، وأجد في كثير من الأدب القديم جمالًا ولذة، وأجد فيه سذاجة تجذب إليه وتحبب النفس فيه؛ بل إن من آثار الفن والأدب القديم ما انتهى إلى الخلود، وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون المقبلة جميعًا، وإن في «قفا نبك» من صور الجمال في بعض المواضع ما لا سبيل إلى نسيانه. لكن الآداب مرآة العصر، كما يقولون، وإذا كان الأدب القديم مرآة للعصور التي يمثلها في تصويرها الحياة وجمالها، وكان ذلك مما تجب دراسته لكمال ثقافة الأديب، فهو وحده لا يكفي لكمال الأديب؛ بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما يؤهله لاستخلاص ما في الحياة من رحيق، وليجلوه على صورة صادقة تمثل عصره، وهذه هي تفرقة الشيخ التي أشرنا إليها في صدر هذه الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا إليه للغة وللتاريخ، وبين الشعر الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيرًا يجعله أشهى وأعذب مدخلًا إلى النفس.

على أن هذه المارسات لا تغني عما قدمنا من وجوب صقل اللغة؛ لتمتزج بالأدب، ولتكون له لباسًا شفافًا موسيقيًّا رشيقًا، وما يحتاج ذلك إليه من جهاد الأدباء جهادًا عنيفًا شاقًّا يتناول كل نواحي الحياة، ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها، ومن الحق أن نذكر بالتقدير والإجلال جهاد من سبقونا في هذا المضمار من الشعراء والكتاب، ومن رجال دار العلوم والأزهر، وممن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم. هؤلاء جميعًا

سعوا ويسعون سعيًا حثيثًا محمودًا في سبيل بعث ما كان قد ظل عصورًا طويلة طي الكتب القديمة، وجاهدوا فمهدوه، وردوا إليه حياة كاد جهل العصور التي ساد فيها الحكم التركي الممالك العربية يعفِّي عليها ويدفنها إلى غير عودة. لكن اللغة كائن حي يجب له دوام التعهد، وتعهد اللغة في ناحية الأدب إنما يكون بدوام صقلها؛ لتزداد رقة ولطفًا، ولتكون موسيقاها مما يصلها بالأدب صلة وثيقة، ويجعلها أكثر من كساء له.

هذا الجهاد حظ الكتّاب والأدباء منه أكبر من حظ اللغويين وأصحاب المعاجم، ويكفي أن نذكر مثلًا لذلك ما يقصُّونه عن الكاتب الفرنسي الكبير فلوبير وجهاده في هذا السبيل؛ فهم يرون أنه كان يحار أحيانًا في اختيار اللفظ الذي يعبر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره، فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعًا كاملًا؛ ليجد اللفظ الدقيق الصالح، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة «مدام بوفاري» ويقص انتحار بطلتها بالزرنيخ كان يحس طعم الزرنيخ في فمه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التي تصف هذا المعنى وتصوره تصويرًا مضبوطًا. فهل لنا من الأدباء من يبلغ إخلاصهم لفنهم هذا المبلغ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلطف وتشف، وتصبح موسيقى تتصل بالأدب، لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها في عصور مضت.

هؤلاء الأفذاذ المخلصون لفنهم هم الذين يجددون للغة حياتها قويةً رصينة، وهم الذين يعملون للأدب ويقيمون له أرفع صروحه. على أنهم في عملهم للغة إنما يعملون بوصفهم أدباء، وهم بعملهم هذا يقدمون للغويين غذاء جديدًا يفيدهم في معاجمهم أكبر الفائدة، ويجعل من الأدب الحديث ما يفيد اللغة بمقدار ما يفيدها أدب «قفا نبك»، وإن بقي أدبهم مع ذلك أدبًا عصريًّا سائغًا لذيذ المدخل إلى النفس.

النثر والشعر

كلما أراد الإنسان أن يعبِّر عن إحساس حقيقي رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئًا عاديًّا أقل مما كان ينتظر، ووجد أن أحسن ما في نفسه بقي فيها مختفيًا … لتصوير إحساس كامل، وتمثيل أثره في صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة، ألفاظ غير العتيقة البالية، يلزم اختراع ألفاظ جديدة.

قاسم أمين

ملأنا طِباق الأرض وجدًا ولوعةً … بهندٍ ودعدٍ والرباب وبوزع
وملّت بناتُ الشعر منا مواقفا … بسقط اللوى والرقمتبن والرَّقمتين ولَعْلع
تغيّرت الدنيا وقد كان أهلها … يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرًا وأينقا … متى يُعيها الإيجاف في البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخارَ مطيةً … ولا السلك في تيَّاره المتدفع
ونحن كما غنَّى الأوائل لم نزل … نغني بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدًى … لشيء جديد حاضر النفع ممتع

حافظ إبراهيم

هذه الأبيات من حافظ إبراهيم، وتلك الكلمة من قاسم أمين، صيحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثرًا وشعرًا، وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين

قيلت من ربع قرن أو أكثر، وإن شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين، وليس مقام حافظ في الشكر بمنكر، وقاسم من المُقدِمين في تجديد الكتابة العربية، بل أولهم وأكثرهم جرأة وإقدامًا. على أن هذه الشكوى لا يقف أمرها عند حافظ أو قاسم، بل هي تجيش بنفس كل كاتب قوي الشعور دقيق الحس واسع الاطلاع، وبنفس كل شاعر سمت شاعريته عن أن تقف عند ترديد الأشعار القديمة بقوافٍ جديدة، وعند سبك الصور والأفكار والمشاعر القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب الأولى بهجة، ولكنها ليست لذلك ذات فضل؛ لأنها في الواقع ليست إلا محاكاة وتكرارًا، ومحاكاة الإنسان للإنسان لا تحتاج إلى نبوغ وإن احتاجت إلى ذاكرة، ولا تصل إلى مقام العبقرية وإن خلبت الأنظار فجأة بلألاء بريق سرعان ما يخبو إذا تعرض للنقد الصحيح.

وإنما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم وثقافتهم في حدود هذا الماضي الذي أشار إليه حافظ إبراهيم، والذين اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم، ووقفوا على أدب الأمم المختلفة، هؤلاء يرون أن المدارك والإحساسات الإنسانية ليست جامدة، ولا يمكن أن تكون كذلك؛ لأنها خلق البيئة المحيطة بالإنسان، وقد كانت هذه البيئة في الماضي ضيقة محصورة في حدود القرية أو القطر من أقطار الأرض الذي يعيش فيه الكاتب أو الشاعر. أما وقد أصبحت الإنسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب، وأصبح من اليسير أن يطلع كل مثقف على آثار الفكر والشعور الإنساني في الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور، وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبته، وبين العطف على شخص والإشفاق عليه، وبين النفور والكراهية، وبين الخجل والخوف، وبين التردد والجبن ... درجات متميزة في الإحساس تدركها النفس إدراكًا دقيقًا، وتعبر بعض اللغات عن كل منها تعبيرًا يحددها لك تمام التحديد. ثم ترى نفسك مطالبًا بأداء ذلك في اللغة التي تكتب بها وهي اللغة العربية، فشعر بالعجز، وترى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئًا عاديًّا، وأن أحسن ما في نفسك بقي فيها مختفيًا. بهذا الإحساس يشعر الذين يقرءون ثمرات العلم والأدب الحديث في مختلف اللغات، سواء وقفوا عليها في كتبها الأصلية أو مترجمة إلى اللغات التي صُقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور، وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين في اللغة العربية الواقفين على آداب الأمم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربي المقابل للفظ أجنبي يعبر عن فكرة أو إحساس فلا يجدونه، بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذي يقصدون إلى تصويره.

على أن الكتاب الضليعين في العربية والواسع إطلاعهم في اللغات الأخرى، ما فتئوا إلى اليوم، ومنذ قاسم أمين وقبل عصره، يجاهدون لما أسماه قاسم: «اختراع ألفاظ جديدة» وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم إلى هذه الغاية بإحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثوابًا جديدة تعبر عن الأفكار والإحساسات الجديدة، آخذين في ذلك مأخذ كل الأمم، قانعين من التجديد — بمعنى الخلق دون البعث — بالألفاظ الأجنبية التي لا رجاء في وجود مقابل لها في العربية، لا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراهًا سخيفًا، ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الإكراه فأخفقوا فيه؛ لأنه منافٍ لطبائع الأشياء، فمقضيٌّ عليه بالإخفاق لا محالة.

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين في سبيل إحياء اللغة العربية حياة صحيحة إن لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا في سبيله شوطًا بعيدًا، وحسبك مقنعًا بهذا أنك لا ترى كاتبًا منهم يعارض في أسلوبه أو في تفكيره أو تعبيره عن الشعور والإحساس واحدًا من الكتاب الأقدمين، والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتَّاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ، ولا طه حسين لابن المقفع، ولا مصطفى عبد الرازق لعبد الحميد الكاتب، ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتَّاب العصر القديم، وإنما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه، وأسلوب طه حسين ونظراته، وأسلوب مصطفى عبد الرازق ودقته وظرفه؛ بل إن من لا يزالون يسمون أنفسهم أنصار القديم من الكتاب، أمثال مصطفى صادق الرافعي وصادق عنبر وغيرهما، قد أثرت في أسلوبهم وفي تفكيرهم حركة التجديد هذه تأثيرًا عميقًا، حتى أصبح الجديد طبيعة نفوسهم، وأصبح ما يقتفون فيه أثر القديم ظاهرًا فيه التعمل والصناعة والتكلف، فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيتها حين يكتب حتى تراه يعيش في هذا العصر الذي نحن فيه، يكتب بأسلوبه، ويفكر بتفكيره، ويرى ما يراه من ألوان الإدراك والحسّ المختلفة، ونحسب أنه لولا بقية من الحرص على ماضٍ امتازوا فيه على غيرهم من الكتاب حين كان تقليد الأقدمين امتياز شعرائنا في الحاضر امتيازًا يرونه مجدهم وفخرهم، إذن لرأيت الرافعي وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا في سلك المجددين انخراطًا، ولعل لهم عن ذلك من العذر أن الإنسان لا يستطيع، وإن حاول، أن ينسى ماضيه أو أن ينكره.

وليس عجيبًا أن يتأثر أنصار القديم بحركة التجديد، بل العجيب ألا يكون ذلك. فالحياة دائمة التطور، والجديد هو آخر مظاهرها، وهذا وحده هو السبب في أنه جديد، فإذا انقضى عصره وأحدثت غِيَرُ الحياة جديدًا بعده أصبح هو قديمًا، وما دمت تعيش

في عصر فأنت متأثر حتمًا بحياة هذا العصر، متأثر بالجديد الذي يحدث فيه. على أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالأبوة والوارث بالمورث، ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول، ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم وإن هو حاول كذلك؛ بل إن محاولته الأخيرة لتظهره في ثوب أنصار القديم من التكلف والصناعة، كما أن محاولته الأولى — وإن نجح فيها — تظهره في ثوب من التكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس أقلّ منه استدعاء للسخر، ولعلك لا ترى فرقًا كبيرًا بين ما يتركه من الأثر في نفسك رجل يلبس اليوم رداء الأقدمين ويسير مسيرتهم، وآخر يبالغ في تقليد آخر طراز إنجليزي بالحديث والتحية والعبارة.

ولذلك أيضًا أخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها، ورجع أكثرهم إلى الدائرة التي يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة، حتى قطعوا منها في سبيل إحياء اللغة العربية شوطًا بعيدًا. رجع أولئك إلى هذه الدائرة. كما تقدم إليها أنصار القديم خطوات واسعة، والحق أن هؤلاء المستبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثًا جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التي تتكلم بها، ولا حاجة إلى ضرب الأمثال؛ فكتب العلم والأدب التي أبدعوا فيها متداولة في أيدي الناس جميعًا يتلون فيها أسلس الكلام وأصحه وأدقه عبارة في نقل ما استحدثته الإنسانية من جديد صور الحياة، وكل ما كشف عنه العلم من نظريات، وليس يعرف مبلغ العناء الذي يحتمله أولئك الكتّاب ومبلغ الجهد الذي يبذلونه إلا من رآهم يعتصرون أدمغتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذي يدور بخاطرهم أدق التصوير، وأشد عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافاتِ الشرق والغرب جميعًا تتسع له اللغات التي صقلت في القرون الأخيرة بل توحيه، ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط في اللغة العربية. إذ ذاك يجاهد ليبعث الألفاظ القديمة فيصبها في بوتقة التجديد؛ لتبدو في صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقًا، وأشد دلالة على المعاني التي يراد أن تدل عليها من غير أن يشوبها لذلك كدورة أو اضطراب.

مع هذا الجهاد الذي اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية في العصور الأخيرة فما يزال النثر لما يبلغ الشأو الذي نرتجيه له، ولما يصل إلى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا وإحساسنا تعبيرًا دقيقًا، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من أجلِّ أفكارهم، أو رواية عاطفة من أدق عواطفهم وأعمقها، أو تصوير حس من أجمل إحساساتهم وأسماها؛ لأنهم يرون أنفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام إنما قالوا شيئًا

عاديًّا، وأن أحسن ما في نفوسهم بقي فيها مختفيًا. على أن هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك أن يطرقوا من الأبواب التي اقتضتها حياة العالم في العصور الحديثة ما لم يطرقه الكتاب الأقدمون، وليس من الغلو في شيء القول بأن أكثر ما طرقوا من الأبواب لم يتعرض العرب له إلا عرضًا؛ لأن التجديد لم يقف عند الأسلوب وكفى، بل تناول طريقة البحث وألوان الحس ودرجات الشعور، فصارت شيئًا مغايرًا تمام المغايرة لما كان عند العرب، واقتضت لذلك بناء للنثر جديدًا، وقد أصبح هذا البناء شامخًا، ولكنه ما يزال في حاجة إلى التعهد والصقل والصياغة، وإلى السعة نفسها، حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة في أبعد مداها ومراميها وأعماقها.

هل بلغ الشعر مبلغ النثر في التجديد؟ وهل نستطيع أن نقول إن جهادًا شاقًّا وجه إلى أية ناحية من نواحيه كما وجه إلى نواحي النثر؟ وهل أتاح له هذا الجهاد أن يواتي حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذي يواتيها النثر به، فإذا انقضت أجيال وعرض أدب عصرنا الحاضر نثرًا أو شعرًا على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ؟ يجب قبل أن نبدأ هذا البحث أن نقرر واقعة متداولة على أنها حقيقة ثابتة. تلك أن الشعر العربي في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية بلغ شأوًا لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه، وأن مكانة الشعر في عصور بني أمية وبني العباس والأندلسيين كانت أسمى بكثير من مكانة النثر وأدنى إلى الكمال، وأن الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت جميعًا تصاغ في الشعر بخير مما تصاغ في النثر؛ بل إن الشعر العربي كان هو الأدب العربي، وإن النثر إلى جانبه كان مكملًا له غير مستقل عنه، حتى لكان الكتّاب يحلون نثرهم بما يرصعونه به من أبيات الشعر. فإذا كانت هذه الواقعة المتداولة حقيقة بالفعل ألا يكون من الواجب على الشعراء أن يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر كما كان في أزهر عصوره؛ ليعيدوا للأدب العربي جدته، وليكونوا قد سبقوا الكتاب إلى إحياء اللغة العربية وأدبها، أو ليكون مجهودهم مساويًا لمجهود الكتاب في التجديد، ليكون حكم الناقد الذي يستعرض أدب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئًا لحكمه على النثر في تعبيرهما عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا؟

لا ريب في أن النظر إلى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر للشعراء بفضل أي فضل. فليس من كبرائهم إلا من عارض أفخم قصائد كبار الشعراء في الماضي، فوفق في معارضته أعظم توفيق، وتفوق في بعض الأحيان تفوقًا لا سبيل إلى إنكاره، وهؤلاء: سامي

البارودي، وإسماعيل صبري، وشوقي، وحافظ إبراهيم ... وأضرابهم من فحول شعراء العصر الأخير، ولم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد العربية الكبرى إلا عارضوها وزنًا وقافية ومعنى، فوفقوا وتفوقوا في أحيان كثيرة، وسينية شوقي الأندسية التي يعارض بها البحتري مشهورة، ومعارضة إسماعيل صبري وشوقي لقصيدة: «يا ليل الصب متى غده» ما يزال الناس يتحدثون بها. أما البارودي فقد عارض كثيرًا من فحول المتقدمين وفي مقدمتهم النابغة، وهذه القصائد وغيرها هي من طراز القصائد التي تعارضها لغة وأسلوبًا بل معاني وصورًا، حتى لكأنها قيلت في تلك العصور التي قال أشباهها فيها البحتري والنابغة والحصري وغيرهم من أكابر شعراء العرب، وإذن فقد بعث شعراؤنا العصريون ذلك الشعر العربي القديم بجزالته ومتانته.

بل لقد افتن شعراؤنا في وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال في الشعر القديم؛ لأن هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها أعين الشعراء الأقدمين، أو لم يتعلق بها خيالهم إن لم يتعلق بها شأن من شؤونهم، ولست أنكر أني أتذوق وصف حافظ إبراهيم لقصر الجزيرة الذي أصبح حديقة الحيوان، كما أتذوق قصيدته في نكبة مسينا بالزلزال، وبخاصة حين يقول:

ربَّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر	ض ينادي: أمي، أبي، أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ	ـر تعاني من حرّه ما تعاني
وأب ذاهل إلى النار يمشي	مستميتًا تمتد منه اليدان
باحثًا عن بناته وبنيه	مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه، لا هو ناج	من لظاها ولا اللظى عنه واني

وكما أتذوق هذا الوصف لحافظ أتذوق كثيرًا من شعر شوقي في الوصف، وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده وكلاب صيده، ووصفه لقصر أنس الوجود؛ إذ يقول:

قف بتلك القصور في اليم غرقى	ممسكًا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا	سابحات به وأبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون ما زال غضا

ولست أنكر كذلك إعجابي الذي لا حد له بالشعر الوصفي في وجدانيات إسماعيل صبري، وفي حماسيات البارودي، ولكني أعود من هذا الإعجاب فأسائل نفسي: هل هذه القوافي التي ما نزال نحن مرتبطين بها منذ عهد العرب، وهل هذه الصور التي أدت بحافظ إبراهيم إلى أن يقول:

ونحن كما غنَّى الأوائل لم نزل نغني

وهل هذه القيود المعنوية التي تقيدنا فتجعل شوقي في إحدى قصائده الفذة يذكر الهودج على أنه مركب أم المحسنين في حين كان مركبها «أوتومبيلها» الفخم — أعود فأسائل نفسي: هل الإعجاب بهذه القوافي والصور والقيود راجع إلى أنها تؤدي حاجات النفس من إدراك وحسٍّ وعاطفة أداء صالحًا؟ أم هو راجع إلى أنها تثير في النفس ذكر ما حفظت أول شبابها من شعر كإعجابك بنغم القيثارة الريفية الساذجة بعد سماعك لألحان عبد الوهاب، بل لموسيقى موزار وبتهوفن؟!

كنت أتحدث في سنة ١٩٢٧ إلى جماعة من أصحابي وبينهم الشاعران الكبيران حافظ إبراهيم وخليل مطران، ونحن على الباخرة النيلية «بريطانيا» في النزهة التي دعت إليها لجنة الاحتفال بتكريم شوقي بك بين مصر والقناطر الخيرية، وتناول حديثنا الشعر وما يحس الكثيرون به من أنه لم يسابق النثر إلى الخطوات التي يستطيع معها التعبير عن كل المعاني التي تجيش بالنفس على صورة تتفق ونغم الموسيقى الجديدة، ولا تقف عند الأوزان القديمة التي يقولون إنها كانت تلائم سير الإبل خببًا وذميلًا، ولم يعترض الشاعران على هذه الملاحظة؛ بل واقفًا عليها، وذكر أحدهما أن السبب في جمود الشعر عند أوزان العرب ومعانيهم: وقوف بعض الشعراء في وجه كل تجديد، وإعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد، ولم ينس أحد الحاضرين أن يذكر كيف تطورت الأغاني العامية واتفقت مع الأنغام الحديثة، كما أدمجت — على ابتذالها — كثيرًا من صور الحياة الحاضرة ومستحدثاتها خلال ألفاظها ومعانيها، وما أظن أن أحدًا يرتاب في صحة هذه الملاحظات على الشعر العصري، وعلى وقوفه في قوافيه وأوزانه وفي صوره ومعانيه عن مجاراة أنغام العصر وموسيقاه، بل عن مجاراة الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر. لقد تقف بين ألوف القصائد التي قيلت والتي تقال على أبيات بالغة الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن أدق إحساس وأقواه، لكن هذه الأبيات منثورة في لجج مترامية انتثار الدر في قاع البحر، لا تعثر عليها إلا بعد جهد ومشقة.

وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة، وليس هو محاكاة الأقدمين، وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة، ثم ترتفع بها وترتفع أو تهبط وتهبط وأنت مندفع معها منساق وراءها، متلذذ باندفاعك وانسياقك تلذذك بصوت المغني أو بنغمة الموسيقي، وكما يسبقك المغني إلى القرار أو السمو الذي تنساق إليه نفسك طائعة مختارة، يجب أن يسبقك الشاعر في فيض الحس أو الشهوة أو العاطفة، وأن يشعرك من ذلك أضعاف ما تشعر به لو أنك كنت وحدك، وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيدًا، وكلما استوت له في ذلك النفوس جميعًا — اقترب من ذروة مجد الشعر، وغرز له فيض بناته وريَّاته.

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول أن يوفق لجديد في الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر، ويصل به إلى هذا المدى الذي وصفنا، وفي هذه المحاولات جرأة وفيها جمال. لكنها لما توفق للطريق السوي، فتعبر عن مدركاتنا وإحساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل إليه النثر من قوة ودقة، وهي لما توفق للخروج بالشعر من هلهلته التي تجعل أكثر قصائده ليس بين البيت فيها وما بعده صلة، حتى لتستطيع أن تغير مواضع الأبيات كما شئت دون خوف. ثم هي لما توفق لأوزان تخرج بها عن سير الإبل خببًا وعَنقًا إلى شيء يتفق وأنغام موسيقى عصرنا الحاضر.

يوم يوفق الشعر لهذا الطريق في تلك النواحي المختلفة، ويوم يؤدي الغاية التي أشرنا إليها، يكون قد وفق لأداء حاجات النفس أداء صالحًا، ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما يجعلها تواتي الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر في غير مشقة ولا عناء. لكن ذلك إنما يكون يوم تزول عن الشعر علته، فما هي هذه العلة؟ وما هو سبب الجمود الذي أشرنا إليه في هذا الفصل؟

علة الشعر

يوافقني صديقي الدكتور طه حسين على أن النثر العربي قد تطور في هذا العصر الأخير إلى حيث قارب أن يكون صالحًا لأداء حاجات النفس، وإن كان ما يزال في حاجة إلى معالجة وإلى صقل وإلى زيادة في ثروة ألفاظه؛ ليصل إلى ما وصلت الكتابة في الأمم الغربية صاحبة المدنية الغالبة اليوم؛ وعلى أن الشعر ظلَّ حيث كان الشعر في الأيام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الإسلامية في أبهى عصورها العباسية والأندلسية، وهو يعزو تطور النثر وجمود الشعر إلى مطالعة الكتاب واتصالهم بحضارة العصر في كل مظاهرها العقلية والنفسية، وإلى اكتفاء الشعراء بما قرءوا في شعر العرب، وإلى كسلهم العقلي بعد ذلك، وعدم تغذيتهم أرواحهم ونفوسهم وعقولهم بما تفيض به الأرواح، وتشعر به النفوس، وتنتجه العقول من الآثار في العصر الحاضر. كما يعزو جمود الشعر إلى أنَّ الشعراء قد جعلوه بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأبين، وافتتاح البيوتات المالية، وما إلى ذلك نما لا يتصل بالشعر.

ولنقف عند هذه الأسباب قبل أن نبحث عن غيرها مما أدى بالشعر إلى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء الذين يتجهون إلى القراءة وإلى الاتصال بحضارة العصر حتى لا نتهم بمحاباة طائفة على الأخرى. فأما كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من أثر في شعرهم، فقد يكون فيه بالقياس إلى أكثرهم جانب من الحق، وإن يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر. فهم يقرءون بدء صباهم حين تتحرك ربة الشعر أول ما تتحرك في نفوسهم، وبعضهم يقرأ الشعر العربي القديم؛ لأنه لا سبيل له إلى الاطلاع على الشعر ولا على الأدب الغربي، وبعضهم يتصل بهذا الأدب الغربي فإذا استوى لهم الشعر العربي، واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا بحاجة ملحة إلى التبحر في اللغة العربية وفي الشعر العربي بنوع خاص، لكي يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل

لموسيقى النظم في نفوسهم مما لا سبيل إلى ابتغاء العوض عنه في غيره من أدب غربي أو من موسيقى أو من أدب حديث، وهم سرعان ما يصلون في ذلك إلى إنضاج اللغة في نفوسهم، وما أكثر ما يتيسر لهم بذلك الوقوف على الألفاظ التي تحتاج إليها قوافي الشعر وأوزانه. فإذا اندفعوا في هذه الناحية من نواحي البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم إلى نضج اللغة وإلى ثروة القوافي، بل تأثروا بالشعر القديم أشد التأثر، وأخذوا عنه في كل شيء، واندفعوا بحكم ميل النفس إلى دعةِ الحياة لمحاكاته ومعارضته، ولقد كانوا إلى زمن قريب يشعرون بما في ذلك من شهادة بسبقهم وتفوقهم، حتى أخرجتهم ضجة القديم والحديث في اللغة والأدب من سُباتهم، وجعلت المبرزين منهم يفكرون في جدة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربي، ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربي في اقتحامه إياها. لكن هذه المحاولات ما تزال في بداءتها، وأجرأ هذه المحاولات ما وضعه شوقي من روايات لم يمحص النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة.

وأما أن الشعراء يجعلون شعرهم بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل البعد عن المعاني والصور الشعرية، فصديقي طه على حق فيه. فالشعر ظاهرة نفسية لقائله، يشدو به حين تفيض نفسه بإحساس من الإحساسات، أو بمعنى من المعاني لا تستطيع أن تكتمه، ولن يصدق أحد أن ينبعث هذا الفيض عن دعوة تدعوها جماعة لشاعر كي يقول في غرض معين، كحفلات التكريم والتأبين وإنشاء النقابات والمصارف.

على أن لشعرائنا في غير هذه الأغراض، ولهم فيما تلهم المعاني الشعرية الصحيحة، ما يثير في النفس الإعجاب، وإنك لواجد شعرًا صحيحًا في المقطوعات الوجدانية التي قالها إسماعيل صبري، ولواجد شعرًا صحيحًا في كثير من قصائد البارودي عن الأنفة وعن الحرب وعن الحنين إلى وطنه وهو في منفاه، ولواجد كذلك لشوقي معاني شعرية ذات روعة في قصائده عن الماضي وفي تحنانه إلى مصر أيام كان الأندلس، ولغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه، لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذي خلفوا، والذي يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالًا، وإنما نظم الشعراء أكثر شعرهم في هذه الأغراض التي ليست من الشعر في شيء، وللشعراء عن ذلك عذرهم، وليس هذا العذر مقصورًا على عدم القراءة وعلى الكسل العقلي، بل هو أعمق من ذلك بكثير، ولعلهم لو قرءوا وأجهدوا في القراءة أنفسهم وأعصابهم، لما وصلوا من الشعر إلى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين؛ فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والأصول والفقه وما

إليها مما يتصل بالدين بأي نسب. لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئًا، ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيرًا ولا قليلًا، ويخيل إليّ أنهم لو قرءوا تاريخ العقائد وتطور الأديان، بل لو أنهم رجعوا إلى الأساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم، من التوراة إلى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات، إذن لما غير ذلك من أذهانهم شيئًا؛ ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب، بل هي مسألة تدبر وشعور شخصي، فكري أو نفسي، يتأثر بملامسة مظاهر الحياة من مرئيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب الإنسانية المهذبة تهذيبًا خاصًّا يجعلها قابلة للتأثر والإحساس، ويجب أن نعترف، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعدّا كثرتنا لهذا التأثر الفردي والإحساس الذاتي. فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة، ويتركان لحسنا ولفكرنا أن يميزا من هذه الصور ما يأخذ بهما ويلفتهما لفتاتٍ خاصة؛ بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها في حسِّنا وفكرنا طبعًا يقيدهما بهذه القوالب، ويكرههما على الخضوع لها والإيمان بها، وكما أن حرية الفكر هي أساس النشاط العقلي المنتج، وأساس ما يترتب على هذا النشاط العقلي من سمو في الكتابة بلغ الكتَّاب بعضه، فحرية الحس هي أساس نشاط الذهن والخيال، وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقًّا، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوّز شعرًا.

والتحلل من جمود هذه القيود ليس أمرًا يسيرًا. بل لقد يتململ منها الرجل في نفسه ويراها عبئًا ثقيلًا وسخرية وهزؤًا. لكن نفسه التي ألفتها في الماضي والتي ترى في اطراحها ما يثير الخصومة بين الجماعة وبينها، تؤثر ما سماه طه كسلًا عقليًّا، مع أنه قد يكون شيئًا آخر. قد يكون هو الملال وضعف الرجاء في الانتصار على جمود الجماعة، والاضطرار لذلك إلى النزول منها منزلة تمليق مشاعرها الجامدة حتى حين هياجها، وتمليق إيمانها المتعصب الثائر على كل تسامح، ولعل هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شيء وهجائه، لا لأنهم انتقلوا من التسليم بجماله، وبما فيه من خير إلى إنكاره والاعتقاد بضرره، بل لأنهم أشد حرصًا على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئًا عن فيض روحي لا سبيل إلى كبحه، وإنما منشؤه النظر إلى الحياة ومصالحها نظرة منفعة لا شعر فيها ولا إيمان بها. فالتحدث عن أثر هذه النظرة حديثًا منظومًا إنما يرضي به الشاعر سامعيه قبل أن يمر بخاطره إرضاء نفسه.

ألم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملال وضعف الرجاء في الانتصار؟! أم هم من طينة غير طينة الشعراء وأعدهم تهذيبهم لألوان من التأثر الذاتي والإحساس الفردي

غير ما أعد تهذيب الشعراء إياهم؟ أعتقد أن الأمر متعلق بالظروف التي أحاطت بالكتاب والشعراء أكثر من تعلقه بتهذيب هؤلاء وأولئك مما يشترك الكل فيه على سواء. فقد كانت الكتابة جامدة جمود الشعر إلى ما دون نصف قرن مضى، وكان الكتاب يقلدون أساليب الأقدمين، ويحتذون أنواع كتاباتهم في المقامات والرسائل وما إليهما، ويغرمون بالسجع والبديع غرامهم، ويعتبر أحدهم أكبر فخره أن يكون معارض الجاحظ أو عبد الحميد، وفيما هم في سكينتهم إلى أدبهم تسللت إلى مصر وإلى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية، وبما أصاب أوربا من هزات عنيفة في أعصابها، فقام دعاة لمثل هذه الثورة، بعضهم في السر وبعضهم في العلن، واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم إلى إعلان ثورتهم، ولم يكن أسلوب ابن المقفع، ولا لغة ابن قتيبة، ولا صناعة المبرد، هي التي تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادئ، ولا كانت هي التي تكفل حسن صياغة هذه المبادئ والدعوة إليها؛ لذلك لم يكن بد من أسلوب جديد، ومن لغة جديدة: أسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية الصحيحة ولا يستعصيان على إدراك الجمهور، ولا يقفان دون تمثل مبادئ الحرية والإخاء والديمقراطية، ودفعها إلى نفس الجمهور؛ ليستطيع هو أن يسيغها، وأن يتمثلها، وأن يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها، وكذلك لم يكن بد من أن تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة في الخطابة والكتابة. أما الشعراء فظل أكثرهم بمعزل عن هذه الحركة، ولم يفكر أحدهم في أن يبدع في الشعر جديدًا يقربه إلى الجمهور ويقرب الجمهور إليه، واعتبروا مثل هذا السعي جناية على الشعر بوصفه فنًّا جميلًا. من ثم أقام الشعر في سماواته الأولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس إليه، وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها، ويلفتها إلى ناحية النور الجديد، ويلهمها فضل الآراء الحديثة، وكلنا يذكر جهاد الكتاب في سبيل التحلل من قيود الماضي، وما قاساه قاسم أمين ولطفي السيد وغيرهما، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة، ومس الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعي، وعجز من سوى هؤلاء المجددين من الكتاب دون الاضطلاع بأعباء هذا الإصلاح وبتوجيه تلك الشهوات، ثم لولا تغلب المدنية الحاضرة، مدنية العلم والمعرفة وعجز من سوى المجددين دون رفع لواء هذه المدنية، إذن لبقي النثر كما بقي الشعر في جموده، ولبقينا مقيدين بالصور القديمة نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمرّ بخواطرنا، وعن فكرة تنضجها أذهاننا، ولكن لنجاري بها الجاحظ أو عبد الحميد أو بديع الزمان، ثم ليكون أقربنا إلى محاكاتهم أبرعنا في الكتابة؛ لأنه يكون صدى أولئك الذين تبوءوا بحقٍّ مكان الزعامة الكتابية في زمانهم، والفونوغراف الذي يحكي بدقة، وإن يك من غير شعور، ما ألقى به إليه.

على أن ثورة النثر لم تصل من تحريره إلى كل ميادينه، ولم تقرَّ للأدب حريته في كل صوره؛ بل وقفت عندما أبدت الظروف مسيس الحاجة إليه، وما أحسب واحدًا من الكتاب يحدث نفسه بأن الكتابة بلغت من مثلها الأسمى الذي تصبو إليه غاية المدى، أو أصبحت لا يحول بينها وبين دقة الأداء عن كل ما يجول بخاطر الكاتب إلا قصور ألفاظ اللغة وأساليبها. بل لا يزال بيننا وبين الكمال مدًى واسع غير إتقان الصناعة ودقة الصياغة، وإذا كنَّا قد اقتحمنا بعض الميادين التي كانت من قبل أقداسًا لا ترتفع إليها العين ولا تسمح لنظرة منها بخلسة، فإنا ما نزال أمام بعض الميادين الأخرى مقيدين كالشعراء سواء، وربما كنا كذلك أمام أكثر الميادين الشعرية التي تتعلق بالحس والعاطفة. فأين منا من هوى قلبه إلى ألوان غير مألوفة من الجمال تمددت فيه وانتشرت فملأته ففاض به هواه فعبر عنه تعبيرًا صادقًا؟ وأين منا من ساور الشك نفسه أن رأى النور القديم الذي اهتدى به أسلافنا قاصرًا عن هدايتنا، كما صارت الأنوار القديمة التي كانت تنير دياجير الليل فاترة ضعيفة أمام لألاء الكهرباء، فانبعث يلتمس نورًا جديدًا، واندفع إلى ذلك بحرارة إيمان كلها عاطفة، وكلها شعر، وكلها فيض وإلهام؟ وأين منا من سما للكمال بعاطفة فبكى للمذنب ذنوبه، ورأى فيه أخًا أحق برحمة الله ممن لم يجترح في الحياة إثمًا! وأين منا من اهتزت كل أعصابه من الألم أمام مآسي القدر يفجع بها الأبرياء كل يوم فثار على القدرة ثورة الجبابرة! أوليس واجبًا علينا، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأدب، أن نكون رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر؛ لأنها مغللة ملقاة في غيابات الماضي، والذين لا شيطان لهم يستمعون إلى وحيه؛ لأن شياطين الشعر لا تلهم إلا أحرار الحس والشعور والخيال! أو لا يجوز لغيرنا إذا رأى ما بينت من حالنا أن يهيب بنا: رفقًا بالقوارير، وأن يذكر بكلمة السيد المسيح: «من كان منكم غير ذي وزر فليرمها بحجر!».

وسنظل معشر الكتَّاب قاصرين دون التعبير عما يجول بخواطرنا حتى تنحل القيود التي تربطنا، وتتفتح أمامنا الميادين التي ما تزال مقفلة كما تفتحت إلى اليوم ميادين أباحت لنا أن نصل فيها إلى تطور الكتابة تطورًا يسّر لنا التعبير عما يجول بخواطرنا بعد تلك القورة القوية التي قام بها الذين سبقونا، والتي ما تزال إلى اليوم مستمرة تريد أن تفتح من الأبواب ما لا يزال مغلقًا.

ولا سبيل إلى جدة الشعر إلا أن تؤدي إليها ثورة كالتي أدت إلى جدة النثر، وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية أدوات هذه الثورة في الشعر ما لم يكن لها

أساس عميق سنده الشعور الإنساني الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية، وما للشعر وهذه المصالح والشهوات؟! إنه لا يلبث إذا تناولها أن يسمو بها إلى مراقيه التي تحلِّق فوق وضيع المطامع، ويكسوها هالة من جمال وجلال، ويستصفي الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده. انظر إلى الشعر الغرامي. ليست «جوليت» وليست «ليلى» وليست «هلويز» لذواتهن شعر الشاعر، إنما الشعر ما في جمال أولئك وما في عاطفتهن من خالد ينتقل على الأجيال، فيشدو به الشاعر، ويسبغ عليه كل ما واتاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور، وكما أن الحب عاطفة تحرك الشاعر فالإيمان عاطفة تحركه، والشفقة كذلك عاطفة تحركه، ونفوسنا في حاجة إلى غذاء من الإيمان كحاجتها إلى غذاء من الحب، ولن يكون إيمانها شعرًا إذا هو كان إيمانًا مطمئنًا، كما أن الحب لن يكون شعرًا إذا كان حبًّا مطمئنًا. بل لا بد، في الحب وفي الإيمان وفي الإشفاق وفي الحرية وفي مختلف مظاهر الطبيعة وفي كل ما تتأثر به النفس، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلًا أعلى وأملًا ساميًا؛ لتفيض به النفس شعرًا، وليكون لهذا الشعر على الزمن بقاء. فأما دون ذلك من أثر هذه العواطف في النفس فالشعور به مشترك بين الناس جميعًا، وليس في الإفضاء به شيء من الشعر، وإن أمكن أن يكون فيه نظم وكلام فخيم وفصاحة وبلاغة وبيان بديع.

وهذا هو ما يجعل لصديقي طه كل الحق حين يأخذ على الشعراء أنهم يجعلون شعرهم بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية، وما يجعل كل إنسان على حقٍّ حين يعيب شعر المناسبات، وحين يعيب أكثر الشعر العربي الحديث؛ لأن أكثره شعر مناسبة، والأمر كذلك في شعرنا الحديث بنوع خاص، أن كانت المناسبات التي تلهمه ليست مناسبات تحرك نفس الشاعر وتهزها من الأعماق فتدفعها إلى الإفاضة بمكنون ما فيها، حتى لتجدك ما تكاد تتخطى بعض الأبيات المتصلة بالمناسبة حتى ترى إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد تجلى، وقد غمر المناسبة، وسما فوقها، واتصل بحياة الوجود كله على نحو ما حركت الثورة الفرنسية نفس جيتي أو ما حرك زلزال لشبونة نفس فولتير، وإنما هي مناسبات تافهة أغلب أمرها كالمناسبات التي توحي ما يلقى من الشعر في الحفلات. فإذا هي بلغت من القوة والسمو ما يحرك نفس الشاعر ويثيرها، ويذكي فيها أقوى المعاني، وأروع الذكريات، رأيت ذلك قد وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد لا تتجاوز الأربعين أو الخمسين أو الستين بيتًا، ورأيت سمو الإلهام لا يتصل في هذه الأبيات كلها فياضًا متدفقًا آخذًا بعضه برقاب بعض ناقلًا إياك معه

إلى السماوات التي ارتفع الشاعر إليها، بل ترى سمو الإلهام هذا قد وقف عند أبيات منثورة هنا وهناك خلال القصيدة من الشعر كلها رصينة النظم واللغة، لكن الإلهام فيها لا يعدو أن يكون بروقًا خاطفة تأخذ النظر كلما أنارت، ولكنها ما تلبث أن تخبو؛ لتحل محلها الصنعة في الشعر والتجويد في النظم، وإذا كان مرجع ذلك في المناسبات العادية إلى أن شعر المناسبات ضعيف بطبعه؛ لأن الإلهام فيه ينطبع في النفس من حوادث خارجة عنها، في حين أن الإلهام في الشعر الصحيح داخلي يصدر عن النفس ذاتها، ويهتز له كل وجود الشاعر؛ لأنه الفيض المضيء لدخيلة حياته ولكل إيمانه ولكل عواطفه وكل وجوده، فإن قصور المناسبات الكبرى عن إلهام شعرائنا أكثر مما ألهم زلزال مسينا حافظ إبراهيم، وموقعة أدرنة وانتصار الأتراك بعد الحرب الكبرى شوقي قصائده في هذه الحوادث، إنما يرجع إلى ضعف ثورة النفس وإلى هذه السكينة المطمئنة التي أشرت إليها، وإلى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم.

وإلى أن تحدث هذه الثورة سيظل الشعر في جموده، وستظل المعاني الشعرية الصحيحة نادرة، وستظل الأوزان الشعرية واقفة وقوف الموسيقى والغناء، وسبيل هذه الثورة أن تظمأ النفوس لحرية الإحساس والعاطفة كما ظمئت من قبل لحرية الفكر وحرية التعبير عنه، ولست أرجو أن يكون هذا الظمأ شأن السواد، وإن رجوت أن يتقرر حقَّه فيه. لكنما أرجوه للأفذاذ الذين يحملون على عواتقهم أعباء النهضات الكبرى التي لا طريق لها غير الثورة. هؤلاء الأفذاذ يجب أن يكونوا في حلٍّ من كل قيدٍ للذهن أو للحس أو للشعور؛ لكي يهديهم إلهامهم المهذب بكل ما أورثنا الماضي، وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفنّ، إلى المستقبل المستور بحجب الغيب، والذي لا يتفتح إلا لهؤلاء الأفذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه. فإذا وجد الأفذاذ ودفعهم الظمأ للحرية إلى تحطيم القيود التي ما تزال تربط الشعراء في أكثر نواحي حياتهم، وسموا هم بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد وشهواته، وحلَّقوا ابتغاء إرضاء نفوسهم وعواطفهم وأذهانهم — إذا كان ذلك آن للشعر أن تتجدد معانيه وأوزانه وقوافيه، وصار أداة صالحة للتعبير عما يجيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر.

ووسيلة الشعراء إلى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية، تلك أن يطلب الشعراء الكمال لذاته لا رغبًا ولا رهبًا، وأن يسموا فوق مطامع المادة ومزالق الذلة والخضوع لوضيع الشهوات، وأن يجاهدوا للتحلل من رق الإسار الذي ارتبطوا به مع الشعر العربي القديم، ولعلهم إذا رجعوا إلى

تطورات الشعر الغربي في العصور الأخيرة كان لهم فيه مثل. فقد أعلن رنسار مذهب بعث الأدب اليوناني والروماني في القرن السادس عشر، ووجد هو ومن تابعه في هذا الأدب فيضًا ظل يلهمهم قرنين كاملين، لكنهم كانوا في ذلك ينقلون ذلك الأدب القديم من لغاته إلى لغتهم، فتبدو له جدة عند الجمور الذي لا يعرف اللاتينية ولا اليونانية. فلما كان القرن الثامن عشر انقض الشعراء في أوربا على هذه القيواد القديمة، وأعلنوا حرية الشعور والشعر، وساروا به الخطى الواسعة التي بلغت الشأو الذي أدركه اليوم، وها نحن أولاء قد مضت علينا أجيال ونحن مقيدون بالشعر العربي القديم معاني وأوزانًا. أفما آن لنا أن تكون لنا شخصية مستقلة، وأن يعلن شعراؤنا حرية الشعور والشعر، وأن يقولوا بوحي نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحي الأقدمين وإلهامهم؟! أوما آن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك المستوى الذي تضطرهم إليه ذاكرة الجمهور اضطرارًا، فيجذبوا الجمهور إليهم كارهًا بادئ الرأي، ثم سعيدًا بما أكره عليه بعد ذلك؟! أما آن لهم أن لا يتأثروا بتمليق الناس وبحاجاتهم المادية، فيكون شعرهم شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف التي لا شعر فيها!

ولست كبير الرجاء في مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضي على أن يغالبوا ما نشَأوا عليه، وأن يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه ولو كان هذا الازدراء سبيل الكمال. فليس من اليسير على النفس أن تغيِّر من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع، ولست أدري أيستطيع الناشئون اليوم إبداع هذا الذي أدعو إليه من الاستقلال، ومن البحث في ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها عصرنا الحاضر في الحب والحق والشفقة والحرية والإيمان والشك، ومن إرسال خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة في هذه الشؤون كما تتغذى النحلة من رحيق الزهر؛ لتخرج للناس شهدًا شهيًّا، وكيف نثق بالناشئين ولما يظهر منهم أحد مستقلًا عن كبار شعرائنا مرسلًا إلى الناس من فيض شعره ما تبهرهم جدَّته، وما تهزهم قوته، وما يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير ما ألفوا، ثم هم يرونه مع ذلك ذا جلالٍ وروعة!

وإنما رجاؤنا أن تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في طلب الكمال الشعري لِذَاتِهِ عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم، والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه إياه على غير تلك القواعد القديمة التي كانت تبعث الجمود إلى الأذهان والقلوب والعواطف، وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أَعَنَّاهُ على تقرير حرية الفكر، وأن نوسّع أمامه من آفاق الفن بمقدار

ما نوسع من آفاق العلم، وأن نعرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار فإذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا أن نأمل من بين هذا الجيل الجديد في أولئك الأفذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة، والذين يجعلوننا نحس إذ ننشد شعرهم بائتلاف جوانب نغمته مع سائر أنغام الحياة الحاضرة وصورها، بدل أن نرى أنفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الأطلال يريد أن يبعث أمام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال.

ومتى وُجد هؤلاء الأفذاذ آمن رفعوا لواء الشعر بأن من الواجب عليهم أن يقتحموا ميادينه بروح جديد؛ روح غير هذا الروح الأثِر الذي يحصر شعراءنا أكثر الأمر في دائرة ضيقة من عواطفهم الوقتية أو تفكيراتهم السطحية أو أخيلتهم القليلة السمو، وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط قدير على أن يحلق في جو العالم كله ويتصل به، ملقيًا عن كاهله حدود المكان والزمن، مرتفعًا إلى السماوات العلا، متصلًا بالملائكة والشياطين، ثائرًا على كل عتيق بالٍ، متوثبًا في ثورته لينتظم آلهة الإغريق والمصريين القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الأمم والعصور المختلفة في تحليقه وسموه، مجاهدًا لينقي ذلك كله ويصهره، ويخلق منه في عالم الشعر خلقًا جديدًا، وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا الروح، كما أن غزو الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك، كفيل بأن يدفع بالشعر إلى صدر النهضة، وأن يجعل منه الأداة الروحية القوية التي تحطم الكثير من الأغلال، وترتفع بالإنسانية في سماء الحرية والحب والحق والجمال.

وهذا الروح يجب له قبل كل شيء أن يرتفع بالشاعر عن شعر المناسبات إلى ما يصدر عن وحي الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر، ويجب أن تكون غايته تصوير الكمال في صور تستولي على نفس قارئها وسامعها، وتطير بها على أنغام الشعر الموسيقية؛ لترتفع فوق مستواها ولتبذ نفسها، ولتحس معنى الكمال إحساسًا عميقًا يشعرها بضرورة الدأب للجهاد في سبيله، وتعجلها إذا قرأت شعرًا يصور لها الكمال في الحب، أو الكمال في الحرية، أو الكمال في الأمل، أو الكمال في الألم، أو في أي ما شئت من معانٍ وعواطف وأخيلة أثيرية الحدود دائمة الاتساق والاتساع، شعرت بأن في الحياة معاني غير هذه المعاني التي يحياها الناس ويجعلونها غاية جدهم ومنتهى أملهم، وشعرت بأن وجودها الحي بيننا يقتضي دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية، وكلما تنزهت هذه المعاني عن مناسبات الحاضر، وبلغت في روعة تصويرها ما يرجى

للكون كله من كمال — كان الشعر أكثر شعرًا، وأكثر أداءً للغرض المقصود منه، وأكثر تحقيقًا لرسالته السامية في هذا الوجود.

فنّ القصَص

تكاد القصة اليوم في الغرب تستأثر بالأدب المنثور كله، وهي ولا ريب تتقدم كل ما سواها من صور هذا الأدب: فالرسائل التي كانت ذات مكانة سامية في زمن من الأزمان قد اختفت أو كادت، والقطع الوصفية القائمة بذاتها، والمكاتبات الأدبية الطريفة الأسلوب … وما إلى ذلك من أنواع النثر، قد اندمج في القصة وأصبح بعض ما تشتمله، وأنت إذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكاتب معروف كحديقة أبيقور لأناتول فرانس، والحكمة والقدر لماترلنك وغيرهما من مثلهما، لم تجد لهما في عالم الأدب من المكانة مثلما كان لرسائل مونتني في القرن السادس عشر ولبعض رسائر روسو وفولتير في القرن الثامن عشر، وأصحاب هذه الرسائل أنفسهم إنما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التي تجود بها قرائحهم، ولم يذكر كاتبٌ في النقد الحديث أن كتابًا من كتب الرسائل قد أثر في سيرة الجماعة تأثير قصة من القصص، في حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة إميل في التربية لروسو، ولرواية فرتر الخالدة لجيتي، ولبعض روايات فلوبير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الأثر. بل إن كثيرين ليعترفوا بأن القصة الروسية في العصر الأخير منذ تولاها دستويفسكي وترجنيف وتلستوي كانت ذات أثر بالغ في توجيه الحياة الأوربية كلها.

ويذكر مؤرخو الآداب أن فنّ القصص على الصورة المعروفة اليوم في الغرب فنٌّ حديث. لكنهم يذكرون كذلك أن القصص لذاته قديم يرجع إلى أيام اليونان وإلى ما قبل أيام اليونان في مصر والصين. من اليسير أن يقدر الإنسان قدم القصص، وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت، ثم تطور بعد ذلك في صور مختلفة إلى أن وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم في الغرب، وأقرب دليل على ذلك ما نشاهده من ارتياح الأطفال للقصص، وإنصاتهم لها، وعظيم استمتاعهم بها. كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثرًا في

نفس الجماهير أيًّا كان المدى الذي بلغته من الحضارة، هو هذا النوع. هؤلاء «الشعراء» الذين يذهبون إلى الأرياف وإلى مقاهي المدن يقصون حكايات عنترة وأبي زيد ودياب بن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصي هذا ما لا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب، والأطفال والدهماء هم صورة الإنسانية في بدء حياتها، وإذن فقد كانت هذه الإنسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها، وقد كانت القصة من أول الصور للفن الأدبي ظهورًا فيها.

إلى جانب هذا الدليل دليلٌ آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه؛ ذلك أن الحياة من أولها إلى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها. ثم إن حياة كل فرد من الأفراد تتكون في مجموعة من القصص الصغيرة أو الكبيرة، وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه بعد انقطاعك عنه أيامًا أو شهورًا أو سنين؟ أوَلا يسأل كل منكما الآخر عما فعل الله به أثناء انقطاعكما، فيقص عليه صاحبه ما حدث له في هذه الأثناء، وما وقعت عليه أو اتصل به خبره؟ والقصة بوصفها فنًّا لا تزيد على جمع هذه الأخبار التي يتحدث الناس بعضهم إلى بعض بها، واختيار طائفة من بينها، وخلق صورة حيّة منها تمثل عالمًا خاصًّا له مميزاته وأشخاصه، وما وقع لهؤلاء الأشخاص من خير وشر، وما أثروا في البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة.

ونحن واجدون من رواية التاريخ ما يعزز هذين الدليلين ويزيدهما قوة، ولسنا في هذه السبيل بحاجة إلى استقصاء تاريخ الأمم المختلفة في الأزمان العريقة في القدم. بل يكفينا أن نرجع إلى التاريخ الديني وإلى الكتب المقدسة نفسها. فهذا التاريخ يقصُّ على الناس من أخبار من تقدمهم ما فيه لهم موعظة وعبرة، والتاريخ نفسه ليس إلا قصصًا يسبغ عليه كل مؤرخ من خياله ما يسبغ على حياته قوةً وفيضًا. كما أن القصة ليست إلا تاريخًا إن أبدعه خيال كاتبٍ أو أديب فهو إنما أبدعه من واقع الحياة، وكثيرون من القصصين يلجأون إلى التاريخ يستلهمونه مادة قصصهم كلّها. فوالتر سكوت في إنجلترا، وإسكندر دوماس في فرنسا، إنما اتخذا من تاريخ إنجلترا ومن تاريخ فرنسا مادة قصصهما جميعًا، وهما قد أسبغا على هذه القصص من خيالهما قوةً تجعلنا نتشكك إلى حدٍّ كبير في صحة كل الوقائع التي يرويانها، وإن كان خيالهما يزيد هذه الوقائع رواء وروعة عما كانت عليه الوقائع التي حدثت بالفعل، ومن لا يلجأون إلى التاريخ من القصصين إنما يلجأون إلى ملاحظة الواقع أمامهم، وتدوين مشاهداتهم في قصصهم، وهذا نوع من التاريخ أيضًا، تاريخ الحاضر، في حين أن السابق تاريخ الماضي، ولذلك

كثيرًا ما يلجأ المؤرخون إلى ما كتب في عصر من العصور من قصص، وما وضع أهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب؛ ليرسموا صورة صحيحة من الجمعية التي عاش هذا الأدب بين أظهرها. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قدم القصة. كذلك جعنا نستشهد بهذا التاريخ أنه لم يرو ما روي من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها، وإنما رواها عبرًا ومزدجرًا، والرواية للعبرة والزجر تقتضي اختيار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبرة، كما تقتضي صياغة هذه الوقائع في الأسلوب القويّ الذي يدخل العبرة إلى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن أن تفهمها، والقصاصُ المؤرخون الذين يكتبون بهذا الأسلوب ولهذه الغاية يقيمون فنًّا من فنون الأدب، ومن أسمى فنون الأدب.

ولقد اتُّهم الأدب العربي القديم خطأً بخلوه من القصص، وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس في الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما في تاريخ اليونان. لكن القصص كما أسلفت قديم، وهو في الحقيقة قوام الأدب العربي المنثور كله، وبحسبك أن ترجع إلى أي كتاب من أمهات كتب الأدب؛ لتراه جامعًا بين دفتيه من الأقاصيص القصيرة ومن القصص الطويلة ما لا شبهة عندي في أن الخيال كان له الأثر الأول في وضعه، وأنه لذلك بعض فنون الأدب، ولهذا لا يصح أخذه حجة تاريخية على الوقائع التي رواها، وإن صح اتخاذه حجة على نفسية الأمة الإسلامية في الأوقات التي أنشئ هذا الأدب فيها، واعتباره وثيقة وسندًا تاريخيًّا من هذه الناحية، وبحسبك أن تعود إلى كتاب الأغاني، وإلى كتاب العقد الفريد، وإلى كتب الأمالي؛ لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرام أو الحماسة أو ما إليها من أنواع الرواية، ويتعذر عليَّ أن أعتقد أن الرواية التي يروونها عن حروب وائل وما فيها من الأشعار المنسوبة لجليلة ولغير جليلة تمثل وقائع تاريخية، ولست بهذا أنكر وقوع هذه الحروب، كما لا أنكر جمال الرواية التي رويت عنها، وما للعرب في ذلك على التاريخ والأدب من فضل. لكني أعتقد أن الرواية الأدبية الجميلة التي وضعت لهذه الحروب والأشعار التي وضعت على لسان أبطالها، إنما وضعها أديب قصاص أراد بما خلعه عليها من روعة الفن أن يجعلها أعذب في النفس وأسلس مدخلًا إليها، وهو في ذلك إنما صنع ما صنع هوميروس حين وضع إلياذته، وأجرى فيها على لسان أبطال تاريخ اليونان ما أجراه من أدب رائع هو لليونان فخر؛ لأنه من صنع هوميروس اليوناني، وهو لتاريخ اليونان فخر

كذلك؛ لأنه يمثل بطولتها وشهامتها في خير صورة يمكن أن تمثل فيها، وكتاب الأغاني فيه من هذا القصص الأدبي البالغ ذروة الفن الشيء الكثير، وإن لم يكن قد نسج على منوال القصة الحديثة؛ لأن القصة الحديثة لم تظهر في الغرب نفسه — على ما يقول الباحثون استنادًا إلى مؤرخي الأدب الغربي — إلا منذ قرنين اثنين.

ولقد تطور الأدب القصصي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوربا في صور وألوان عدة، وهو لا شك سيتطور من بعد في صور وألوان أخرى. ذلك بأن القصة تمتاز عن غيرها من صور الأدب بأن ليس لميدانها حد إلا الخيال، وليس لتطورها آخر إلا ما ينتهي إليه تطور الجماعات، إن أمكن أن يكون لهذا التطور نهاية. فهي بعد أن تحررت من قيود الأدب اليوناني والأدب الروماني، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تطورت من الأدب الوجداني الذي أنشأه روسو بقصته الكبيرة «هلويز الجديدة» إلى أنواع متعاقبة من الأدب أطلقت عليها أسماء مختلفة حسب الغاية التي يتوخاها القصاصون عن قصصهم، فسميت الأدب الواقعي، أو الطبيعي، أو النفساني، أو التصويري، أو الأخلاقي، أو الفلسفي ... أو ما إلى ذلك من مسميات ليس من غرضنا هنا تحديدها ولا الحديث عنها. لكن ما لا ريبة فيه أنها كانت تمثل صورًا من ميول العصر وأخلاقه ونزعات أهله، وبخاصة من يتجه هذا الأدب إليه منهم. فكما أن أدب القرن الثامن عشر كان يتجه قبل كل شيء إلى الذين تجمعهم الصالونات، والذين كانوا يضعون العواطف والغرام فوق كل اعتبار آخر، ولذلك غلب الأدب الوجداني فيه ما سواه، وكما أن أدب القرن التاسع عشر كان أكثر ذيوعًا بين طبقات الأمة، وأكثر تأثرًا بالمبادئ العلمية التي ظهرت في ذلك العصر، ولذلك تخطى الوجدانيات الغرامية إلى تمثيل الواقع فيما كتب «زولا» و«فلوبير» و«موباسان» على اختلاف النزعة التي نزع إليها كل واحد منهم، كذلك تخطى أدب القرن الذي نعيش فيه — والعهد الأخير من القرن التاسع عشر — الرياليسم والناتورالسم إلى صور أخرى بدت مختلفة في أدب «لوتي» و«أناتول فرانس» و«بول بورجيه» و«جول لومتر» وغيرهم، ولكنها تعبر جميعًا عن ميول العصر العلمية، وعن الحرص على الطرق التحليلية في البحث، وعما تدفع إليه هذه الطرق التحليلية في أحيان كثيرة من التشكك واللاأدرية، وها نحن أولاء نرى في وقتنا الحاضر الرواية النفسانية تجاور الرواية الإباحية؛ لأن هذا العصر الذي تمخضت الحرب عنه لما يهتد إلى سبيل تتحد فيه الغاية وإن اختلفت فيه وجهة النظر، وهو مدى يجمع بين المتناقضات، لعل احتكاكها يثير منها شررًا يهديه الطريق إلى الحق وإلى السعادة بعدما انبهم عليه هذا الطريق وبعد ما ضل فيه رشاده.

نستطيع أن نقول: إن القصة تطورت في الأدب الغربي بما يجعلها تمثل عصوره المختلفة إلى عصرنا الحاضر، وإذا كانت لدينا بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور، كما تمثل قصة حي بن يقظان التفكير الديني الحر في عصر ابن الطفيل، فإن ما يُزْهَى به الأدب العربي بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشيء الكثير، وهي ولا ريب خرافة قوية لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن أساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة، لكنها مع ذلك تمثل حالًا نفسية لعصور لا غلو في تسميتها عصور التدهور. فكتاب «ألف ليلة وليلة» الذي جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب والذي لا يزال عند الأمم كلها يعتبر مصدرًا من مصادر الأدب القوي، لا يخلو في كثير من أجزائه من الخرافة التي كانت سائدة في العصر أو العصور التي كُتب فيها، ومع ما فيه في كثير من الأحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الأسرة وحياة الجماعة تصويرًا مضبوطًا دائمًا على أساس من الملاحظة الصحيحة، فإن ما يبلغه الخيال فيه من رسم صور الجن وأخبارهم، ومن الحديث عما في الهند والسند وغيرهما من آثار لم تعرفها الهند والسند إلا في مخيلة أصحاب هذا الكتاب العربي، يدل على عقلية خاصة كانت تسيغ هذا النوع من التفكير وتعتبره مصدرًا للحقيقة. فأما قصة عنترة والزير سالم وسيف بن ذي يزن ورأس الغول وما إليها فدون ألف ليلة وليلة في خصب الخيال، وإن كانت تزعم أنها تعتمد على وقائع التاريخ اعتمادًا قصصيًّا ليست له روعة ألف ليلة وليلة ولا قوته، وهي مع ذلك تصور الحياة العقلية للعصور التي ظهرت فيها، وتدل على ميول أهل تلك العصور ونوع حياتهم.

وقد تكون هذه القصص التي ذكرنا آخر ما نعرف من القصص العربي، وهي على الأقل آخر ما نعرف من القصص الذي يستحق أن يضيع الإنسان شيئًا من وقته في قراءته. ثم كانت بعد ذلك فترة ركد فيها القصص حتى في صوره التافهة كما ركدت سائر صور الأدب، وقد لا يجازف من يقول: إن القصص يحاول الآن استعادة حياته. على أن الأقاصيص الصغيرة التي تظهر من حين إلى حين، والقصص التي لم يظهر بعد منها ما يعد على الأصابع، ما تزال بعيدة عن أن تعد بعثًا لهذا النوع من الأدب؛ ذلك بأن القصة — أيًّا كانت الحوادث التي ترويها — إنما تدل على فكرة، وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها. لتكن هذه الفكرة تافهة، وليكن المثل الأعلى وضيعًا، فهما على كل حال يترجمان عن غرض يتطلع صاحب القصة إليه … بل إن القصص التي تكتب للتسلية ليس غير، والتسلية العامة لا الخاصة كالقصص البوليسية ونحوها، لا يمكن

أن تخلو من التعبير عن فكرة في نفس الكاتب. فأما القصص التي تسمو فوق هذا المستوى، وأما القصص التي تعد بحق أدبًا وفنًّا، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى. قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب؛ فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة، ويكونان لذلك هما الواضحين فيها، كما ترى في قصة حي بن يقظان، وكما ترى في قصة إميل عن التربية لروسو، وكما ترى في قصص الوزير الإنجليزي الكبير دزرائيلي الذي كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها ما يجول بخاطره من صور إصلاح الجماعة الإنجليزية، وقد يكون قصد الكاتب إلى غير الفكرة؛ قد يكون قصده فنيًّا بحتًا. لكن كل إنسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على أن يبدع في الفن، لا يمكن أن يلهَم في فنه ما لم تكن له فكرة يرمي إليها، ومثل أعلى يطمح إلى تحقيقه. فالأدب فنٌّ، وكل من لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى من أرباب الفن لا قيمة لفنه ولا بقاء، والقصة في الأدب العربي الحديث ما تزال أغلب أمرها تستلهم القصة الغربية مقلدة إياها في صورتها غير صادرة في الوقت نفسه عن فكرة ومثل أعلى يحركان نفس صاحبها، وإذا كان التقليد في أغلب الأحيان مقدمة البعث، وكان تقليد الأدب اليوناني والروماني مقدمة بعث أوربا في القرن السادس عشر، فإن البعث الصحيح هو الذي يقوم على فكرة ويلهم مثلًا أعلى. فنحن، إلى أن نصل إلى التأليف القصصي القائم على هذا الأساس، إنما ننفخ في حياة القصص روحًا تقليديًّا صرفًا، روحًا لا يسمى بعثًا حتى يستقل بنفسه، ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب، ومن القومية والوراثة التي يخضع الكاتب لأثرهما.

والحقيقة أن القصص على انفساح ميدانه وتشكل صوره وألوانه لا يكفي فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر في ظاهرات فنّ الأدب؛ لذلك كان الكتاب القصصيون — الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئًا من التقديس — من ذوي السعة في العلم والاطلاع إلى جانب ما لهم من موهبة الفن في التصوير والأسلوب. هؤلاء يحرك اطلاعهم في نفوسهم الأفكار المختلفة، وينتهي بهم تفكيرهم إلى مثل أسمى يطمحون إليه، وقد ينحو غيرهم ممن لم يمنح هبة الفن نحوًا آخر في تدوين ما هدته إليه أفكاره، وتصوير المثل الأعلى الذي يرجو أن تصل الإنسانية إليه من بين هؤلاء الفلاسفة والحكماء. لكن الفلسفة غذاء جاف للسواد الأعظم من الناس، فهم لا يسيغونه ولا يطيقون هضمه. أما القصة التي تحتوي هذه الفلسفة وتلك

الحكمة فتشتملها على صورة غير تلك الصورة المطلقة الجافة. هي تحتويهما بعيدين عن التجرد ملابسين للحياة في مختلف صور الحياة على ما يعرفها السواد بحواسه لا على ما يستشفها الحكيم والفيلسوف بمنطقه وبصيرته. هي ترسم الحياة على ما يراها ويحسها عامة أهل الحياة، وترسم ما في الحياة من حقائق، وما تصبو إليه الحياة عن طريق المثل الأعلى من كمال … وهي ترسم ذلك متصلًا بعواطف الناس ومشاعرهم، وبالواقع المحسوس في الكون، وبالمشاهد في الأفلاك، وبما سوى ذلك مما لا يستعصي على الإدراك، ولا يحتاج لانقطاع خاص ولدراسة خاصة قد يحولان بين الشخص وبين أن يدرك كثيرًا مما في الحياة غير ما انقطع له واختص به.

وقد حدت طبيعة الفن القصصي هذه ببعضهم إلى القول بأن الأدب إنما يعبر عن أنصاف الحقائق، على حين تعبر العلوم وتعبر الفلسفة والحكمة عن الحقائق عريانة واضحة في جميع نواحيها، ولست أدري هل التعبير عن الحقيقة الكاملة مما يدخل في باب الممكنات، وها نحن أولاء ما نزال نرى العلم يهدم مقررات العلم نفسها الحين بعد الحين، كما أنه لا يفتأ يهذب هذه المقررات في آونات متقاربة، على أنه إن صح أن الفن يعبر عن أنصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة، فإن ما في طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن القارئ من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم قد يكشف له أنصافًا وأنصافًا من الحقائق تجلو له الحقيقة كاملة آخر الأمر، وبعد، فهل يستلهم الفن غير العلم في آخر صوره؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته؟ هذا إلى أن الفن كثيرًا ما يسبق العلم إلى الكشف عن الحقائق، وكثيرًا ما يصل إلهام الفنان إلى ما تضطرب أمامه أدوات العلم عصورًا وعصورًا قبل أن تصل إلى إقرار ما كشف الفن عنه، وإن كثيرًا من العلماء الجنائيين وغير الجنائيين ليرون في كثير من روايات شكسبير أقباسًا من إلهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزغ الخيال في الماضي، ثم انتهى العلم إلى الاعتراف بصحتها ودقتها. من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل ويداه ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجي نفسه بأن ما في الأرض من بحار والغيث يمدها بتهتانه لا يكفي لتطهير يده من الدم. كم رأى الناقدون في هذا من عبث الخيال حتى أثبت العلم الجنائي صحة ما ذهب إليه شكسبير من أن الجاني لا يحرص، في فزعه مما اجترحت يداه، على ستر آثار جنايته في حين هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار. كذلك قل عن هملت وجنونه، فقد أثبت العلم ما بلغه إلهام شكسبير من توفيق لم يصل العلم إليه إلا بعد مئات السنين من بعد شكسبير. فإذا قيل مع هذا إن الأدب إنما يعبر

عن أنصاف الحقائق، كان لنا أن نقول: إن الأدب، والفن القصصي بنوع خاص، هو الكفيل بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق، كما أنه طليعة العلم في استلهام الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها.

وللفنِّ القصصي إلى جانب ذلك فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة؛ فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر، بل من الموسيقى نفسها، إلى التقاط صور حياة الجماعة التي يعيش فيها وإثباتها على الورق. ثم هو أقدر من هذه جميعًا على رسم أمل الجماعة في المستقبل، وتصوير المثل الأعلى الذي تصبو إلى تحقيقه.

وكم من قصص خيالية حاول أصحابها فيها أن يصفوا حياة الجماعة على ما يجب أن تكون، وأن يصوروا المدينة الفاضلة، إذا نحن أردنا أن نستعير عبارة الفارابي، وكم من قصص أريد بها التهذيب والتعليم، وكم من قصص غيرها قصد بها إلى مختلف الأغراض مما يجعلك في حل من القول بأن مكان القصة من الفن الأدبي يتناول نواحي هذا الفن الأدبي جميعًا، كما يلهم الفنون الأخرى أجمل إلهام وأسماه.

مع أن هذا شأن القصة وهذه مكانتها من آداب الأمم المختلفة فإنها ما تزال في أدبنا العربي في حال من الركود، حتى لنكاد نقول إنها لم تجد. فالقصص التي كتبت في نصف القرن الأخير تعد على الأصابع، وإذا كان أدب الأقصوصة قد انتعش في السنين الأخيرة فإنه ما يزال في بداءته من ناحية، والأقصوصة شيء والقصة شيء آخر في فنون الأدب من ناحية أخرى. فما هي العلة في ضعف أدب القصص، وفي فتوره وركوده؟ هذا ما يتناوله بحثنا في الفصل التالي.

سبب فتور القصص

ينشر الأستاذ «جب»، الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية في لندن دراسات مستفيضة باللغة الإنجليزية عن الأدب العربي الحديث، وقد تناولت هذه الدراسات النثر العربي والشعر العربي وسائر الأدب العربي الحديث في هذه الفترة الأخيرة من حياة مصر الأدبية، كما تناولت الأدب في القرن التاسع عشر وتأثره بادئ الأمر بالآداب العربية القديمة وبشعر الجاهلية وعصور الإسلام الأولى بنوع خاص، ثم تأثره بعد ذلك بالآداب الغربية، وبالآداب الفرنسية والإنجليزية بنوع خاصٍّ، وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب، وأشار إلى أنها لم تتأصل بعد في الآداب العربية، وتكلم في هذا الباب عن قصص شوقي وعن «عيسى بن هشام» للمويلحي وعن روايات جورجي زيدان التاريخية، ثم وقف وقفة خاصة عند «زينب» وقال: إنها الأولى من نوع القصص الحديث، وتحدث بعد ذلك عن «إبراهيم الكاتب» للأستاذ المازني، وأشار إلى قصة «الأيام» التي قص فيها صديقنا الدكتور طه حسين فصولًا من حياته تشعر وأنت تقرؤها بأنك تقرأ عواطف فياضة تنتقل إلى نفسك وتنطبع فيها فتعجب بها إلى جانب إعجابك بالألفاظ وموسيقاها وجمال نظامها أشد إعجاب.

ووقفة مستر «جب» عند فنون القصص والرواية في الأدب العربي ليست بالشيء العجيب، وليست هي الوقفة الأولى من جانب من تصدوا لدراسة فنون هذا الأدب في عصرنا الحاضر من المستشرقين ومن الكتاب المصريين أنفسهم وقفوا هذه الوقفة متسائلين عن السبب في عدم ذيوع هذا الفن من فنون الأدب سواء في الشعر أو في النثر، في حين هو قد يقف من الأدب الغربي في الذروة من كل فنونه، والحق أن هذا الإقلال الغريب في فن القصة والرواية يدعو إلى العجب وإلى الدهشة، وهو كذلك بنوع خاص في مصر. فللمصريين في تاريخ الأدب القصصي مكان كريم؛ إذ يرجع إليهم — على أرجح

الروايات — فضل «وضع ألف ليلة وليلة» وكثير من القصص المتداولة اليوم، والتي كتبت في عصور سابقة ولم تصل دراسة الأدب إلى تحقيقها تحقيقًا مضبوطًا. ثم إنَّ حب الرواية والقصص في الطبيعة المصرية، حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية الكثير منها لأبنائهم وذويهم وأصدقائهم في الكثير من أوقات فراغهم، وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع حولنا حتى تتهم الحياة المصرية بأنها قاصرة عن إلهام هذا الفن إلهامًا قويًّا، ومسارح القصة في الطبيعة المصرية كثيرة. كما أن لهذه الطبيعة من الجمال وتعدد صوره وألوانه ما يعاون الكاتب على أن يخلق لقصصه مختلف البيئات ذات الأثر في إلهام عاطفة من العواطف أو مأساة من المآسي أو مهزلة من المهازل. فكيف، وهذا هو الواقع، يكاد الأدب العربي الحديث يخلو من القصة؟ وإلى أي سبب يعزى هذا النقص المعيب في فنّ مكانته من فنون الأدب المكانة الأولى؟

يحلو لبعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين، أن يعزو السبب في هذا النقص إلى ضعف في الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع القصة، وإلى مثل هذا السبب يعزو أولئك الكتاب اقتصار أكثر كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة، وما أحسبني في حاجة إلى الإطالة في إدحاض هذا الزعم بأكثر من الإشارة إلى ما يقوله كتاب الغرب وساسته طعنًا في الشرق بأنه خيالي، وبأنه لذلك لا يقدر الطريق العلمية في البحث ولا في سياسة الدولة، وكيف يمكن أن يكون الشرق خياليًّا وضعيف الخيال في وقت معًا؟ ولِمَ يكون خياليًّا في العلم والسياسة حيث يكون الخيال مفسدًا، ثم يضعف خياله في الفن القصصي للأدب حين يكون الخيال المتصل بواقع ما في الحياة هو المرشد الأول لإتقان هذا الفن؟ أليس هذا كافيًا للدلالة على أن الاتهام بالإسراف في الخيال وبضعف الخيال يقصد به في الحالين إلى الطعن والتجريح لغايات لا ترضاها الحقيقة، ولا تعاون على حسن تفاهم الأمم بعضها مع بعض، وأن الغرض الحقيقي منه تثبيت الإيمان في نفس أمم الغرب بأنها متفوقة على الشرق في كل شيء تفوقًا يجعل من الحق لها أن تحكم أمم الشرق هذه، وتستغلها من غير أن يكون في ذلك اعتداء على ما للأمم من حق في الحرية والسعادة؟ وليس أدل على أن هذه هي الغاية الحقيقية من تلك الدعاية التي يُلبسها أصحابها ثوب البحث العلمي والتاريخي، والتي يؤيدون بها ما يدعيه بعض ساسة الغرب من أنَّ الأقدار ألقت عليهم عبء تحضير أمم الشروق وتمدينها، على حين أن مطامعهم هي التي ألقت عليهم عبء العسف بأمم الشرق والاستبداد بشؤونها.

ويعزو كتاب آخرون السبب في نقص فن القصص والرواية في الآداب العربية العصرية إلى اختلاف ما بين لغة الأدب ولغة الكلام اختلافًا يجعل قراء الأدب الراقي

قليلين إلى حدٍّ يفتُّ في عضد الكتاب، ويصدهم عن المضي في سبيلهم، وفي هذا السبب ظاهر من الوجاهة. لكنه لا يعدو أن يكون ظاهرًا في اعتقادنا. فإن فن القصص في الأدب الغربي يرجع إلى أول أيام «البعث» الأوربي في القرن الخامس عشر، وفي ذلك العصر كان بين لغة الأدب ولغة الكتابة اختلاف لا يقلُّ عن الاختلاف الموجود اليوم في اللغة العربية بين لغتي الكلام والكتابة. مع ذلك ازدهرت حياة الأدب في أوربا، وكان للقصص والرواية مكان رفيع منذ القرن السادس عشر، بل منذ القرن الخامس عشر في إنجلترا، فهذا السبب وحده لا ينهض إذن حجة للنقص الذي يلاحظه الكل في شأن القصة والرواية العربية، اليوم ولا بد أن يقترن به سبب آخر لم يكن موجودًا في الغرب على حين هو موجود في الشرق، وهو الذي يدعو إلى تثبيط همة الكتَّاب عن القصة والرواية. بل لعل هناك أكثر من سبب واحد كما سنشير إليه من بعد.

ويجب كذلك أن نهمل ما يتهم به بعضهم كتَّاب مصر والشرق العربي من الميل إلى الكسل ومن قلة الإنتاج. فكثيرون من الكتاب المصريين ليسوا أقل خصبًا في الإنتاج من أكثر كتاب الغرب إنتاجًا. لكن إنتاجهم لا يتجه كله إلى ناحية القصة والرواية، بل يتوزع مجهودهم في نواحٍ شتى، إذا هي جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهود، وما يؤدونه إلى لغة بلادهم وآدابها من خدمة، وما أظنني مغاليًا إذا أنا قلت: إن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقًا فيه من كثير من كتاب الغرب. كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب في بعض أمم أوربا المختلفة، ويكفي أن يرجع الإنسان إلى آثارهم ما نشر منها وما لم ينشر، ما جمع منها وما لم يجمع؛ ليقتنع اقتناعًا صادقًا بأنهم يقومون — في بيئة لا تقدر عملهم التقدير المشجع — بمجهود الجبابرة، ثم لا يبتغون من ورائه جزاءً ولا شكورًا. ما هو السبب الصحيح إذن في فتور الأدب العصري عن القصة والرواية؟ أو بعبارة أدق ما هي الأسباب المجتمعة التي أدت إلى هذا الفتور، وبخاصة في مصر حيث الميل إلى القصة أصيل في النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر؟

أشرت إلى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر في القصة والرواية ليس إلا سببًا ظاهرًا لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر، وبخاصة أنه لم يحل في أول «البعث» الأوربي دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب، والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف إليه أكثر من سبب آخر؛ ليكون بعض ما يمكن الاحتجاج به على هذه الحالة التي استوقفت نظر المستر «جب» واستوقفت من قبله أنظار كثيرين،

وأول سبب يجب أن يضاف إليه: ذيوع الأمية وعدم انتشار التعليم في الشرق انتشارًا كافيًا. فهذه الأمية الذائعة تحول بين الجمهور وقراءة القصص كما تحول بينه وبين الاستماع لها مع تقدير ما تحتويه من فنون الأدب؛ لجهل الجمهور بهذه الفنون من جهة، ولأنه لو استمع لها لما زاد ذلك انتشارها بما يعوض صاحبها العوض المادي الذي يشجعه على المضي في كتابة ما يوحيه إليه خياله قصة بعد قصة، وقد يكون ذيوع الأمية من الأسباب التي تسرع إلى الزوال مع سير حركة التعليم الجديدة بهذا النشاط الذي تسير به في بلاد الشرق جميعًا، ومع نجاح المجددين في جعل أساليب الكتابة بعيدة عن ذلك التعقيد الذي كان يعتبره أسلافنا المباشرون، ومن لا يزال منهم يعيش بين أظهرنا، مقياس البلاغة والدليل على الاقتدار في الفن. لكنه لا يزال باقيًا، ولا يزال من آثاره هذا الفتور الذي يقعد بالكاتب عن متابعة السير في فنّ القصص، ويعدل به إلى ناحية أخرى من الكتابة أجدى عليه وإن لم تكن أجدى على الأدب نفسه.

يضاف إلى ذيوع الأمية فتور الأغنياء عن معاضدة الأدب كله، وعن معاضدة الأدب القصصي بنوع خاص، وهذه المعاضدة هي التي شجعت كتَّاب أوربا في القرون التي تلت «البعث» والتي كانت كعصرنا هذا غير بارَّة بالكتابة وبالكتَّاب. فإلى لويس الرابع عشر يرجع أكبر الفضل في بقاء الشعر الخالد الذي خلفه راسين وكورني وموليير ولافونتين، وإلى معاضدة الأغنياء يرجع الفضل فيما خلفه روسو وفولتير وديدرو وهلباخ … وغيرهم من كتاب القرن الثامن عشر، وأحسب عذر أغنيائنا عن فتورهم هذا أنهم لا يجدون من السيدات دافعًا إلى هذه المعاضدة. فقد كان لسيدات قصر لويس الرابع عشر الأثر الأكبر في معاضدة كبار شعراء العصر وكتّابه، ولسيدات «صالونات» الأدب الكبرى في القرن الثامن عشر الأثر الأكبر في حماية كبار كتّاب ذلك العصر وتشجيعهم، وما ما كان يتهم به بعض أولئك السيدات من الخفة والطيش، فإنهن قد أدين لبلادهن أجل خدمة بما ظهرن به معاضدات لفن من أرقى الفنون وأجملها، ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ما وجد كتاب القرن السابع عشر من معاضدة لويس الرابع عشر، ثم لو أنهم وجدوا من حماية فضليات السيدات وعطفهن وتشجيعهن ما وجد أولئك، وما وجد كتّاب القرن الثامن عشر من بعدهم، وما يزال الكتّاب يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر الذي نعيش فيه، إذن لرايت الأدب العربي، ولرأيت الأدب القصصي بنوع خاص، يجد من صور الإلهام ما لم يعرف حتى يومنا هذا، ولوجدت فيه نشاطًا وجدَّة وإبداعًا وفيض خيال ما أظن الغرب يستطيع أن يسابق الشرق فيه، بل أجزم بأنه لن يستطيع أن يسبقه إن هو حاول مسابقته.

ولا أريد لأيِّ اعتبار من الاعتبارات أن أضعف من خطر هذا السبب من أسباب فتور الأدب كله، وفتور الأدب القصصي والروائي منه. فلم يكن أثر السيدت هو الذي حفز الأدب في الغرب وحده إلى نهضة كبرى كالتي نهضها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ بل كان كذلك هو الذي حفز الأدب دائمًا في كل الأمم وفي كل العصور، ولن تعوزنا الأمثال إذا نحن رجعنا إلى العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام وفي أيام عظمته وازدهاره، وليس من المطلعين على الأدب العربي واحد لا يعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبي — عليه السلام — من أثر في الأدب وإنهاضه وتشجيعه. هذا، ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل، وإن كانت منفردة بين ضريباتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها أقرب اتصال بالنبي العربي، وليس في ذلك من عجب. فالقصة والرواية إنما تصور الحياة تصويرًا صادقًا تمليه العاطفة ويحلله العلم، ولا سبيل إلى هذا التصوير الصادق ما لم تشترك المرأة فيه بوحيها وبإلهامها، وما لم يتصل هذا الوحي والإلهام؛ ليجددا نفس الكاتب أو الشاعر، وليدفعا إليه حياة فتية جديدة كلما آذنت قوته بالفتور أو الضعف، وهذا الوحي والإلهام من جانب نصف الإنسانية الثاني هو في كثير من الأحيان خير عزاء عما يفقده الكاتب أو الفنان من ربح مادي؛ بل فيه دافع إلى التضحية بهذا الربح المادي في سبيل الفنّ ما دامت أدوات هذا الفن كاملة.

وهذا في رأينا هو السبب في أن كثيرين من الذين يكتبون قصصهم في الشرق يقفون عند القصة الأولى، يرون فيها تاريخ عاطفتهم الأولى حين كان الشباب ما يزال كافيًا يدفعهم إلى تخليد هذه الصفحة من صفحات حياتهم، فإذا وقعت لهم بعد ذلك تواريخ عاطفية أخرى، ولم يكونوا قد وجدوا التشجيع من ربح مادي أو رعاية عظيم أو تشجيع سيدة مهذبة تعرف كيف ترتفع بهم إلى ما فوق الاعتبارات الثانوية فتقوي ضعفهم، وتلقي عنهم غبار فتورهم — نزعوا إلى الناحية التي يرونها أوفر كسبًا، وأكفل بالشهرة وبالمجد، وإن تكن شهرة سريعة الانطفاء ومجدًا مقضيًّا عليه بالزوال.

وما دمت قد أشرت إلى السيدات وأثرهن في الأدب، فيجب أن أذكر في جوارهن أن ضعف أدب القصص والرواية كضعف استمتاعنا بالحياة استمتاعًا كاملًا، يرجع إلى عدم تربية عواطفنا تربية صحيحة، مع أن هذه التربية الصحيحة هي التي تكفل للعواطف حسن الاستمتاع بالحياة في أجمل صورها وأكثرها سموًّا وسناء ونورًا، وتكفل لذلك ازدهار أدب القصص والرواية ازدهارًا لا سبيل إليه في حياة ناقصة متبلدة العواطف

إلى حدٍّ يجعل أهواء المرء وشهواته تحل من نفسه محل هذه المشاعر السامية، فتعبث به وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها؛ لأنها لا تكشف له من جوانبها إلا عن الفساد والنقص، ولا تدفع إلى نفسه حب الحياة حبًّا صحيحًا، وكلُّ فن لا يصدر عند صاحبه عن حبه لجانب من جوانب الحياة لا يمكن أن يزدهر، وفن القصص أكثر من سائر الفنون حاجة لحب صاحبه الحياة؛ لأن القصص صورة الحياة.

وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أتمثل أمام عينيَّ صورًا نراها كلنا كل يوم، وقد نمرُّ بها مستخفين غير آبهين لها أو واقفين عندها في حين هي ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا إدراكنا إياه لتغيير نظرتنا وتصرفنا، وقبل أن أقف عند العاطفة التي تتصل بالغريزة الجنسية في نظر كثيرين لأعالجها بشيء من التحليل يكشف عن النقص الذي أشير إليه، أود أن أقف قليلًا عند عواطف أخرى أمتحنها بشيء من المقارنة؛ لتتبين للقارئ الغاية التي أرمي إليها، ولتتضح أمامه الفكرة التي قدمت، ولنبدأ بعاطفة الإحسان، وأقصد البر بمعناه السامي. فأنت إذا دعوت إلى اكتتاب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خير أيًّا كان، وكنت موضع ثقة الناس جميعًا، ألفيت مع ذلك ضعفًا في الإقدام لا يتغلب عليه في كثير من الأحايين إلا الإلحاف وإلا مطامع شخصية يرجوها المحسن من وراء إحسانه. فكثيرون لا يقدمون إلا رجاء رتبة ينالونها أو أملًا في مصلحة عاجلة أو آجلة تُقضى لهم. هذا على أنك ترى في إنجلترا مثلًا كثيرين يتبرعون بألوف ومئات الألوف لأعمال الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم، ومن غير أن يطلب إليهم أحدٌ إحسانًا. بل يأبى كثيرون من هؤلاء أن يعرف اسمه، ويكتفي أن يضع المبلغ تحت تصرف هيئة موثوق بها تتولى إنفاقه في وجوه الخير التي يقررها هذا المحسن المحبوب. ثم إن العاطفة لذاتها نامية عند الجمهور الإنجليزي نموًّا تغبط إنجلترا عليه. فمستشفيات تلك البلاد تدفع نفقاتها من الإحسان العام يشترك فيه الناس كافة من طبقات الأمة كلها بغير تمييز بين بائع الصحف والتاجر الصغير والثري الكبير، وهؤلاء جميعًا يدفعون إلى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب خاطر، بل مع الشعور بالغبطة لأداء واجب يؤمنون في أعماق نفوسهم بأنه فرض يؤلمهم عدم أدائه.

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموّها في الأمم الأخرى؛ لكان أداؤنا واجب الإحسان صادرًا عن عاطفة تامة النمو كاملة الشعور تنغص علينا الحياة إذا هي لم تؤد هذا الواجب أداء كاملًا.

وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا مثل عاطفة الإحسان سواء، وكثيرون منا من يمرون بحيوان ضعيف سقط إلى الأرض قد هده الإعياء، أو بأخٍ

لنا من بني الإنسان هوى به الشقاء فألقى به مضعضعًا على قارعة الطريق، فلا تتحرك في نفوسهم عاطفة، اللهم إلا أن تكون حمدًا لله على ما أنجاهم من مصاب كالذي تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين، والذين يصنعون هذا رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذبت فيهم عاطفة الرفق، وما تكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق في نفوسهم فتدفعهم إلى النجدة. فإذا فرغ أحدهم من نجدة الحيوان أو الإنسان المستحق لها، لم ينتظر من أحد جزاء ولا شكورًا، وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره إلى أنه أدى واجبه الذي تمليه عليه عواطفه.

وأستطيع أن أعرض بالمقارنة لكثير من العواطف غير ما قدمت. على أني أود أن أشير إلى بعض العواطف الأولية التي يردها الكثيرون — ومن بينهم بعض العلماء — مرد الغرائز. تلك عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الأبوة والبنوة، وما أحسبني أغلو إذا أنا قررت أن الحب عندنا ما يزال قريبًا جدًّا من الغريزة الجنسية، محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهمه هذه الغريزة لتلخيد النوع وتحسينه. فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها، فأما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك التام في تمثل الحياة قوة وجمالًا وسناء، فأما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقي النفساني إلى عالم الخير والجمال والحق؛ لنخلع من كل ما في هذا العالم على نفسٍ أخرى تحاول من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما في الحياة من رضًا ونعيم، فذلك ما قلّ أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده إنسان. هذا، ولو ربيت العاطفة وهذبت وسمت إلى المكان الذي تستطيع إن هي حاولت أن تسمو إليه، لرأينا في الحياة غير ما نرى اليوم، ولشعرنا بأننا نستطيع أن نقصّ من مشاهداتنا فنونًا من الأدب هي القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا بما يجعل عواطفنا كلها هزيلة أنانية لا تستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز إلا بمقدار ضئيل.

وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السمو إلى المكان الإنساني الجدير حقًّا بها أن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدة عما يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل؛ ليسموَ بالجيل الذي يليه في عواطفه كما يسمو به في علمه وعقله، بحيث يدفعه؛ ليقطع شوطًا جديدًا في طريق الكمال، وإن كثيرين ليشعرون بأن الصلات المادية كثيرًا ما تكون ذات أثر في هذه العواطف القوية التي يجب ألا تتأثر بشيء من هذا، حتى لقد يعقّ أبناء آباءهم، وقد يحقدُ آباء على أبنائهم لغير شيء إلا لصلات مالية كان من الطبيعي ألا تخضع لها عواطف مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار.

ما هو السبب في ضعف تربية العاطفة، وفي نقصها هذا النقص المعيب؟

تعوَّد كثيرون أن يقولوا: إن السبب في ذلك يرجع إلى تربية البيت لا إلى شيء آخر، وهؤلاء يريدون أن يقيموا حدًّا فاصلًا بين التربية والتعليم، بحيث لا يلقون على المدارس والجامعات أيَّة تبعة عن هذا النقص، وعندي أن هذا غلو فاحش، وبطلانه يزداد وضوحًا كلما ارتفع مستوى التعليم وسمت الغاية التي يقصد إليها من العلم. فقد كان العلم عندنا إلى زمن قريب وسيلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير، فكان بذلك صناعة من الصناعات التي يتلقاها الناس؛ ليكسبوا من عرق جبينهم بها ما يقوتهم ويقوت عيالهم، وكان الكثيرون من المتعلمين لا يزيدون لذلك على صناع أداتهم القانون: لرجل القانون، أو المشرط للطبيب، أو ما إلى ذلك من الأدوات لغير هاتين الطائفتين من المتعلمين، وكان ذلك واضح الأثر في حياة تلك الطوائف التي يسمونها تجوزًا طوائف المتعلمين. فأنت لم تكن تكاد تخرج إلا بالقليل منهم عن النطاق الضيق الذي يعمل فيه لكسب قوته، وإذا به قاصر العرفان إلى حد مخجل، وإذا بك تستطيع أن تقول في غير غلو أو مبالغة: إن القانون في يد رجل القانون والطب في يد الطبيب مثله كمثل الفأس في يد الزارع والمنشار في يد النجار، لا فائدة منه لتهذيب النفس أو العقل، وإنما الفائدة لكسب العيش. فأما الذين ينذّون عن هذه القاعدة ويقصدون من العلم والتعليم إلى غاية أخرى فأولئك شواذ موهوبون لهم فضلهم كما لهم ما تقابل به العدالة الطبيعية الفضل من نقص في نواحٍ أخرى، وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن يقصد به إلى الخلق لذاته أو الجمال لذاته، ولم يكن أمام المتعلم أي مثل أعلى غير الأنانية الوضيعة، أنانية كسب العيش، فمحال أن تسمو عواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار، ومحال أن يحس بالحاجة الملحة إلى السمو نحو مراتب الإنسانية المهذبة الدائمة الطموح إلى الكمال.

وقد كان يُظن إمكان التعويض عن هذه الحال في المدارس المدنية، بتعليم أسمى غايةً في المدارس الدينية أو بعبارة صريحة في الأزهر والمعاهد التابعة له. فالدين بطبعه داعٍ إلى الكمال، دافع إلى استدامة البحث للوصول إلى الحق؛ ليؤمن صاحبه به عن معرفة وازعة على عمل الخير، وتهذيب العواطف الدافعة له إلى غاية حدود التهذيب. لكن الواقع يشهد بأن التعليم الديني عندنا ليس فيه شيء من هذا على الإطلاق، وأن غايته هو أيضًا إعداد رجال الدين؛ ليكون العلم الديني صناعة في أيديهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر، وأنت إذا قصدت إلى حلقات الدرس في المعاهد الدينية لم تكد تسمع للمعاني السامية التي نزلت الأديان لتثبيت الإيمان بها في النفوس ذكرًا،

بل رأيت كل هذا العلم الديني مقصورًا على تدريس العبادات والمعاملات بصورة ماديّة جافة، لا تخاطب القلب ولا تتصل بالروح، ولا تفقه معنى الكمال، ولا تتطلع إلى جناب الله، ولا ترجو من الحياة إلا أن يفتح الله عليها من أبواب الرزق وألا يقتر عليها فيه.

الغاية من التعليم في المعاهد الدينية كالغاية إذن من التعليم في المعاهد المدنية لا تتصل بالعاطفة، ولا تعني في قليل ولا كثير بأي شيء له بها عن قرب أو بعد صلة، وهذه الغاية لا تتوخى الحق ولا تريد النور، ولا تحاول أن تصل بين الإنسان والحياة وكل ما في الوجود، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة، غاية ملء البطن وبلوغ ما يمكن بلوغه من الترف. في مثل هذه الحال يصح ألا يكون مخطئًا من يقول: إن تربية العاطفة من عمل المنزل، وإنها ليس لها بالتعليم أي اتصال. لكن هذه الغاية الوضيعة لا يجوز أن ترضاها أمة غاية للعلم فيها، بل يجب أن تكون غاية العلم أسمى وأنبل من هذا بكثير، يجب أن يكون العقل وتهذيب الروح والنفس بهدايتها إلى الحقيقة التي يجب أن تكون مطمح نظر كل متعلم، والعاطفة حقيقة يجب أن يجلوها العلم في مختلف صورها كما يجلو كل حقيقة أخرى، وهذا هو الواقع في بلاد العالم المتمدن كلها، وكل شيء جلاه العلم تهذب وسما، حتى المادة الجامدة التي لا حياة فيها، والتي تحتوي مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبأ بها حتى كشف العلم عنها، وجعل منها مهذبًا لهذه المادة الجامدة. فإذا سمت غاية العلم على هذا النحو كان قمينًا أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية العاطفة في الإنسان، تربية أساسها اشتراك الإنسان باعتباره فردًا مع الجماعة كلها ومع سائر ما في الوجود للكشف عن الحق، ولعمل الخير، ولتجلية الجمال.

ولست أقصد إنكار ما للتربية المنزلية من نصيبٍ كبير في تهذيب عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب في تهذيب ذوقه وروحه. لكني أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو ما يحاول بعضهم أن يفعل، أمر غير ممكن، وتربيتنا في معاهد العلم إنما تكمل من بعد بتربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة، وهذه السلسلة المتصلة تجعل لتعليم الآباء في دور العلم أثرًا في تربية أبنائهم في البيت قد يعادل الأثر الذي يحصل الأبناء عليه من بعد في دور العلم، ونحن إذا أردنا البدء الصالح المثمر وجب علينا أن نلتمسه في دور العلم أولًا بالسمو بغاية العلم إلى التماس المثل الأعلى على نحو ما قدمت. يومئذ تسمو نظرتنا للحياة، وترتفع عواطفنا فوق الغرائز حتى تقرب من الكمال، ثم نورث ذلك أبناءنا بتنشئتهم عليه في البيت، ثم في دور العلم، فيكون لذلك أثره في الحياة فتسمو سموًّا يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعًا وأكثر فيها سعيًا وإنتاجًا، ثم

يكون له في الوقت نفسه أثره في بعث القوة والنشاط إلى فنِّ القصص والرواية من فنون الأدب؛ إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقيًّا وتهذيبًا، فكانت بذلك أقوى إلهامًا لرب الفن بما يطوع له أن يجد في متباين صور العواطف المهذبة ما يدعوه إلى كمال فنِّه.

يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور، ويدفع إلى الانصراف عن الكتابة وعن الأدب؛ ذلك ما لا يزال متحكمًا في أخلاق الشرق من الميل إلى هدم كل رجل ذي قوة وموهبة، وهدمه لأسباب لا صلة لها البتة بقوته وموهبته. فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف معنا في الرأي السياسي أو ينافسنا في صفقة من الصفقات أو يثقل علينا ظله؛ إذن يجب علينا هدمه أمام الجمهور وإن اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة، وما دمنا لا نستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر.

وكثيرون — مع شيء كثير من الأسف — يضعفون أمام هذه المهاجمات غير الشريفة، ويرون فيها جحودًا لمجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم، فيعدلون عن متابعة سيرهم، وينزعون إلى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم، وأكفل بحياة أكثر طمأنينة ودعةً، وإذا كان من بين الكتّاب من لا يحفل بهذا الجحود، ومن يثور في نفسه الضياء الذي ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار؛ ليفيض منه على الحياة ما يزيدها جمالًا ونورًا، وليؤدي للفن الرسالة التي ألقى القدر عليه أداءها، فإن صاحب الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الأنصار والمؤيدين أن يرى في حياته تمامَ النجاح لرسالته، وإن كان هذا النجاح قد كفل لها ولو بعد موته، ولو أن الهدم خفت في النفوس وطأته وحلَّ محله التقدير النزيه لثمرات الأقلام، لقوَّى ذلك من هذا الضعف الذي يلاحظه الكثيرون في القصة والرواية في الأدب العربي.

ولا نستطيع أن نهمل عاملًا آخر له أثر في الجناية على الأدب. ذلك هو العامل السياسي. فقد كان من نتائج الحرب والحركات التي قامت بعدها في الشرق والغرب أن انصرفت الأذهان عن التأمل في الحياة وجمالها إلى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة، أو لتنظيم شؤون اقتصادية زعزعت الحرب أركانها، أو ما إلى ذلك من الشئون العاجلة، ومن طبيعة هذه الشئون أن تلفت الناس إليها، وتبهرهم عن كثير سواها، وهي لهم أكثر لفتًا وبهرًا إذا هم رأوا من ورائها لأشخاصهم مكانة أرفع، أو مجدًا أشد بريقًا، أو رخاء ورغدًا لم يكونوا يطمعون من قبل فيه، وهذا العامل الذي

شمل العالم كله كان أبعد أثرًا في الشرق؛ لأن الحرب بعثت إلى الشرق هزة عنيفة أيقظته من سباته، وفتحت عيونه على نواحي الحياة المختلفة المتباينة، فجعلته من أجل ذلك في شيء من الحيرة أي طريق يسلك، ثم كان الطريق الأول والأقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه، وهذا التخلص يقتضي نضالًا لا يقل قوة ولا خطرًا عن نضال الحرب بين الأمم المسلحة، فكما تستنفد الحرب جهود الأمم كلها، كذلك استنفدت هذه الثورات السلمية كل جهود أمم الشرق، وتدفع بالكتاب والأدباء إلى أن يضعوا قواهم ومواهبهم في خدمة بلادهم، وقد جزتهم بلادهم عن ذلك بما زادهم تشجيعًا عليه وحرصًا على المضي فيه، وهم لا يزالون كذلك حتى اليوم، وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم إلى مدى يتعذر اليوم تحديده.

هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذي أوتي موهبة في فن القصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له. بل لقد صار كل ما يستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الأقصوصة تلو الأقصوصة في أوقات فراغه. فأما أن ينقطع لدراسة موضوعٍ يكون قصةً أو رواية كاملة فقد يقتضيه ذلك السنين الطوال، وقد ينتهي به الأمر إلى ألا يتم قصته إذا كان بدأ فيها، والتخصص في القصص كالتخصص في كل عمل من أعمال الحياة، هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة للخصب في الإنتاج وللوصول إلى الثمرة الصالحة الجيدة، وهو كذلك بنوع خاصٍّ في عصرنا الحاضر الذي انفسح فيه ميدان العلم الإنساني إلى حدٍّ أصبح معه المحيط بهذا العلم كله محيطًا بقشور قليل ما يتصل بها من اللباب، والذي أصبح كذلك بحيث يصبح الإنسان بعد دراساته العامة، وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات في المدارس والجامعات، في حاجة إلى التوجه في الناحية التي يملي عليه ميله التوجيه إليها فيتخصص فيها، بل في فرع من فروعها، وقد يعجب قومٌ إذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصصي والروائي قد أصبح لذاته فسيحًا إلى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب في أحد فروعه؛ لتعذر الإحاطة بفروعه كلها إحاطة يتيسر معها الإتقان والاقتراب من الكمال. لكن الأمر في الواقع هو هذا، وأنت إذا عدت إلى أكابر الكتاب القصصيين، وإلى أكابر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعًا خاصًّا يمتاز به ويغلب عليه حتى يعرف به. فأنت ترى في بورچيه غير ما تراه في أناتول فرانس، وغير ما تراه في زولا، وغير ما تراه في فلوبير، وغير ما تراه في موپاسان، وأولئك كلهم من القصصيين الفرنسيين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي هذا الثلث الأول من القرن العشرين، وأنت ترى لكل واحد منهم ميدانًا خاصًّا

امتاز به وتخصص فيه، وقصر مباحثاته على التعمق فيه وعلى معرفة ما سبق به إليه في العصور الأخرى وفي الأمم الأخرى، وهذا التخصص هو وحده الذي يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال في ميدان الأدب والفن، كما أنه هو الذي يجعلها ترجو بلوغ الكمال في ميادين العلم المختلفة.

ولا يُعترض علينا بأن كثرة القصصيين وغزارة المادة التي يأخذون عنها في أوربا هي التي تؤدي إلى هذا التخصص، على حين أنا ما نزال في حاجة إلى الإنشاء حتى ليدعونا ذلك إلى تقليد الغربيين أكثر مما يدعونا إلى الظهور بشخصية ممتازة لنا في عالم التأليف والأدب. فهذا الاعتراض على وجاهته الظاهرة ضعيف متداعٍ بطبعه، وهو إن حدث عن شيء فإنما يحدث عن ميلٍ إلى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب في القصص والرواية تكوينًا سليمًا، وقديمًا قيل مثل هذا في الطب والمحاماة، فظلت الصناعتان ضعيفتين في مصر حتى تخصص الأطباء كل في فرع من فروع الطب، أو في بعض فرع من فروعه، وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازه في ناحية المعاملات المدنية، والآخر في المعاملات التجارية وهلم جرا، وإذا كان مظهر التخصص في الطب أوضح، ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهورًا؛ فذلك لأن الحكم والقاضي في شؤون الطب هي الطبيعة التي لا تخطئ أبدًا، وحكم الجمهور في الأدب كحكم الطبيعة في الطب وفي الميكانيكا، وفي كل ما هو غير خاضع لأخطاء الإنسان وشهواته، وكما نجح الطب في مصر نجاحًا يقر به الكل في مصر وفي غير مصر منذ تخصص الأطباء تخصصًا تامًّا، فإني لا أرتاب لحظة في نجاح الأدب القصصي والروائي إذا عاونت العوامل الكتَّاب والموهوبين منهم بنوعٍ خاصٍّ على التخصص فيه، أو إذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التي تتكلم العربية بعباقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديرًا صالحًا عظمة الرسالة التي يحملونها؛ ليبلغوها إلى مواطنيهم وإلى العالم كله، فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التي أشرت من قبل إليها، ولم يتأثروا بشيء منها حتى يصدهم عن السبيل التي تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمال.

على أن انتظار جود الطبيعة بالنابغة الفذ الذي يستطيع أن يحطم كل القيود، ويتغلب على كل الصعاب، ويتخطى كل العقبات — ليس من شيمة الأمم التي تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربي؛ لتتبوأ المكان اللائق بها في زمرة الأمم؛ بل الواجب على الذين يشعرون ممن يقرءون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية

معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف والفتور التي ذكرت، أن يقدروا الواجب العظيم الملقى على عواتقهم؛ ليمهدوا لرجل الفن في القصص والرواية طريقه وييسروا سبيل نجاحه، وكل واحد منهم، رجلًا كان أو امرأة، يتحرك ضميره فيدفعه لأداء هذا الواجب، يقدم لبلاده أجل خدمة، ويبقى في التاريخ مذكورًا ما ذكر الكتاب والقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا المعاضدة أو التشجيع أو الوحي منه، والذين يقرءون تاريخ الأدب في بلاد العرب حين كان الأدب مزدهرًا، والذين يقرءون تاريخ أدب الغرب في العصر الحاضر، يرون كيف اقترنت أسماء أنصار الأدب والعاملين لإحياء نهضته بالأدباء والكتّاب أنفسهم وبالنوابغ والأفذاذ منهم بنوع خاص، وهذا جزاء وفاق وحق يجب أن يؤدي إلى هؤلاء الذين يعززون الأدب بنصرهم وبتأييدهم، وإني لعلى يقين، إذا وقع هذا الذي أدعو إليه، من أن ترى مصر وبلاد الشرق نهضة للأدب في زمان وجيز يكون لها في مصر وفي بلاد الشرق، بل في العالم كله، أثر يبهر الأبصار، ويخطو بالشرق كله خطوات واسعة في طريق البعث الذي بدأ منذ زمن ليس بالقصير. إذ ذاك تثبت خطاه، وتزداد سرعة عما كانت منذ حفزته الحرب الكبرى إلى أسمى معاني المجد والعظمة والحرية.

التأليف المسرحي

ليست لغة المسرح هي ما أقصد أن أتكلم عنه، وإن كان الناس قد أَلِفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدارجة أو لغة الكلام وبين اللغة الفصحى أو لغة الكتابة، وأيهما أصلح لتكون لغةً للمسرح، وليست ترجع رغبتي عن هذا البحث إلى استهانة مني بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نفد كله، وإنما ترجع من ناحية إلى أني أميل إلى الحرية المطلقة، فلا أرى أيَّ ضير في أن يكتب مؤلف مسرحي باللغة الفصحى، وآخر باللغة الدارجة، وبأية لغة دارجة من مختلف اللهجات التي نسمعها في مصر وفي غير مصر من البلاد التي تتكلم العربية، والتي تصل لهجاتها أحيانًا إلى أن تصير رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يتكلم العربية، وترجع من ناحية أخرى إلى اعتقادي أن هذا الخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه إلى الزوال. فإن انتشار التعليم في البلاد المختلفة انتشارًا سريعًا يقضي على الأمية، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة، وأن يجعل اللغة التي تكتب بها الصحف ويكتب بها الأدباء هي لغة الحديث ولغة الكتابة في وقت معًا، مع فوارق بسيطة لا يقام لها وزن، ويومئذ تصبح لغة المسرح كما تصبح غيرها من اللغات هي اللغة الفصحى في متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التي تُكتب هذه اللغة فيه. فإذا أراد مؤلف بعد ذلك أن يختار لقطعة مسرحية لهجة دارجة كان ذلك تأنقًا في الفن لا بأس به، ونحن في هذا كغيرنا من الأمم. فأنت تسمع في إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لهجات في الشمال تختلف عن لهجات الجنوب، لكن لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع من غير أن يحول ذلك دون قيام مؤلف متأنق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية من النواحي.

على أن هذا الحل لمسألة التأليف المسرحي من ناحية اللغة لن يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث، كما كانت لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات

ماضية. هذه المشكلة هي اللغة القديمة والشعر القديم، وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية الحاوية لطائفة من القطع التمثيلية مكتوبة بهما، وقد أثير هذا البحث من ناحية عملية حين ترجم الأستاذ خليل مطران بعض روايات شكسبير في لغة عربية فيها من الفخامة والجزالة ما يتفق مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة في عصرنا، وهو قد أثير حين وضع شوقي بك روايته الشعرية: «مصرع كليوبترا» ورواياته التي جاءت بعدها ومثلت على المسرح، فكانت صورة جديدة من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل. على أن هذه الإثارة العملية للبحث لن تكفي فيما أظن، لسد حاجات اللغة على وجهٍ يرضي أقطابها، وأعتقد أن البحث سيثار من ناحية نظرية أيضًا ليعرف: أمن الواجب أن يوجد في القطع المسرحية العربية نوع من «الكلاسيك» الذي يصل الحاضر بالماضي، أم نحن نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل، وسيصل هذا البحث وسيتفرع إلى بحوث أخرى، منها: أيجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى بلاد العرب فتتصل البلاد التي تتكلم اللغة العربية جميعًا بتاريخها وبثقافتها وبآثارها وتعاليمها، على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين، أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى صلة كل أمة بماضيها، فترتبط مصر بالفراعنة، وطرابلس (برقة) بقرطاجة، وبلاد الشام بفينقية، وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها، وتجعل منها وحيًا للأدب يقصد منه إلى إحياء الأدب العربي في ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة؟

أحسب أن هذا البحث سيثار عمَّا قريب، وبخاصة حين تخرج المدرسة الجديدة من طلاب الأدب الذين يدرسونه اليوم على طريقة علمية صالحة، على أن هذا البحث ليس هو أيضًا غرضي من هذا الفصل عن التأليف المسرحي، وإنما أقصد منه إلى ما يجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحي، من ناحية أنه فن من فنون الاجتماع، من موضوعات، وقد دفعني إلى تناول هذه الناحية من المسألة ما قرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب؛ فهذه القطع كلها، أو الكثرة الظاهرة منها، تتناول صور التطور الذي اتجهت الإنسانية بعد الحرب وبسببها نحوه، وكلها، أو الكثرة الظاهرة منها، تحاول توجيه تيار هذا التطور بتهذيب شذوذه ورده قدر المستطاع ليندفع في الناحية الطبيعية، أي في الناحية الأكثر جدوى على الإنسانية في رُقِيِّهَا وفي سعادتها في ظل الحضارة الغربية الحاضرة.

من بين ما تتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ما خلفته الحرب من أثر في شأنٍ الرجل والمرأة، واتجاه كل منهما في الحياة ونظرته إليها وعلاقة كل منهما على أثر

ذلك؛ فقد كان من أثر الحرب أن أصبح الرجل غير مَيَّالٍ للعمل المتصل والكدح المستمر، بل صار ميالًا للمخاطرة والمجازفة يلتمس من طريقهما الثروة وبُعد الصوت ورفيع المكانة، كما كان إبان الحرب يلتمس من طريقها الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة. أما المرأة فقد ألقت الحرب عليها أعباء ثقالًا خلال أربع سنوات متتالية، فكانت في الدار الأب والمربي والمجدَّ لرزق البنين والبنات والعامل لرفاهية الأسرة كلها، وكانت خارج الدار العامل الذي لا يملُّ في الإسعاف والتمريض وفي المعمل والمصنع؛ لذلك أفادت من الحرب حريةً بمقدار ما حملت من عبء التبعة، وازدادت شعورًا بقوتها على الحياة بمقدار ما استطاعت أن تكافح لها ولذويها ولوطنها في الحياة، وهي اليوم تحاول أن تستبقي هذه القوة وتلك الحرية بإزاء الرجل، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما. أما هو فقد أصبح يعتبر الهجوم سبيل النصر، وانتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء. على أن هذه الصفات الجديدة التي أكسبتها الحرب والرجل والمرأة لم تنزع بطبيعة الحال ما فطرا عليه من سلائق وعواطف تضطرب بين جوانحهما، وتجيش بها دخائل وجودهما. لهذا اضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطرابًا أشار الكتّاب والاجتماعيون إليه، ونظروا مبهوتين يلتمسون الوسيلة إلى القضاء عليه، ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردها إلى أصولها وإظهار الجماهير عليها، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ، وقد لفت نظري في هذا التحليل استفزاز عاطفة النبل والكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة في سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر الحرب داؤه. فهاته فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها في الحرية، يحبها رجل في مثل تهذيبها وتثقيفها، ولا تشعر هي نحوه بمثل العاطفة التي يشعر هو بها نحوها؛ ذلك بأنها وضيعة المنبت، وهي تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها، ويتصل بها شاب من المستمتعين بألقاب الشرف، أو من «الذوات» إن شئت تعبيرًا مصريًّا، فترى هي في علمها وشهاداتها ما يوازي شرفه، فتتعلق به وتود لو تكون دوقة، جزاء لها على ما أنفقت في تعلمها. لكن الدوق لا يعنيه العلم، ولا يهمه التهذيب، ولا يطمع في أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة، ويذكر لها صديقها المتعلم الذي يحبها، أن الدوق لا يعنيه علمها، وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت إحدى نجوم السينما أو إحدى ملكات الجمال، وبرغم تقززها من أن تظهر في هذا المظهر فإنها تنتهي بأن تعرض نفسها في معرض الجمال وتصبح مس

فرنسا، فمس أوربا، فمس العالم. هناك يجن الدوق بها ويخطبها، ويحدد موعد العقد عليها. لكنه قد أضاع ثروته، فلا بد من أن يستفيد من ملكة الجمال في العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوربا، ويصبح وإياها نجمي مسرح أو نجمي سينما. هناك يثور شرفها، وتثور كرامتها، وتثور بها التعاليم التي تلقتها، فتعلن في الصحف أنها انتحرت، وتذهب إلى صاحبها الأول تعرض عليه ما حل بها من كارثة، وتنتهي بأن تصبح زوجًا له تعيش معه في ركن ضيق من الأرض تتمتع بنعمة الأمومة وسعادة الزوجية بعيدة عن المغامرات المخجلة المزرية بكل علم وكل كرامة.

وتلك فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقها في الحرية، تزوجت رجلًا مقامرًا يريد الثروة والغنى العاجل، فيضارب في البورصة فتصيبه الخسارة تهوي به إلى حضيض الجريمة، ثم يعلم أن زوجه هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة ملايين مثلها، وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة التي لا ترمي إلى مثل أعلى، ولا تطمع في غير المال تحتبله بكل الوسائل ومن مختلف الطرق، وزاد سأمًا أن أصبحت أمًّا، وأن صارت تخاف أن يفسد هذا الغارق في حضيض المادة كل المعاني الإنسانية في نفس ابنته. ثم كان ابن عمها الذي ورث مثلما ورثت قد وهب نفسه للفقراء والمحتاجين: يقوم على تربية أبنائهم، وحسن توجيههم في الحياة إلى أسمى ما في الحياة. فلما علم بما ورث أبى أن يقتضيه؛ لأنه لم يكن نقيَّ المورد؛ إذ كان لخالة ساءت زمنًا ما سيرتها، وأعلنت الأم البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التي لها هي أيضًا، فجن جنون زوجها، وذهب يلتمس عون ابن عمها كي يردها عن عزمها، وبعد لأي قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها وتسليمها ابنتها. فلما تمت الصفقة صاحت مبتهجة: لقد باعني ابنته! ووقفت حياتها على ابنتها تربيها تربية سليمة، وتوجهها إلى مثل أعلى.

ليست تقف موضوعات التأليف المسرحي عند هذا النوع من الإصلاح الاجتماعي. على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب الاضطراب النفساني والاجتماعي الذي خلّفت الحرب؛ لتظهر الجماهير عليها كي تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ. ثم هي تتناول كذلك أنواعًا أخرى لعل الفن وحده هو صاحب الإملاء فيها. على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانبًا من الحياة كما يراه الناس، وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد، ثم إنها في كل حال تتناول جانبًا من الحياة على ما نراها ونحسها، فتجعلنا لذلك نرى صور الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع

تمثل على المسرح. قد يكون هذا الجانب تافهًا، وقد يكون ضعيفًا، وقد لا يرى البعض أن يتوجه إليه بأية عناية خاصة. لكنه على كل حال من الحياة التي نحيا؛ فهو لذلك يمسنا من ناحية الحسِّ أو الشعور أو التفكير أو العقيدة، ويحرك فينا واحدةً أو أكثر من هذه النواحي بمقدار قل أو كثر، وفي اعتقادي أن هذا هو الهم الأول للمسرح. فأما ما يكون فنًّا للفن من غير أن يكون ماسًّا بالحياة، فمن صور الكمال المستحبة، ومما يجب أن يفكر الكتّاب المسرحيون فيه تفكيرًا جديًّا، ولكن مع هذا الاعتبار دائمًا، وهو أن هداية المسرح الجماعة في الحياة يجب أن تنال أوفر حظ من العناية، ويجب أن تكون عند رجال المسرح في المكان الأول.

حاول بعض الكتاب المسرحيين في مصر، وفي مقدمتهم المرحوم محمد تيمور، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة إلى الناحية الأكثر على الإنسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها، فانتزعوا من وقائع الحياة في مصر صورًا أبرزوها على المسرح؛ لتمس من الجمهور بعض نواحي الحياة، ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة، ولست أحاول أن أحلل أو أنقد بعض هذه القطع. لكنّ هذا المجهود الصالح لم يصل إلى غايته، ولم تتداوله الأيدي بمقدار تتجلى معه من الحياة نواحٍ كثيرة، فتوجه في نفس المطلع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور إلى الناحية المراد أن يتجه إليها، ولعلي لا أغلو إن قلت إن كثيرًا من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التي تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الأثر في النفس قويًّا عميقًا لا يتبخر ولا يزول بعد مغادرة المشاهد المسرح بسويعات. قد يذهب بعضهم إلى أن جانبًا كبيرًا من اللوم في هذا يقع على الممثلين الذين ينقلون إلى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله إليه من صور الحياة، ولا يوجهون هذا الجمهور إلى ما يريد المؤلف أن يوجهه إليه؛ ليندفع تيار تطوره إلى ناحية خاصة. لكني أعتقد من جانبي أن المؤلف جدير بمقدار من اللوم أكثر من الممثل، وهو جدير بكل اللوم إن كان واجبًا عليه هو أن يختار الممثل الذي ينقل قطعته المسرحية إلى الجمهور، وأكبر ظني أن لو اختيرت الموضوعات من واقع ما تضطرب به الحياة اختيارًا يجعل الموضوع لذاته قويًّا أخاذًا، لكان هذا الاختيار نفسه جديرًا أن يسمو بالممثل إلى ما لا تسمو به إليه القطع التي تمثل اليوم، والتي تعتمد أكثر أمرها على الخيال البعيد عن قوة تصويره ما في الحياة التي نرى ونحس.

نعم! فإن كثيرين من كتابنا وممثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة في إبداع ما لا تستطيع الحياة إبداعه، وأنت أكثر ما ترى على مسارحنا مآسي ومهازل منقولة عن

اللغات الأوربية، والغرض من أكثرها لا يعدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال، والتي تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي العجب والمطرب ما يعوض عليها قصر خيالها، وهذا الضرب من التأليف ومن التمثيل أقرب الضروب إلى ما يرغب الأطفال عادة في مشاهدته في خيال الظل و«القراكوز» ونحوهما، وإذا كان هذا النوع من الفن مما يثير إعجاب البعض فهو في نظري ليس بالفن، الذي يؤدي للحياة رسالة الفن الجدير باسم الفن، والذي يتصل بالحياة ويسبقها في تصوير سبيل الكمال لها، وفي تشذيب ما بها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير في سبيل الكمال هذه، وهذا الفن هو الذي ندعو إلى دراسته، وإلى جعله موضع التأليف المسرحي.

وليست هذه الموضوعات بالقليلة أو التافهة في مصر. بل إنَّ مما تنقل الصحف السيارة من أخبار وحوادث قد نمرُّ عليها من غير أن تقف تطلعنا عندها، ما يجدر بالعناية والدراسة والبحث، وما يصلح خير صلاح؛ ليكون قطعًا تمثيلية إذا أتقنت من ناحية التأليف كانت من خير ما أخرج للناس في مختلف البلاد والأمم. لكن العناية والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود، وقد أصابتنا الحرب بما أصابت به أوربا من السعي للفرار من كل مجهود متصل مضنٍ ولكنه عظيم النتيجة عميق الأثر.

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذي أصابنا في نواحٍ كثيرة منها ناحية التأليف المسرحي؟ وهل للمؤلفين المسرحيين عندنا أن ينظروا إلى هذا الفن نظرة جد، وأن يعتبروه جديرًا بمجهود مثابر منتج؟ وهل لكتابنا الذين يعنون بهذه الموضوعات أكثر من عنايتنا، والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر مما نعرف، أن يكشفوا عن الأسباب، وعن وسيلة التغلب على الضعف، واستثارة مقومات القوة؟ إن النجاح في هذا، وما قد يكون أثرًا له من النجاح في التأليف المسرحي خليقٌ بأن يوجه تطور الأمة توجيهًا صالحًا لم توفق حتى اليوم له، وهذه غاية سامية جديرة بأكبر الرءوس وأنضج العقول.

الأدب القومي

عرفتُ بباريس في ربيع سنة ١٩١٠ فتاةً من كندا نزلت هي وأمها بالنزل الذي كنت به وأقامت فيه أسبوعين، ثم غادرته هي وأمها إلى ألمانيا في واحدة من تلك الرحلات التي يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة، وكنا أهل النزل جميعًا نقضي ما بعد العشاء في صالون بغرفة المائدة، نتحدث أو تعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع البيانو أن كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه، وقد وثَّقت هذه السويعات بيني وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالإنجليزية؛ لأنها لا تجيد الفرنسية، وكنت يومئذ أكتب «زينب»، وكانت لي يومئذ في الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أوهام طويلة عريضة، وعرفت مس شلزك كاسلز ذلك من أمري، وعرفت مما كان يرد إليّ من صحف مصر أني أكتب في بعضها. فلما كانت الليلة التي اعتزمت مغادرة باريس فيها، وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتني في ذلك المستقبل الذي كنت أرجو لنفسي ككاتب قصصي، فقالت: كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر في صورة قصصية كما صنع سير والترسكوت بتاريخ إنجلترا. إنني وإن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئًا كثيرًا جميلًا، وأن تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس في الصور القصصية المحببة إلى النفس، ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لي.

ولم أفعل، ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارئ في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب. لكني أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه، وإن لم يظهر وحيها في آثار حياته، كان الأدب فاترًا ضعيفًا؛ لأنه لا يصف الواقع ولا يجلو الحقيقة، وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته، وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه

إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي أنبتتنا والوراثة الكامنة فينا، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا، ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا، وكل ما توحيه هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحي.

وعدت من باريس إلى مصر في سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين شهرًا أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوربا، وعدت عن طريق سويسرا وإيطاليا، وركبت البحر من برندزي إلى بورسعيد، وكانت هذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصري، وما أزال حتى اليوم أذكر ما أثارته موازنتي بينه وبين مدن أوربا من رغبة عنه وحرص على مغادرته. فلما ركبت القطار إلى قريتنا، ونزلت منه في محطتها، وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا، وسرت على هذه الطرق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتي واستمتع بها صباي، نسيت أوربا وريفها وأهلها وكل ما فيها، وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر في أرجائها السعادة، ووجودي يكاد يطفر من فرط الطرب، وأحسست كأني عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار، وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب في الترعة، وبكل ذرة من هذه الهواء، هواء قريتنا الصغيرة الجميلة. فلما انتهيت إلى بيتي وأهلي لم أستطع أن أحبس إحساسي فتركته يطفر فرحًا سعيدًا، وشعرت بما في ذلك كله من وحي صادق لمن أراد الكتابة عنه.

وفي سنة ١٩٣٢، أي بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ، وكنت أتنقل في ربوع الشام، إذ مررت بمعرة النعمان ولم أقف عندها، ومع ذلك تمثل لي في تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء، وارتسم أمامي تمثاله، وفصلت أمام بصيرتي آدابه وحكمته وفلسفته، وألفيت قطعة من شبابي ترتسم أمامي بقوة ووضوح، وشعرت كأن هذا البلد الذي لم أر من قبل قط يحتوي شيئًا من حياتي. إذ ذاك سألت نفسي: إذا كان هذا شأني ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث ممحص، ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديقي الدكتور طه حسين «ذكرى أبي العلاء»، فماذا تكون الحال بالقياس إلى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعًا في سائر البلاد التي تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم؟ أوَلا يكون ذلك مصدر إلهام لهم أصدق الإلهام، ووحي في التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحي؟! والإلهام يكون ولا ريب أسنى كلما كان أوثق اتصالًا بوطن الإنسان وقومه، والأدب الذي يصدر عن الإلهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدبًا قوميًّا صادقًا.

وكما يسمو وحي الوطن بالكاتب في الأدب القومي، فإن هذا الأدب يخلع على الوطن في نفوس أهله جميعًا جلالًا وبهاء يزيدانهم له حبًّا وبه إيمانًا وتقديسًا وإياه إعزازًا،

ولقد كان للأدب القومي وللفن القومي في كل الأمم أعمق الأثر من هذه الناحية، وضعف أدب مصر وفنها القومي له الأثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضًا.

ولأدلك على ذلك أذكر أنني زرت روما غير مرة، وكنت ككل مقيم بروما أو زائر لها أتخطى «نهر التبر» مرات، وفيما أنا أتخطاه يومًا ذكرت أبياتًا من الشعر الإنكليزي حفظناها حين كنا بالمدارس الثانوية، فيها قصة لبطل لم يحضرني اسمه كما لم يحضرني اسم الشاعر صاحب القصيدة، ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر إلى أن يلقي بنفسه في النهر؟ أم كان أراد مهاجمة خصوم لروما في الجانب الثاني من «التبر» فرمى فيه بنفسه ليعبره سابحًا، ولم يعنني من أمر القصة كلها شيء، ولم أجهد ذاكرتي لاستظهار شيء منها، وإنما عنتني الأبيات التي قالها البطل ساعة ألقى بنفسه في الماء، وعنتني فيها نغمة المتعبد المقدس إذ يقول: «أيها التبر، يا أبانا التبر، ومن يسبح الرومان بحمده، إليك حياة روماني وعدة حربه خذهما اليوم في رعايتك». ذكرت هذه الأبيات وألقيت على النهر نظرة طويلة، وجاهدت كي أجد فيه ما يبعث لنفسي مثل القداسة التي كانت وما تزال تلك الأبيات التي حفظت صغيرًا مبعثها عندي، وأعترف أني لم أصل من جهادي إلى شيء؛ لأني لم أحاول إجهاد ذاكرتي لأستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان، ولأجد فيه هذه القداسة التي أشاد البطل الروماني بها على لسان الشاعر الإنكليزي. لكني مع ذلك ما أزال أرى في هذه الأبيات نفسها قداسة تجذبني إلى ناحية التبر، وتدعوني إلى أن أستشف من مجراه ومن تاريخه ما أوحى للمئين من الشعراء والكتّاب القصائد والصحف الخالدة.

وليس نهر «السين» في اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر في اختراقه روما. لكني إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر في أعماق نفسي بما يجعلني أشارك هؤلاء الشعراء في محبة نهر باريس وإجلاله؛ ذلك أني عشت إلى جوانب السين سنوات، وعرفت من مجراه وتاريخه، وكان لي فوق لجته ما يجعل له في حياتي أثرًا يدعوني إلى الاشتراك في شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه، وإلى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعر ونثر، وبكل ما تقع عليه عيني من صور لأماكن فيه، وبخاصة إذا كنت قد قرأت عنها شيئًا يجعلها في حكم ما عرفته بنفسي.

وشهدت في سويسرا جمالًا وروعة جعلاني أقرأ ما كتب عنهما لازداد لهما تذوقًا وبهما سرورًا، وأشهد لقد كنت، كلما تزايد ما قرأت، أشد لجمال سويسرا وروعتها حبًّا، وليس في شيء من هذا كله أي عجب؛ فكلنا أكثر بالجمال في مختلف صوره استمتاعًا

كلما كان معنا رفيق يشاركنا في المتاع، والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدرًا وبدقائقه معرفة. فأنت في صحبة شاعر أكثر استجلاء لما في منظر من مناظر الطبيعة أو في حادث من الحوادث من شعر، وأنت في صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغامًا يثيرها في الجو جمال الصور، وأنت في صحبة مصور تحس بما في الشعر وما في الأنغام من صور رائعة واضحة الحدود. ما بالك إذا كان ما تقرؤه في قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقي فيه الفنون الجميلة كلها! أنت إذن تود لو تعود إلى هذه المناظر، وأنت إذا عدت إليه واجد ولا ريب فيه حديثًا أشهى وأعذب من حديثه إليك قبل أن تقرأ عنه ما قرأت، وقبل أن تسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت.

وعدت إلى مصر من روما في العشرة الأخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩ وأتيح لي يومئذ أن أشهد فيها منظرًا لم يتح لي المتاع به منذ سنوات، ذلك منظر النيل في فيضانه، وأتيح لي أن أشهد هذا المنظر في أروع صوره وأكثرها مهابة وجلالًا. فلم يبلغ فيضان النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام، وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحركت في نفسي كل عواطف الإكبار والتقديس، وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها بالأقصر وأسوان والسودان ما زادني بجماله وجلاله وروعته شعورًا، وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس أجدادنا الفراعنة الأقدمين الذين كانوا يرون في «البحر الأعظم» معبودهم الذي أتاح لهم الحياة، وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة، ولذلك جعلت كلما سنحت لي الفرصة أذهب إلى شواطئه أملأ ناظري وقلبي وجوانحي إعجابًا به وتقديسًا له ودعاء أن يكتفي من فيضانه بما يغمر البلاد من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون هي وأهلها من المغرقين.

وأفضيت يومًا بخوالج نفسي إلى صديق من الذين زاروا أوربا، وتنقلوا في مختلف نواحيها، وتذوقوا جمالها في تباين صوره واختلاف أوضاعه، وذكرت له عميق شعوري بجلال النيل مما لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادئ وبين شوامخ جبالها الساحرة السفوح، والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء يزيد في روعة جلالها بما يجعلها دائمة التغير والتموج كلما تغير الجو وتموجت السحب، وتبسم صاحبي ضاحكًا من قولي معتقدًا أني أمزج، ثم كرر هذه الأنشودة التي نسمعها دائمًا وقد نكررها أحيانًا: وماذا في مصر من جمال؟ وماذا لطبيعتها من روعة وهي ليست إلا مسطوحًا من الأرض

يُملك تشابهه الذي لا يعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكًا؟، وكيف تقرن هذا الوادي المحصور بين الصحاري الجدباء المحرقة إلى سويسرا جنة الله على الأرض، أو إلى إيطاليا مهد الفن والجمال، أو إلى أي بلد يكفيه دلالة على جماله أن ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن، في حين لم تلهم مصر أحدًا؛ إذ ليس في تشابهها ما يلهم شعرًا أو يقيم فنًّا!

ليس صاحبي هو وحده، مع شيء كثير من الأسف، الذي يفكر هذا التفكر أو ينظر إلى بلاده تلك النظرة الخاطئة المملوءة غرورًا وعقوقًا؛ بل إن الأكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون بإعجابهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال في أوربا زهوهم بما تبعثه مناظر بلادهم إلى نفوسهم من ملال. ثم إنَّ كثيرين ممن لم تُتَحْ لهم أسفارهم وقراءاتهم المفاخرة بهذا الزهو ليحدثونك في أبلغ الإعجاب بجمال صحراء العرب، وما أنجبت هذه الصحراء من حب وحماسة وكرم تجلى في الشعر العربي القديم، وليزهون بهذا زهوهم بإملال بلادهم إياهم، وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التي تسمى جماعة المتعلمين في مصر، وقد يكون لهؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتَّابًا ولا رجال فن، وأنه لم يحرك أحد في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة في نهرهم وواديهم وفي صحارى بلادهم وواحاتهم المنقطعة النظير في بهر روعتها وسحر جمالها وقداسة جلالها. لكن العجب من أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها. هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال مثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر. فقلَّ منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حد يهز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازًا يخرج من نفسه صيحات صادقة كلها تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس إلى أن يلقي بنفسه في غمار التبر متغنيًا: «أيها التبر، يا أبانا التبر، يا من يسبح الرومان بحمده، إليك حياة روماني وعدة حربه خذهما اليوم في رعايتك».

بل إن أحدهم ليحس أحيانًا بأن من الواجب عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك، ولكنك تجده خلوًا من الشعور الصادق والإحساس العميق، وكل شعر وكل أدب وكل فنٍّ ليس صادرًا عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له.

وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوي الفن فينا بالجمال، وسبب ذلك: أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من

الكتب لا من الحياة. فالجميل هو ما تغنَّى به غيرهم على أنه جميل. أما ما لم يقفوا على أن غيرهم تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلًا، وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم، ويقيمون لهذا الجمال أعياده، ويقدمون له فيها قرابينه، وما دامت الكتب التي فيها تلك الأغاني قد أصبحت في غير متناول الأكثرين منا، وأصبحت قراءتها لا تلذ، فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذًا عن جمال صحراء العرب، وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلابًا عن جمال أوربا وروعة تاريخها. فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسورًا، وليست قراءته مستحبة، ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة، وإذن فمصر لا جمال فيها، وهي بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب.

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب عن سرِّ بقائهم على التقليد وحبسهم نفوسهم على ما سبقهم إليه غيرهم، رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس، وكل ما تحت الشمس قد دوِّن وحوته المكاتب، وأنهم لهذا يكفيهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى. هم في ذلك متورطون في أفحش الخطأ، وأي خطأ أفحش من إيمانهم بأن لا جديد تحت الشمس؟! بلى! إن كل ما تحت الشمس جديد؛ لأنه دائم التجدد، والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه، وكل إنسان منا جديد، وهو كل يوم متجدد، وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجًا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازدادت بذلك تجددًا، وإذا كان حسنًا وواجبًا أن يمتزج الإنسان بالماضي وأن يجد هذا الماضي طي الكتب، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر؛ ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين، وليجدد بذلك للمستقبل صورًا أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد، وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي، وعلى التجديد فيهما تجديدًا تبرز فيه شخصيتك قويةً ظاهرة إذا كان هذا الماضي ماضي بلادك، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجد وجمال. فإذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك؛ لتتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها، وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود، فقد بلغت الذروة من مراتب الإلهام. لكنك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب إلهامًا صحيحًا ولا وحيًا صادقًا. إنما الإلهام الصحيح والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة، وامتزاجك بمظاهرها، واجتلائك ما فيها من جمال هو الأساس الأول لكل إيمان صحيح.

وكيف لإنسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل إليه عن طريق حسه هو، وإنما وصل إليه من طريق حس غيره! كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه، وإنما هو يذكره لأن غيره ذكره، ويحس به لأن غيره أحس به. إن العواطف لتختلف مظاهرها، وإن اتفقت في النفس مصادرها، باختلاف الوسط الذي تبدو فيه، وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التي تتجلى بها عند أهل الشمال، ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر. ما بالك بالصور التي يقع عليها الحس ويتأثر بها في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم؛ لأن الأشخاص يختلفون في قوة كل حاسة من حواسهم، وحس من إحساسهم، وعاطفة من عواطفهم.

كنت أتصفح يومًا مجموعة من الشعر الفرنسي نشرتها مجلة الحوليات Les Annales في ملحق لها، وجعلت عنوانها: «إلى جانب المدفأ» "Au coin du feu" وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يثيره المدفأ في نفوس أكثر الشعراء؛ بل في نفوسهم كلهم من الخواطر وما يجيش فيها من العواطف، وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبته في هدأة الغرفة التي يقيم فيها، أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها، وكيف جلسا على مقربة من النار يصطليان في حين تهطل الثلوج، وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض، وكيف تبادلا حلو الغرام وتناجيا بأغاريده، وكيف تاهت عليه صاحبته ودلَّت، ثم زادت تيهًا ودلًّا، على حين زاد هو استعطافًا وضراعة، وكيف جثا عند قدميها راجيًا آملًا، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشًا من الأحلام والمنى العذبة اللاذعة، أو كيف جعلا يقرآن ويتحدثان، ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلبيهما حتى يمزجاهما مزجًا ... وما إلى ذلك من صور حلوة يزيدها حلاوة أنها تعبر عن إحساس صادق وشعور فياض، وهي مع ذلك وفي تعبيرها القوي هذا بسيطة كل البساطة في نفسها وفي روايتها، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا إغراب.

وذكرت حين قراءتي في هذه المجموعة من الشعر الفرنسي التي ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر في الفن وفي الأدب عند أهل أمم الشمال كافة، وليس أحد يعرف الأدب الإنجليزي شعرًا ونثرًا إلا يذكر جوار المدفأ The Fireside وما ألهم الكتّاب والشعراء. بل إن لجوار المدفأ لأثرًا عميقًا في حياة هذه الأمم الشمالية كلها، وهو لا شك له مثل هذا الأثر في الأمم الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط في الشمال، وحيث يضطر

الناس للاحتماء بالجدران، ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل الشمال سواء، وأنت إذ تقرأ شيئًا عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر واضحًا ظاهرًا في عيشهم، وفي توزيع ثروتهم، وفي ألوان طعامهم ولباسهم، وفي صور سرورهم وملذاتهم. فإلى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوز تقصُّ على حفدتها قصص الماضي وخرافاته وأساطيره، وإلى جوار المدفأ تجلس الأسرة تتناول طعامها في النهار وفي الليل، وإلى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون والنساء يطرزن والأطفال من حول أمهاتهم وآبائهم في شغل بلعبهم وما أعد لتسليتهم، وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده ويكتب الكاتب رواياته، ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف كل في خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره. فلا عجب، وذلك أثر المدفأ في حياة تلك الأمم، أن يكون المدفأ وما يلمع فيه من بصيص النيران وما يرسل من ضياء لا يضيء، لا عجب أن يكون مصدر وحي وإلهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف، وأن يكون بعيد الأثر في الفن والتفكير عند الذين يقضون حظًّا عظيمًا من وقتهم في جواره.

وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التي تلهم الشعراء شعرهم في بلاد الشمال. لكن الثلوج وقرّ الشتاء وبداءة الربيع وتفتح الأزهار وكل ما في الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم أيضًا، وهو يلهمهم بذاته عن طريق اتصالهم به، وليس إلهامه إياهم مقصورًا على ما يقرءون عنه في الكتب التي سبقهم بها غيرهم. بل ها نحن أولاء تحيط بنا طبيعة ساحرة، ومع ذلك لا يظهر لها في شعر شعرائنا ولا في كتابة أدبائنا من الأثر إلا قليل، ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد؛ لأن الذين ألقت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها، بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوي الفن منا لا يتصلون — كما قدمنا — بالحياة إلا عن طريق غيرهم، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه، وهم في هذا ينسون أنهم القيثارة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة في مختلف مظاهر الطبيعة، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها وبذهم فيها، وقضى على كل أمل في أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها، وهم لا يكادون يجدون شيئًا لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر في وصف مصر والتغني بسحر جمالها؛ فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئًا من أمرها. فإن هم ذكروا منه شيئًا لم يزد على بريق حسن بدا لهم، فلم يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به، واكتفوا بأن سجلوه في فراره، كأنما ليس له في حياة مصر قرار، ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو

إثبات هذا البرق الفرّار، وإنما هو الوقوف عند الجمال والإعجاب به وأخذه إلى مجامع النفس في مختلف صوره، والعود إليه مرة ثم مرة ثم مرة، والوصول بالنفس إلى حدود الفناء فيه حتى تمتلئ به وتجمع إليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه، فإذا الجمال يفيض عن ذي الفن، وإذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذي تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحًا إنسانية تخالط النفوس كلها، فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن، ويحسّ في الأشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يخلقه في الحياة خلقًا يجعل للإنسان على الأرض من المجد مثل مجد الله في العلى.

ولنعد إلى النيل، إلى هذا «البحر الأعظم» الذي كان أنشودة العالم منذ القديم، إلى النهر الذي تألّه على الدهر وجل في كل العصور وتقدس عند كل الأديان. ألم يكن ربًّا من أرباب الفراعنة يرمزون له بإبيس إله الخير والبركة؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة، وأنه فيها ينبع من أنهار العسل؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد في هذا النهر إذا هو امتزجت به نفسه، واختلط بدمه إجلاله وحبه — وحْيًا لا ينضب وإلهامًا يكفيه مدى حياته، بل يكفي شعراء وكتابًا وأرباب فن على تعاقب الأجيال جميعًا. إن في تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة، وفي ارتفاعه بالفيضان جبارًا رحيمًا، يغرق ويسقي ويطغى ويخصب، وفي خضوعه للسابحات من الفلك فوق ظهره تجري بالتجارة حينًا وبالمسرة واللهو حينًا، وفي هؤلاء الذين يتغنون في سكينة مطمئنة حين هو يحملهم في أناة ومن غير عجلة إلى حيث يريدون، وفي تعاريجه وشلالاته وسدوده، وفي انبعاثه من هناك، هناك عند خط الاستواء مارًّا بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو إلى مصبه، وفي شواطئه المخصبة بطميه الدائمة الشكر للنعمة، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعًا وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذي يمد بالحياة كل ما حوله، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمي التجدد والجمال — في هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور، وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها إلى يوم أزلها إلا بعضه؛ لأن مصر وتاريخها ليسا إلا بعض هدايا النيل وأعطياته.

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الإله كل ما ملأ به نفسي من تقديس وإجلال في كل مرة صحبته فيها، ولن أنسى منظره الذي أشرت إليه حين عج بفيضانه في صيف سنة ١٩٢٩، وحين أخذني إليه أخذًا إثر عودتي من أوربا بعد مشاهدتي التيمس والسين

والتبر في مختلف عواصمها في الساعات الثلاث التي قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلأت نفسي بروعة جلاله. يومئذ تحرك في نفسي الفلاح القديم الذي ورث من آبائه وأجداده حب هذا الثرى المقدس، وإجلال هذا النهر المبارك، والإعجاب إلى غاية حدود الإعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة والنضرة. نعم! تحرك الفلاح في نفسي، فصرت لا أبصر إلا بعينه، ولا أسمع إلا بأذنه، ولا أحس إلا بقلبه، ولا أشعر إلا بشعوره، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذًا بمناظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذني أي مظهر من مظاهر الجمال، وكان تقديسي على أشده لمشهد مياه النيل في فيضانه تتقلب أمواجها الحمراء بعضها فوق بعض في الترع وفي النهر العظيم. يا لها ذات جمال لا يعدله جمال، وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة! إني لأشعر أن هذا الماء المملوء حياة وخصبًا يجري في حنايا نفسي ويجري في عروقي مع دمي أكثر مما يجري في النهر وفي الترع المتفرعة منه، وإني ما أزال لذلك أراه أمام نظري وأنا أكتب في غرفتي أمام كتبي. نعم! ها هو ذا يموج حلوًا جذابًا بلونه الطامي وموجه المتدافع في طمأنينة بين حروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والأشجار، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية إلى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن، وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون، تأوي إليها اليد العاملة التي تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التي يجود الله بها على أهل مصر، وها هو ذا يموج في عظمة وجلال وقوة تدافع في مجرى النهر الذي اتخذ منه أجدادنا الفراعنة إلهًا يعبدونه، والذي جعل من مصر جنَّةً فيحاء بدل أن يذرها تندمج فيما يحيط بها من صحراوات جرداء. أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات! ومع ذلك يقدس سكان روما التبر، وسكان باريس السين، وسكان برلين الأسبرى، وسكان لندرة التيمس! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك، واعتبارهم جنة النعيم منابعك الإلهية!

أي منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرنا في سحره وبهره!! وأي جبال في سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه المستويات الذاهبة إلى الأفق تكسوها زروع مصر وأشجارها، وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة!! أنظر إلى مزرعة الذرة ما تزال في أول صباها زاهية خضرة أوراقها غضة سيقانها، تلتف حولها عُقَلها كأنها قصبات الناي، يثير منظرها في أذنك ألحانًا لا تدري أهي عيدان الذرة ترتلها أم هي أصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك؛ لتكمل في نفسك جمال

هذا المنظر المصري الفذ الجميل. ثم أنظر إلى أشجار القطن مناط آمال أهلنا الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادي النظرات، تلمع عيونهم ذكاء، وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة، وسط هذا الوطن الذي نشأت فيه والذي نسيت معه كل ما رأيت مما سواه، ذكرت أنني أستطيع أن أجوب أقطار الأرض ما شئت، وأشهد من صور الجمال في مختلف مظاهر الفن ما حلا لي أن أشهد، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب، وأن أقرأ من أدب العرب وأدب الإفرنج كل ما يتسع وقتي لقراءته — أستطيع أن أصنع هذا وأكثر منه من مثله، ثم أبقى بعد ذلك وفوق ذلك مصريًّا وأبقى أكثر من مصري، أبقى فلاحًا قحًّا صميمًا، أقدس كل ما في مصر ومزارعها من جمال، وأقدس النيل الذي حبا مصر الحياة وحباها الجمال.

لو أن رهطًا من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودوّنوا وحيه، لرأيت صاحبي الذي هز كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله، أشد بنيل بلاده إعجابًا منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم. نعم! فالفن يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال، وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال؛ ذلك بأنه يحبب إليهم الحياة ويدعوهم إلى زيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها وبهجتها، وما أشك في أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الإنسان بعد أن دلّه الفن وأربابه على مبلغ ما جملت الطبيعة به تلك البلاد، ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم؛ لعملوا كل ما في وسعهم لزيادة جمالها جلالًا وروعة، ولرأينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة في جلال سهولته وقد رأوه باهرًا بارعًا من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فآمنوا به إيمانهم بجمال سويسرا، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر، بل كان تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعمق؛ لأنه تقديس جمال متصل بنفوسهم مجرى الدم في عروقهم.

وليست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هي وحدها ذات السحر والفتنة، بل إنَّ تاريخها القديم والحديث ليحتوي من ذلك أكثر مما يحتوي أي تاريخ غيره، كما سنبين في الفصل التالي، وهذا التاريخ وذاك الوادي ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحي لأدب قومي يصور مصر في ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع في نفوس أبنائها وفي نفوس الأجانب عنها ممن يقرءون هذا، فيعرفون مصر كما هي حقًّا، لا مصر التي شوهت تشويهًا بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية، ويومئذ تنتقل

النفس المصرية خطوة واسعة في سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها، وتنتقل كذلك خطوة واسعة في سبيل تمثل الجمال والخير والحق، وتسمو بذلك إلى المكان الإنساني الصحيح الذي ألقى على عاتق الأدب في مختلف العصور أن يمهد له فيعد الإنسانية عن طريقه لبلوغ الكمال.

التاريخ والأدب القومي

بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصال نفسي وثيق ينساه كثيرون فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم وفي العقائد الدينية وفي اللغة وفي غير ذلك من مقومات حياة الأمم، قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلًا حاسمًا جعلنا إلى العرب أو الرومان أقرب منا إلى أولئك الذين عمروا وادي النيل في ألوف السنين التي سبقت المسيحية، وهم يعللون ما يحسبونه من ذلك بعظم هذه التطورات. فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم، والذين يتصورون الأشياء على ما تريدهم لغة العرب أن يتصوروها، تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الهيروغليفية بما كانت تحمله ألفاظها وعباراتها المتوارثة إلى القلوب والعقول من صور؟ وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالإسلام وأقلهم بالمسيحية، والذين تكونت عقائدهم على ما في كتب الإسلام والنصرانية المقدسة — وبين هذه الكتب المقدسة صلة متينة قوية — كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقد عباد آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعددين؟! بل كيف تراهم ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أيّ ارتباط؟ ثم كيف ترى المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان، ثم لنظم المسلمين، ثم لنظم الديمقراطية الحاضرة في صورة الحكم، يفهمون من الحكم ما كان يفهمه أولئك الذين خضعوا في سكينة واستسلام لبناة الأهرام والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ مجدها، والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد التي فرضت عليه؟! أوليس القول — وهذه هي الحال — بوجود الصلة النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة، أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة التاريخية؟ … ولئن أرضى هذا الخيال فكرة قومية تريد

أن تصل مجد مصر الحاضرة بمجدها القديم فإنه لن يرضى الواقع الذي يجب الاعتراف به، والذي يفصل بين المصرين القديمة والحديثة فصلًا حاسمًا.

كذلك يقول الكثيرون، ولقولهم ظاهر من الحقيقة لكنهم لا يعدون ظاهر الحقيقة في قولهم بانقطاع الاتصال النفسي بينك وبين أجدادك؛ لأنك تعلمت غير تعلمهم، وفهمت الحياة غير فهمهم إياها، وخضعت لنظام من الحكم غير الذي خضعوا له، وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التي كانوا يتكلمون، وتنظر إلى العقيدة بغير العين التي كانوا بها ينظرون. أنت في الظاهر تختلف عن هؤلاء الأجداد جد الاختلاف، وقد يحسب من رآهم ويراك أنك لست منهم وأنهم ليسوا منك. لكن ذلك لا يزيد على أنه الظاهر. أما الحقيقة العميقة التي تشعر بها أنت ويثبتها العلم فهي أن بينك وبين أجدادك اتصالًا وثيقًا لا سبيل إلى إنكاره وإن جهله الناس، وإن جهلته أنت. فهذا الدم الذي كان يجري في عروقهم يجري في عروقك، وهذه الانفعالات النفسانية التي كانت تدفعهم في حياتهم هي التي تدفعك في حياتك، وأنت محكوم عليك طائعًا أو كارهًا أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك إياه.

فإذا أنت دخلت يومًا إلى نفسك تحاسبها على أعمالها، وإذا أنت امتحنت يومًا خُلقك، وحللت فطرتك، وتعرفت سجيتك، إذن لرأيت جوهر أجدادك قد انتقل إليك. فإذا خضعت بحكم الحياة المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم، فسكُّ الذهب عملة مختلفة الأشكال لا يغير من أنه ذهب، وأن المعدن الأصيل باقٍ فيه بقاء معدن أجدادك فيك.

وبعد، فهل تحسب هذه المظاهر التي يظنونها كافية لقطع الاتصال النفساني بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفي لقطع هذه الصلة بل لإضعافها؟ أليست هذه الأديان التي تتابعت على مصر، وهذه النظم التي خضعت لها، وهذه اللغات التي تعاورتها، هي الأديان والنظم واللغات التي تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة؟! أليس الإسلام والنصرانية واليهودية هي الأديان التي يعرف كل واحد منها الدين الذي سبقه ويعترف به؟ أليست جميعًا قد نزل الوحي بها في مصر وفلسطين وبلاد العرب، وكلها متجاورة أقرب التجاور؟ أليست اليهودية، وهي أقدمها جميعًا، تتصل بالفراعنة وبمصر القديمة اتصالًا متينًا، والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها، والإسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما؟ ... ثم أليست لغات الفراعنة والعرب والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة، وهي حياة متشابهة في التاريخ القديم قريبة التشابه

في التاريخ الحديث؟ وأما نظم الحكم فلا تغير من الحقائق التاريخية شيئًا؛ لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذي تكون فيه في مختلف أنحاء العالم، فهي أضعف من أن تترك في نفسية الأمم أثرًا عميقًا.

فإذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل منذ آلاف السنين، وأن هذا الوسط الطبيعي هو الذي يصقل اللغات والعقائد والنفوس، وأن الذين أغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالًا فقدوا كل صفات أجناسهم القديمة، وخضعوا لحكم الوسط الطبيعي، وأصبحوا كأنما آباؤهم وأجدادهم في مصر منذ عهد الفراعنة — إذا ذكرت هذا أيقنت إذن أن بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالًا نفسيًّا وثيقًا، وأنه من الواجب على المصريين أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال، وأن خير ميادين البحث العلمي هي الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة.

ولقد يدهشك أن تعلم أن كثيرًا من طقوس العبادة في مصر هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة، وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير بتعاقب الأديان المختلفة على مصر، وأنت ترى أن كثيرًا من الحفلات التي تعتبر دينية عند الأقباط وعند المسلمين كحفلات الزواج وحفلات الجنازة تتشابه أشد التشابه، وبخاصة في بلاد الأرياف حيث الوراثة سليمة لم تعصف بمظاهرها أعاصير الحضارة، هذا مع أن هذه الحفلات تختلف عند مسلمي الدول الأخرى كالمغرب وتركيا، وتختلف عند أقباط مصر عنها عند نصارى الدول الأخرى. فهل تستطيع أن تجد لذلك تفسيرًا إلا أن هذه الحفلات سابقة في مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الإسلام وعلى المسيحية، وأنها ترجع إلى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ.

أشار بعضهم إلى أن تلقين الميت عند مسلمي مصر عادة ليست شائعة عند أكثر المسلمين، وأشار إلى أن عبارة هذا التلقين، وما جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالهما وتحديد الأسئلة، والتحدث إلى الروح والنصح لها بالجواب على صورة معينة، كل ذلك يعيد إلى النفس صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين، وما كانوا يتحدثون به إلى الروح لتنجو، ولست واقفًا على تفاصيل هذه الطقوس القديمة لأؤكد ما يؤكدون من مشابهة بينها وبين التلقين. لكن هذه المسالة تدل على كل حال على أننا ورثنا حتى في العبادة طقوسًا تسللت إلينا من الأزمان القديمة، وأننا اقتبسنا من الدين الإسلامي ما أسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به، ومن يدري! لعل عند إخواننا الأقباط مثل ما عندنا من ذلك أو أكثر منه.

ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافًا عظيمًا عنها عند أهل الأمم الأخرى، ولكنها تتفق والمظاهر التي عند سائر المصريين، كما تتفق وما كانت عليه الحال عند قدماء المصريين. فكما ترى النسوة من أهل الميت وخدمه وتابعاته قد انتقلن مع جنازته في الأزمان القديمة نادبات مولولات لاطمات خدودهن مجللات بالسواد وجوههن وأيديهن، إذا بك ترى مثل هذا تمامًا عند المسلمين من المصريين، وبخاصة في الأرياف التي ما تزال خاضعة لأحكام العادات القديمة، ولعلك إن بحثت عن سبب الإفراط في الحزن، وعدم النظر إلى انتهاء الحياة بشيء من السلوى وجدته فيما كان يعتقده الأقدمون من بقاء الروح، أو بعبارة أدق الشخص الباقي (الكا) يرقب ما سيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب، وكأنما تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء، فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الذاهب خاضعًا لآلهة الحساب وقسوتهم، فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت لعل في ذلك ما يلين قلوب الآلهة، كما يلين ألم النظارة والحاضرين قلب الحاكم الذي يحاسب رجلًا أمامه على سيئة اجترحها، ومع تداول الأديان بعد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة في النفس المصرية، فكانت لذلك أشد فزعًا مما بعد الموت من سائر الأمم الإسلامية، ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذائذها على نحو ما تعشقها عمر الخيام وغيره من المسلمين في الفرس وفي بلاد إسلامية أخرى.

بل لقد ترى من مظاهر وراثة المصريين اليوم لتراث أجدادهم الأقدمين ما هو أبلغ في الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما. ذكر غير واحد من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة أن ما يخلعه المسلمون المصريون اليوم على بعض أوليائهم المحليين من مقدرة وسلطان، وما يقومون به لهذا الولي أو ذاك من طقوس وفرائض في «مولده» هو بعينه ما كان يقوم به المصريون الأقدمون في هذه المنطقة لإله محلي من آلهتهم من طقوسٍ وفرائض، وما كانوا يخلعونه عليه من مقدرة وسلطان.

ولا أريد أن أقرن إلى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة موسى عليه السلام من حيث وضعه في التابوت وإلقاء أمه به في اليم والتقاط فرعون له، وقصة أوزوريس وخيانة سخت له بوضعه في تابوت وإلقائه في اليم وعثور إيزيس عليه عند جبيل من أعمال الفينيقيين؛ فقد لا يكون الشبه هنا دليلًا على أن القصة واحدة اختلفت عليها أيدي الراة، وقد تكون عادة الإلقاء في اليم بعض عادات ذلك العصر، فأصابت أوزوريس إله المصريين القدماء الأعظم، كما أصابت موسى عليه السلام بعد ذلك على النحو المبيَّن في الكتب المقدسة.

لا سبيل إذن إلى إنكار ذلك الاتصال النفسي الوثيق الذي يربط تاريخ مصر منذ بداءته إلى عصرنا الحاضر، وإلى العصور المستقبلة التي يمكن أن يعرفها التاريخ، ولئن تبدلت أسباب العيش ما تبدلت، ولئن قربت السكك الحديدية والبواخر والطيارات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين أجزاء العالم ما قربت، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية، فسيبقى أبدًا هذا الاتصال النفسي الوثيق الذي يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة فيما يصل إليه عقلنا من تصور الأزل والخلد، بما أورث أجداد هذا الوادي الحفدة، وما سكبته طبيعة الوادي في وجودهم من حياة نفسية إن تأثرت بمظاهر العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبدًا طبيعتهم التي لم تتغير منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا، ولا شيء يدل على أنها ستتغير ما دام الإنسان إنسانًا.

وإذا كان الإنسان أقوى سلطانًا على الحياة وحكمًا لها كلما تمثل ماضيه في شخصه، وكلما تمثلت الأمة تراث آبائها وأجدادها جميعًا بالغًا ما بعدوا في غيب الماضي أي مبلغ، فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن أجدادهم جميعًا، وأن يربطوا بين حاضرهم وماضيهم ربطًا ظاهرًا لكل عين، وإنهم إذن ليضيفون إلى قوتهم قوة، وليضاعفون مجدهم أضعافًا، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعًا ولها ذوقًا، ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك ما لا يدع مجالًا للشك فيه. فكلنا صفق طربًا لاستكشاف آثار توت عنخ آمون، وكلنا ملأ ماضيه فخرًا بمدنية هذه الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية على ما بيننا وبينها من آلاف السنين، وكلنا حدثته نفسه: إذا كان أجدادنا قد تسنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدنية فلم لا نتسنمها نحن كما تسنموها؟ ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والأمل ما لهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى، بل كان منشؤها في غور النفس وأبعد أعماقها: كان منشؤها اعتزاز النفس بذاتها، واعتقادها القدرة على ملك الحياة بعد يأس من بعد هذه القدرة. أرأيت إلى الفقير البائس الذي لا يعتز من آبائه بجاه ولا بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له إلا في الحظ الحسن وهو من غدر القدر دائمًا على حذر. ثم أرايت إلى المعتز بجاه بيته وماله كيف ينظر إلى غدر القدر باسمًا وهو دائمًا يؤمن بأن له آخر الأمر الغلب. هذه العواطف هي التي تحرك الأمم بقوة مضاعفة ملايين المرات أكثر مما تحرك الأفراد، ولذلك يعمد المستعمرون الذين يريدون أن تذل لهم أمة إلى أن يلقوا في روعها أنها كانت على التاريخ عبدة ذليلة، فحتم عليها أن تظل عبدة ذليلة.

فإذا جاز لنا أن نأمل ما يأمل المعتز بجاه بيته وماله، وكان لنا من آثار الأقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة ما يطوع لنا أن نجدد مصر القديمة، كما جدد الغربيون اليونان والرومان، وكان لنا من وراء ذلك مطمع في أن نقر في مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التي أقرها الغربيون في أوربا، فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن نني في ذلك أو نقصر فيه أي تقصير.

والسبيل إلى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة، ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعًا في هذا المضمار. فمنذ كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد، لم تن البعثات الغربية من أوربا وأمريكا في البحث والتنقيب عن الآثار المصرية، وبعث ما تنطق به أحجارها الصامتة، وما تنطوي عليه أوراق البردي القديمة، وهذا الفضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه، لكنه يحمِّلنا نحن وزرًا كبيرًا، وزر الإهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذي يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراسًا لإقامة حضارة لا تقل عن تلك بهرًا، ولا تقل عنها ازدهارًا.

وإني ليخيل إليَّ أن المصريين الذين يتقدمون إلى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة أدنى إلى التوفيق فيه من أبناء أية أمةٍ أخرى يتقدمون إليه؛ ذلك بأن غير المصريين إنما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم، وما لا تسري روحه في قلوبهم وأفئدتهم، فلهم إن أخطئوا عذر المترجم الذي ينقل من لغة إلى لغة. أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق له أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين القدماء، فإنهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الأداء الأوفى.

ولقد وقفت في مطالعاتي لمراجعة بعض كتب مما خطه بعض الأقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم، فألفيت فيها روحًا وحياة أكثر مما ألفيته في كتب أخرى وضعت حديثًا، ولا عجب فاليونان ومصر متجاورتان، وروح العصر كانت تربط الفريقين جميعًا بأوثقَ رباط.

ولست أقصد من ذلك إلى قصر التجديد في قوميتنا الأدبية على آثار الحضارة الفرعونية، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الأمم، وإنك لترى هذه العصور الوسطى في أوربا، والتي يسمونها العصور المظلمة، ذات أثر في تاريخ الأدب الغربي غير منكر، والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراعنة لحكم الأجانب فتاريخها لذلك ليس

تاريخها، يزيفون التاريخ. إنما خضعت مصر لناموس ما تزال أكثر الأمم الملكية خاضعة له بجلوس أسرة أجنبية عنها على العرش الذي يعتبر تاجها وعنوان مجدها. ثم إن مصر أيام اليونان والرومان والعرب وإلى عصر قريب جدًّا كانت ذات أثر كبير في سياسة العالم وفي توجيه دفة حضارته، وكل هذا الماضي المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به، وأن نعيد إلى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره؛ لنزداد به على الحياة قوة وعزة، وليزيدنا بالحياة متاعًا وفيها سعادة، وإنما أريد ألا يقل النشاط في الكشف عن حضارة الفراعنة وتمثلها وإحيائها عن نشاطنا في الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا؛ ليتمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد، فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون من الفراعنة إلى البطالسة، إلى مقاومة مصر استعمار روما، إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت على شاطئ النيل، وأضاءت العالم بنورها قرونًا متوالية، إلى عصور التدهور أيام الحكم العثماني ومقاومة ما كان من ظلم تلك العصور، إلى هذه النهضة الحديثة التي تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعًا، ولا ريب في جلال هذا التاريخ كله جلالًا يوحي للطالب ويلهمه أقوى إلهام في ميادين الأدب القومي بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثارًا شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراعنة إلى عهدنا الحاضر.

ولست أغلو في تقدير قوة هذا الإلهام القومي الذي ينبعث من تاريخ مصر لكل من عني بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع الاتصال بين مختلف عصوره، ولقد أشرنا في الفصل السابق إلى قوة إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحي النهر الإله، وأحسب ما تقدم في هذا الفصل يزيد في قوة هذا الإلهام بما يصور من تاريخ من أقاموا إلى جانبي النهر يتعاقبون على ألوف السنين، ويضاعف في قوة هذا الإلهام كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ الفراعنة إلى عهدنا وإلى من بعدنا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذه الآثار التي ترك الأقدمون منذ بناء الأهرام الأولى إلى أن أقام الرومان مقابرهم بعد أن مهد لهم الفن اليوناني حين دخل إلى مصر مع البطالسة، وما أقامت المسيحية بعد ذلك من كنائس وبيع، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن الإسلامي الدقيقة البديعة التي ما تزال تشهد بها المساجد والتكايا وسبل الماء وما إليها. هذه الآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من الأجانب عن مصر ممن زاروها، فهي جديرة أن تلهمنا أبناء مصر أضعاف ما ألهمت أولئك، وهي ليست إلا مظهرًا لحياة آبائنا وأجدادنا من فجر التاريخ. فنحن وحدنا الذين يستطيعون

أن يكشفوا عن صلتها بهذه الحياة، وأن يجتلوا من خلال هذا الكشف حياة الروح المصري الذي بعث إلى نواحي العلم في غير فترة من حياته حضارات سعد بها العالم قرونًا وقرونًا، وأيُّنا لا يقف، بوصفه مصريًّا صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه، أمام أي من الأهرامات أو من آثار طيبة أو من الآثار الأخرى الكثيرة التي تعمر الشاطئين، أو أمام أثر من الآثار الرومانية أو المسيحية، أو في مسجد من المساجد الإسلامية المملوءة هيبة وقداسة ورهبة — أيُّنا لا يقف بوصه مصريًّا صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه عند أي من هذه الآثار أو عند أكثر من واحد منها يستلهمه صورة أهلنا الذي شادوه، وصور عباداتهم ومعيشتهم، ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وقد تجسد الوطن بمعناه الكامل في نفسه، فدفع إلى فؤاده وروحه من صور الإلهام أرقاها وأسماها! وأينا يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزءًا من هذا الوطن باقيًا بقاءه، خالدًا خلده، ولا يدفعه ذلك إلى أن يتغنى بأناشيد بقاء الوطن وخلده في رعاية الله وعنايته! وهل أدب قومي يصدر عن هذا الإلهام كله يمكن أن يعدله أدب قومي لأمة من الأمم مما عرف العالم أو عرف التاريخ؟! وقصص هذه الآثار، وقصص آبائنا الذين شادوها، وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية، كل ذلك حاضر تحت أيدينا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه. فإذا تمثلنا هذا التاريخ، واستنطقنا هذه الآثار، وقدّسنا كما يجب أن تقدس هذه الطبيعة المصرية الخصبة المحسنة، وهذا النهر الذي أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضله عليها فألهمنا ذلك الأدب الذي نرجو، فلن يقف هذا الأدب عند تحقيق رسالة الأدب من تجلية الخير والحق والجمال؛ بل إني لأعتقد أنه يصل إلى أكثر من هذا، وأن قبسًا من نور هذه الأديان التي شهدت مصر وتوجت بالإسلام، سيضيء ظلمات هذا العصر المادي التي غمرتنا حضارة الغرب بآثاره، وسيقدم للعالم بذلك غذاء روحيًّا يلتمسه العالم اليوم في مختلف أنحائه في الشرق والغرب فيضل سعيه ولا يجد إليه سبيلًا.

ولا يحسبن أحد أن هذا النشاط المادي العظيم في الاختراع مما هو بادٍ اليوم في كل أنحاء العالم يجني على فكرتنا هذه شيئًا؛ فإن هذا النشاط سيصل يومًا إلى فترة يستقر فيها، ويومئذ يشعر العالم بظمأٍ، أي ظمأ، إلى الحياة النفسية الفتية الممتعة، ولعله واجدها في هذا البعث الذي نطلب إلى مصر أن تقوم اليوم به.

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا، وفي مقدمتهم كبارهم، عن هذا العصر الذي نتخطاه منذ الثورة العرابية إلى وقتنا الحاضر: أهو عصر ترجمة، أم عصر تأليف؟ وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب، يرجع إلى مثل أصله، ويقوم على مثل أساسه، وأصل هذا الحوار وأساسه في الحالين نضال ما بين الحضارتين: حضارة الغرب الحاكمة اليوم، والحضارة الإسلامية التي حكمت العالم زمنًا، ثم جاء دورها في الاستجمام انتظارًا للبعث. فأنصار الجديد لا يرون مفرًّا من أن تغزو حضارة الغرب أمم الشرق، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثيل آثاره متهيئة للوقوف أمامه في شيء من الكرامة والعزة، وأنصار القديم يقدرون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية، وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها، وأن يقضي عليها؛ لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعًا في العصور الماضية، وهم يريدون ليكفلوا هذه الغاية أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكًا لهم، يقولون فيما شاءوا منها هذا حلال وهذا حرام، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالقتل أو بالموت الأدبي، وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من سواهم أن يتبعهم، وهم ليسوغوا موقفهم هذا يدّرعون بالسلف الصالح، ويدعون أنهم وارثو تراثه، وأنهم باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربه بأنه خارج عليه وعلى تعاليمه، ولا ريب أن في تعاليم السلف الصالح كثيرًا من الحق، ولو أن خلفاءه هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحًا وجلالًا. لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شيء كثير، وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهامًا، وأن يفرغوها مع ذلك

في قالب رسمي؛ لتصبح في حماية الدولة، وليسبغ عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفها.

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حرًّا والعلم حرًّا والرأي حرًّا والتعبير عنه حرًّا، وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود، وهم قد جعلوا سبيلهم — أول أمرهم لتثبيت هذه الحرية — أن ينقلوا عن الغرب، وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه، وما دام كتاب الغرب وأدباؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها، فيجب أن ينشر هذا اللواء في الشرق كما هو منشور في الغرب، ويجب أن نستعير من أساليب الغرب في الكتابة وفي التفكير، ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي يذيعها كتاب الغرب وفلاسفته، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه، فنكون من بعد ذلك أحرارًا ننعم من حريتنا في بحبوحة السعادة العقلية والفنية، ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة يفسدون علينا حياتنا، ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله، وأن نقيم مكانه من علم الغرب حضارته وتفكيره جديدًا.

شيء من التمحيص يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود، وثورة الحديث كل هذه الثورة، إنما دفعت إليهما حرارة النضال، وأنهما ما كانا يندفعان إلى الحدود التي اندفعا إليها لولا هذا النضال، وقد بينا في الفصل السابق أن الخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة؛ لأن الحديث ينطوي على شيء من القديم بل على أكثره، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه إذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر في أرجائه. أليس فخار الأمم بماضيها لا يقل عن فخارها بحاضرها؟ ألسنا في مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامي أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث؟ فمحال إذن أن نتصور حديثًا لا يتصل بالقديم الذي أثمره، أو نتصور قديمًا لا يتطور مع الحديث وينضم إليه. فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساسًا لكل حضارة من الحضارات، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش في كنفها.

بهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة، وأن أسلكها سبيل الأدب القومي، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت عليَّ مس شلزك كاسلز مما أشرت إليه في فصل الأدب القومي، وقد بدا لي في وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهواني من

هذه العصور. لكني وقفت يومئذ مترددًا: أفأقدم فأبحث فأوالي البحث فأقدم اللجمهور ثمرة بحثي في صورة من صور الأدب القومي، فإذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئني من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت، متأثرة في ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص! من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعني بمهاجمة الباحث فيه أحد، وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومي شهي الثمرة خصب غاية الخصب، وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم، ولنطلق لحرية الأدب غاية مداها في تصوير حديث هؤلاء الآلهة، مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها، موازنين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة.

وقد بدأت مباحثي عن أبيس العجل الإله ونشرتها، فلم أجد من أحد نفورًا منها أو ازورارًا عنها، مما أثبت لي أن في النفوس إلى هذا الأدب القومي ظمأ، وأنها صادية لورده إذا هي وجدت من يقدمه إليها، وكنت قد جعلت بحثي عن أبيس في صورة قصة الإخوان ذهبوا إلى المتحف المصري فوقفوا أمام تمثال أبيس، وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الأساطير الميثولوجية التي أحاطت به شيئًا غير قليل، ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته نجيّ أبيس، وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض في الشعر، فدعوته الأشيب وجعلت منه رجل صلاح وتقوى، وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادئ الرأي بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة؛ فاكتفيت تمييزًا له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب، وقد ظل الإخوان في مناجاتهم لأبيس وفي مناقشة النجيّ أقواله زمنًا، ثم خرجوا فانطلقوا مارين بثكنات قصر النيل إلى فندق سميراميس؛ ليتناولوا الشاي فيه إجابة لدعوة أحدهم الذي تسمى من بعد باسم الذي دعانا إلى الشاي. فلما آنست ظمأ النفوس إلى هذا الأدب القومي فكرت في متابعة بحثي، وما دام القوم قد دعوا إلى الشاي في سميراميس فليكن حديثنا بعد أبيس عن هذه الملكة الإلهة التي جلست على عرش بابل والتي غزت مصر وحكمتها زمنًا، وتحدث القوم وهم في بهو الفندق وقد جلس إلى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين، من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالأشيب أشد العبث، وبدلّه من ورعه وتقواه جنون الهوى وفتك اللوعة، وجعله يُسائل في حديث القوم عن سميراميس مقدسًا للجمال حيث يكون، سعيدًا بحكم النساء الرجال، ساميًا بشأنهن إلى ما استهوى إليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنو إليه بنظرات معسولة زادته

هوى ووجدًا، وفي خلال ذلك كانت قصة سميراميس تُقص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجابًا ودلالًا، ونشرت هذه القصة أيضًا وكنت لما أطبع كتابي «في أوقات الفراغ»، وقد وجدت من الجهد في كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق في بحثهما ما جعلني أشك كل الشك في وقتي أهو يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين «حديث الآلهة» على ما كنت قد اعتزمت أن أسمي الكتاب الذي يجمع بين دفتيه هذه الأساطير؟ لذلك نشرت حديث أبيس وحديث سميراميس في كتابي: «في أوقات الفراغ». لكن هذا البحث استهواني من بعد، وعاد يجذبني إليه بقوة زادها إمعانًا تكرار زيارتي للأقصر وأسوان، ومشاهدتي مختلف آثار الفراعنة في وادي الملوك، وفي صحارى مركز الدر وجباله الممتدة ما بين أسوان وحلفا، وإجابة لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث إيزيس وهاتور وأفروديت، وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجيِّ أبيس، والشاب، والذي دعانا إلى الشاي، والأشيب، وفاتنة سميراميس، ويتصل به حديث هوى وصبابة كنت أرجو أن يظل متصلًا تباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة. لكني عدت فوقفت من بحثي عند هذه الفصول الثلاثة التي تتصل أوثق اتصال بفصلي أبيس وسميراميس وتتابع حوادثهما، ولولا ما سبق لي من نشر هذين الفصلين لكان موضعهما ولا ريب هنا في هذه المحاولة التي قمت بها في سبيل الأدب القومي. أما وقد سبق نشرهما فإنني أكتفي بنشر فصول إيزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا، راجيًا أن تعود إليَّ الآلهة الأقدمون تحدثني وأحدثها، وتوحي إلي ما بقي من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس، ولست كفيلًا بأن تستجيب الآلهة إلى دعائي، وقد اتجه ذهني واتجه روحي وجهة جديدة في البحث، وفي بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة، ولكنه أجلُّ منها مقامًا، وأروع فيما ينطوي عليه من حق ونور وجلال وجمال.

وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الفصول الثلاثة التي تلي هذا الفصل سيقدرون ما كان للفراعنة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه، ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذي بدأت في الصورة التي تلذه من صور الأدب القومي، ولعله يشعر حين يبحث وحين يدون آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعًا لما حدث في أوربا، واتباعًا لديكارت ومن جاء بعده من الكتّاب والفلاسفة، ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين، والانتقال إلى تقليد الغرب في أدبه القومي كتقليدنا إياه في لباسه وفي طعامه، كما أن ابتكار طرائق جديدة في الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لي لأذهب

أجيرًا عند الذي ابتكر هذه الطرق الحديثة، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق، وأعمل على مقتضاها في الأرض المملوكة لي. كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب في بحث تاريخنا وإقامة أدبنا، وفي ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا. عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا، ولا نصبح عيالًا على غيرنا ننال من فتاته، ونناال أضعاف ذلك من زرايته ومن احتقاره.

هذا وقد أثبتُّ بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة، نقلت حوادثهما مما شهدت دور القضاء وما قصه عليَّ بعض زملائي المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة، وهما صورة من أدبنا القومي عن حياتنا الحاضرة، وهما من نوع الأقصوصة التي ازدهرت في هذا الزمن الأخير، وقد نشرتا في مجلة الهلال في سنة ١٩٢٦، وإنما أذكر أن وقائعهما نقلت إليَّ مما شهدت دور القضاء؛ لأن هذه الدور تشهد من المآسي الوجدانية الشيء الكثير الذي يصلح مادة للقصص ويطبعه بطابع مصري صميم، ويجعل الأدب الذي يستلهم مادته أدبًا قوميًّا بكل معنى القومي، وليست دور القضاء هي وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصي ويلهم الأديب أيًّا كان نوع الأدب الذي يريد أن يضع، بل إن في الحياة المصرية فيضًا من مصادر إلهام الأدب في مختلف نواحيه أغرز وأخصب مما في غيرها، والمقاصير تنطوي من ذلك على ما لا يقلّ عما تنطوي عليه الحقول والمزارع، وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل؛ ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومي في الحياة الحديثة.

وهل نحن أولاء الآن نعرض على القارئ محاولاتنا في خمسة الفصول التالية، راجين أن يجد شبابنا فيها مثلًا لطليعة من طلائع الأدب القومي المصري.

إيزيس

«ولد أوزوريس من الإله جب (الأرض) ومن الإلاهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الإلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرِّهم، ولما كبر تزوج من أخته أيزيس، وجلس على عرش المصريين، وصار ملكًا على الآلهة والناس جميعًا، وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس، وأن يردهم إلى السلم، وأن يعلمهم صناعاته.

وكان «ست» إله الشر أخًا لأوزرويس، ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة، فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقًا فاخر الصنع، ووعد أضيافه بأنه مهديه لأي منهم طابق الصندوق حجمه. فدخل إليه الضيوف واحدًا بعد الآخر، حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به في النيل، فدفعه التيار إلى البحر، وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام، وبقي عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين، إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث. لكن «ست» عثر بأخيه ثانية في إحدى جولاته جوف الليل فمزَّق جسده أربعة عشر جزءًا ألقى بكل منها في مكان. فعادت إيزيس إلى بحثها، واستعادت أجزاء الجسم، واستعانت بأختها وبابنها الإله هورس وبطقوس الدين؛ فردوا إليه حياة شابة خالدة لا يحياها على الأرض بل في السماء، وكذلك بعث «الإله الملك» ووعد بالبعث كل من يفعل الخير في حياته.

(أبيس، ص٢٨٦ و٢٨٧ من كتاب في أوقات الفراغ)

«لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس. قتله أخوه إله الشر تيفون، فاستقلت البحر باحثة عن جثته. فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تفريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر، ثم حبست نفسها لتعيد إلى إله الخير حياة الخلد، وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة.

... وقمنا إلى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميعًا، ودار حديثنا حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان».

(سميراميس، ص٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهمًا اختلط بضوء القمر السابح في السماء ولما تكتمل دائرته، فهو ثلاثة أرباع، تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقنًا وأنفًا وجبينًا وضاء، وكست الأشجار الرصيف المقابل للفندق ظلامًا. فلما بلغنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندي فجعل منها مرآة له وحده، ونزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق، وقد اصطفت بعضها إلى جانب بعض، ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له، ومنها ما طويت قلوعه في انتظار من يستقلُّه، ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيأت منه معبدًا للزهرة وآلهة الهوى جميعًا، ووقفنا وتقدم الذي دعانا إلى الشاي يتخير لنا زورقًا لا ستور على جوانبه؛ فليس حديث الرجال في حاجة إلى ستر وإن تناول الجمال وآلهته والهوى ورياته، وتنادى أصحاب الزوارق كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه مرغبًا إيانا فيه، وجعل كل منا يدير نظره في هذه السوابح؛ ليتخير ألطفها وأظرفها. فأما الأشيب فوقف في شبه ذهول برهة لا ينظر إلى الزوارق ولا إلينا، وتخيرنا زورقنا، وجاء صاحبه يعاوننا على التخطي إليه. فلما كان دور الأشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الأشيب يهمس في أذنه: إلى أين ذهبت السيدات الإفرنج والسادة الذين سبقونا إلى هنا منذ هنيهة؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالأشيب، ونظرت إلى «الريس» فإذا به يجيب في جد من يدرك قداسة الهوى مشيرًا إلى ناحية جسر عباس: هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك، وأحسبهم يقصدونها.

أخذنا أماكننا، ونشر الريس قلع زورقه بعدما دفعه فوق لجة الماء والنور بمجدافه، وسرى إلى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده القمر رقة وعذوبة، وجرى الزورق يدفع ذلك

النسيم في قلعة وقد وجهه الريس إلى ناحية جسر عباس، كأنما هداه سؤال الأشيب طريقه، وسرَّحت بصري نحو الجزيرة، فاستوقفته إحدى الذهبيات وكأنها بجمالها قدس هوى أنبته الماء، وانثبت فيه أنوار الكهربا المطلة من نوافذها الرشيقة الضيقة، وأدرت نظري إلى سميراميس، فإذا هي بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر جميعًا، وأشركت أصحابي فيما جال بخاطري، فكان الأشيب أسرعهم إلى إجابتي: هي منارة هدى للقلوب والأبصار.

وابتسمنا ... أما هو فلم يبتسم؛ لأنه كان في شغل بالذهبية التي ذهبت إليها الفاتنة وأصحابها.

ثم قال الذي دعانا إلى الشاي يداعبه: لعلك لا تشير إلى فندق سميراميس، بل إلى سميراميس الإلهة التي جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى: ولعل الذي هدانا إلى الفندق والإلهة فيه، يهدينا إلى الإلهة حيث تكون.

وابتسم الأشيب لهذه الدعابة، وابتهل إلى الله أن يجيب الدعاء. ثم توجه إلى نجيّ أبيس بقوله: وأنت يا صاح، خذ بنا في حديث إيزيس. فلعل الإلهة التي عثرت على أخيها وزوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على صاحبتها الإلهة السيدة سميراميس.

قال نجي أبيس: لا يكن قولك عبثًا بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان ربوبيتها من مصر إلى أثينا وروما، ولتؤمن بأن لاسمها سرًّا تعنو له القوى حتى اليوم، وإذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة، فإنها ظلت بعد ما ارتفعت إلى أثير الخلد تؤتي عبادها المخلصين من روح قوتها ما يتغلبون به على كل عقبة، لكنها تطلب إليهم أن يكونوا مثلها ذوي صبر وإيمان. فلا تحسب يا صديقي أنها عادت بأوزوريس في صندوق الخيانة الذي حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء. بل لقد ركبت في سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه همم الرجال، ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر؛ ويغلب الرجاء اليأس، لأسلمت للقدر وعنت لنكد الحظ، وقد كادت تضعف أول ما عرفت الخبر، وكاد الهم والحزن يقعدان بها دون النضال، وكفَّاها يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد. لكنها عافت أن تستسلم لتيفون، وأن تدع الخير دفينًا في محبسه غير مخلد في السماوات، وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة قفط أطفالًا سألتهم عن الصندوق وهل رأوه؟ والأطفال كما تعلمون، أحباب الله، وهم لذلك ملهمون من أمر الغيب ما لا يلهم الرجال. فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جبيل في الشام، وكان أهل جبيل قد

بهروا بنمو الشجرة التي أحاطت به وحفظته في جذعها. فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عمادًا لبهو قصره، وأحاطت الرياح المقدسة إيزيس بذلك كله خبرًا، فجلست عند مورد ماء مكتئبة لا تكلم إنسيًّا. فلما مر بها خادمات الملكة عشتروت، حيتهن وتحدثت إليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذي يفوح من شذا شخصها المقدس، وعدن إلى سيدتهن، فتاقت إلى معرفة الغريبة التي ضوّعتهن بالشذا العذب، وبعثت في طلبها، فبهرها جمالها وحكمتها، واتخذت منها صديقة لها، وعهدت إليها في تربية ولدها وشفائه، وكذلك أتيح للإلهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين في عماد البهو تشدو حوله كلما سجا الليل بأغنيات الموت والأسى. فإذا فرغت من شدوها عادت إلى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء … وفطن بعض من في القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها، فراقبتها ليلة، حتى إذا رأت النيران تخرج من فمها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة. فسلبت الإلهة من الطفل ما كان قد أصاب من أسباب الخلد وإن أبقت له صحته، وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة، فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء وأن تغادرهم. فاختارت إيزيس العماد، وشقته وأخرجت منه الصندوق وما كادت تراه حتى علا نحيبها، ثم حملته في قارب وبعدت عن جبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمرَّ بكاء، ولما بلغت مصر نحَّت الصندوق في مكان تبحث عن ابنها هورس، وعن أختها نفتيس؛ ليعيدوا للملك الإله حياته.

«فلعلك ترى يا صديقي أن إيزيس تجشمت في سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة ما لا تتجشم النسوة في سبيل البحث عن أشلاء أزواجهن، بل عن أزواجهن الأحياء، وإنما هو الوفاء الذي جعلها تستمرئ المشقة، وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذي هوَّن على ربوبيتها أن تخضع «لملاكندر» وامرأته.

ولما عثر «ست تيفون» أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلوًا، وألقى كلًا منها في مكان، وليس من اليسير تصور ما تجشمته إيزيس في سبيل العثور من جديد بالأشلاء جميعًا، واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضوًا فردًا كان الشر قد ألقى به في النهر طعامًا للأسماك، مما اضطر إيزيس إلى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع؛ ليتم لها الرجاء في إعادة الحياة الكاملة لإله الخير الذي عبث به الشر وأعوانه شر عبث، وكأنما كان الخير في عصور الآلهة مثله في عصور الناس هيَّابًا للشر، متحاشيًا إياه، قاصرًا عن دفع هجماته، عاجزًا من مهاجمته. فإن إيزيس خشيت

بعد الذي لاقت من نصب في بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به، فأقامت أربعة عشر قبرًا في أربع عشرة قرية من القرى التي عثرت بالأشلاء فيها، وزعمت أن كل واحد منها قبر أوزوريس؛ لتضل بذلك أخاه في مطاردته إياه، وما تزال هذه القرى تدعى إلى يومنا بهذا الاسم. فأبو صير ليست إلا «بوزيري» أو قبر أوزوريس، وإقامة هذه القبور جهد مضن أشد إضناء، وهو بعض الوفاء الذي تميزت إلهة مصر القديمة على غيرها من إلهات الجمال اللائي ازدرين الوقار وسخرن من العفة.

قال صديقنا الشاب: ظريفة أساطير القدماء! وأقر لكم الآن بخطئي حين سخرت من عبادة أبيس. فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة، فمن حق ثمرات الأرض أن تكون لها آلهة، وللثور كما للنيل وللشمس حظ في إنبات هذه الثمرات. فمن حق الثور أن يكون إلهًا كالشمس والنيل، ومن حقه أن يكون أوزوريس أو غير أوزوريس من أكابر الآلهة رمزًا له، وقال الذي دعانا إلى الشاي باسمًا: ما أسعد جماعتنا بعودك إلى ذوق أساطير أسلافنا! وما أشدنا سعادة بإجلالك عبادة أبيس! فهو وحده الذي اختص مع النيل والشمس بعبادة مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها. أما سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه. كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه، وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما، ونسبة الخير إلى أحدهم والعلم إلى غيره والشر إلى ثالث وهلم جرّا، لم يكن إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية مرَّ بها عبَّاد هذه الآلهة، وأحسب أنه أول نشأتهم كان كل منهم إلهًا طائفيًّا له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته، كما كانت أوثان العرب قبل الإسلام آلهة كل منها لقبيلة، ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية. ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى، فكان إله الطائفة المغلوبة على أمرها شقيًّا مثال النقص والفساد، وكان إلاها الطائفتين المتزجتين صنوين في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه، وأذكر على سبيل المثال أن آمون إله طيبة لم يكن أول أمره ذا مكانة عند غير عباده، وكان رع هو الإله المقدم في أنحاء مصر الأخرى. فلما آل إلى طيبة عرش مصر، وكان لزامًا أن يصير لآمون مجد طيبة، لم يكن إلا أن امتزج برع فصار الإله آمون رع، ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزّعت جهود الألوهية بين آلهة عشائرها المختلفة، وخصّ كل منهم بعمل من الأعمال ووصف به، وأعمال هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية أن تكون، وهي لذلك مظهر من مظاهر شهوات الإنسان

ومخاوفه وآماله. على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع، وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير، وأن هورس كان إله الشمس في هليوبوليس، ولقد ظل له ولفتاح إله منفيس أكبر السلطان، حتى جعلت طيبة إلهها آمون قريبًا لرع وإلهًا للشمس كهورس وفتاح، وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض.

قال الشاب: وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلًا لآلهتهم؟! أو لم يكن خيرًا أن يرسل كل إله للناس رسولًا منهم من أن يرسل حيوانًا أعجم؟

وأجاب الذي دعانا إلى الشاي: ما أحسب المصريين القدماء كانوا قومًا في بداءة الحضارة، حتى أصدق الرواية التي تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا أول الخليقة أكثر من الآلهة عددًا وخبثًا حتى خشيتهم الآلهة، فتقمصوا أجسام الحيوان؛ لينالوا عطف الناس عليهم، وليطفئوا من نار شرهم. بل إني لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة في وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى، فاتخذت لكل فرقة علمًا جعلت عليه رسم حيوان كي يهتدي الجند به. فلما تم لهم هذا النظام سار النصر في ركابهم مما أعز أعلامهم عليهم، وكما يقدس أهل هذا الزمان رمز وطنهم، وكما يفتدون بالروح علمه، كذلك قدس قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور، وقدسوا تبعًا الحيوانات التي تمثلها هذه الصور، وبمر الزمن أصبح هذا التقديس عبادة لهذه الحيوانات وتأليهًا لها على نحو ما يفعل عامة الناس في كل بلد وكل دين بإزاء أوليائه المقربين.

«ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلي سببًا ثالثًا في تأليه قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا في ذروة حضارة كاملة؛ ذلك أن هؤلاء المصريين إنما كانوا يقدسون في الحيوانات فائدتها للحياة الإنسانية، والإنسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها. فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيرانًا وأبقارًا للحرث والنسل، ومن صوف الغنم يلبس الناس، ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن، والكلب حارس أمين ورفيق في الصيد بارع، ومن الطيور ما عبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزرع. أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة إخصاب الأبقار لتنسل الأرض لتثمر، وفي ثمر الأرض متاع للإنسان وفائدة أي فائدة.

«لم تكن الحيوانات إذن رسلًا للآلهة بل كانت هي الآلهة نفسها».

أتم الذي دعانا إلى الشاي قوله، وأراد نجيّ أبيس أن يتم حديث إيزيس، لكن الشاب استمهله بابتسامة وبإشارة لطيفة من يده، وقال: ليس أشهى يا صديقي من

حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب، ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تمليقًا. فقد رأيت حنقي أول الأمر على عبادة أبيس، ومقاطعتي لقصصك عنه استخفافًا بأمره. أما وقد ملكتْ شجون هذا الحديث الشجي عليّ نفسي وفتحت أمام بصيرتي آفاقًا جديدة للفكر، فأستأذنك وأستأذن إخواننا في أن أقطع نغم قصة إيزيس لألقي بفكرة استثارها الآن عندي ما رواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلي، وإني بعد ذلك لآذانٌ كلّي تلتهم رواية إيزيس التهامًا.

«عبد قدماء المصريين آلهتهم؛ لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء، ولأنهم كانوا يقدسون في آلهتهم ما تفيض على الحياة الإنسانية من خير. أليس هذا المعنى هو خلاصة الإيمان الإنساني في مختلف مظاهره؟! أليس هو إجلال القوى الظاهرة والخفية التي تمكن للإنسان في الحياة، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها؟ وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطرية لكل حيوان، سليقة الاحتفاظ بالحياة في خير ظروفها. فهل لهذا نتيجة إلا أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان، وإنما الفارق بينهما أن الإيمان يتطور لأن إدراك الإنسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة، على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل، فيؤدي عجزها إلى فناء الحيوان الذي لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة في السليقة.

«هذه فكرة طرأت الآن عليّ أرجو أن تعينوني على تمحيصها، ويخيل إليّ أن جانب الحق فيها أرجح. فمن الحيوان ما مرنت سليقته فأمكن تألف الإنسان إياه، ولئن ظل قرار السليقة ثابتًا في الحيوان الأليف وحيوان مثله لم يتألف، فإن اختلاف سلوك كل منهما في الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما، يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو جمودها. فأنت قد تتألف أسدًا أو نمرًا، وقد ترى سلائقه الوحشية تختفي. لكن هذه السلائق أغلب عنده مما أدخلته عليها من تحوير. فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الأسد أو النمر ما طبعته أنت عليه، ويعود الحيوان المفترس بكل شراسته ووحشيته. فأما إن تألفت كلبًا أو جوادًا كان لتألفك إياه أثر في سليقته، فلا تتحرك فيه الغرائز الأولى إلا أن يدفعه لذلك دافع شديد، ولا ينهض اعتراضنا على هذا أن الأجيال التي مرت على هذه الحيوانات الأليفة هي التي جعلتها كذلك. فلو أن الإنسان وجد في الحيوانات الأخرى التي ما يزال يعتبرها عدوًّا مثل ما وجد في الحيوانات الأليفة من مرونة في السليقة؛ لتألفها أيضًا ولجعل منها عونًا له في الحياة، والإنسان أمرن الحيوان سليقة، وقد تشكلت سليقته هذه

على الأجيال، وكانت القوالب الأولى التي سبكت فيها لتهذَّب وتنقَّى وهي قوالب العقيدة. لذلك أرى جانب الحق أرجح في قولي: إن العقيدة تحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان».

بهتنا جميعًا لهذه الفكرة الجريئة المفاجئة، واشتملنا الصمت زمنًا. ثم قال الذي دعانا إلى الشاي: لعلك يا صديقي بعد سماعك بقية حديث إيزيس أن تمحص فكرتك الطارئة، ولعلنا بعد سماعه نكون أقدر على معونتك في هذا التمحيص، وأومأ إلى نجي أبيس: عد إذن بنا يا صاح إلى حديث إلهة الجمال والوفاء. قال نجي أبيس: نعم، هي إلهة الجمال والوفاء، ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يومًا فحسبت تيفون زوجها، وأسلمت إليه نفسها وأعقبت منه، ولولا علم أوزوريس بأنها خدعت لما غفر لها خطأها.

كان الأشيب إلى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر في جميلة سميراميس، ويمد بصره إلى الذهبيات كلها يريد أن يعرف أيها قصدت؟ فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم، وقال: ولن يضير وفاء أية حسناء أن يخدعها ظلام معبد الحب فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها، وتبعث في الحياة من ضياء حسنها ما ينير جوانبها المظلمة، وهل الوفاء إلا مظهر تجاري لعقد مالي أساسه الفائدة؛ هو عقد الزواج! وهل هو إلا جناية على الجمال وآلهة الجمال!

ابتهج نجي أبيس بهذا الدفاع الذي أوحته جميلة سميراميس إلى الأشيب فأضلته، وعاد إلى حديث إيزيس فقال: استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقيها الإلهين توت ونوبيس أشلاء زوجها أوزوريس، وجعلت همها أن تعيد إليه الحياة، وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالًا من الشمع ووضعت الجزء الذي عثرت به في مكانه. فلما اجتمعت الأجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد، وحلتا شعورهما، ودقتا صدورهما ورءوسهما بأيديهما، كما لا تزال النائحات اليوم يفعلن، وجعلتا تناديانه مستعينتين بزملائهما الآلهة لبعثه. فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة: «عد إلى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا. عد إلى بيتك وانظر إليَّ فأنا أختك التي تحب. لا تبتعد عني وعد إلى بيتك حالًا فإنك كلما غبت عن ناظري اضطرب قلبي وحارت عيناي تبحثان عنك، وجريت في كل ناحية لكي أراك. عد إلى من تحب. عد إلى أختك. عد إلى زوجتك. أواه! يا من وقف قلبه فلا ينبض، عد إلى بيتك ولا تبتعد عني أنا أختك ابنة أمك. إن الآلهة والناس يبكونك جميعًا، أما أنا فأدعوك معولة في صراخ يشق عنان السماء. أفلا تسمع صوتي؟ أنا أختك التي أحببت على الأرض بما

لم تحب مثله»، وأما نفتيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة: «أيها الأمير الجميل عد إلى بيتك لتسري عن نفسك فليس أحد من أعدائك ها هنا. إنهما أختاك إلى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين. قم من سريرك لترى أختيك. لقد هزم أعداؤك وهأنذي حارسة أعضاءك. قم انظر إلى ابنك هورس ملك الآلهة والناس. إنه يقيم الطقوس من أجلك؛ فثوب ينشدك ويدعوك بتراتيله، وأبناء هورس يحرسون جثمانك، وروحك تؤدي لها طقوسها كل يوم؛ إذ يجيء الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك. عد إلى أختك يا أميرنا يا مليكنا ولا تبتعد عنا».

وأمسك نجي أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن إيزيس، فقال الشاب: ما أشبه نواح إيزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم! أوليس حل الشعور ودق الصدور والصراخ الذي يشق عنان السماء من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن؟ أفترانا مع تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التي قطنت الوادي خاضعين لحكم ما أنبت الوادي من عقائد وعادات وتقاليد؟

قال الذي دعانا إلى الشاي: وما طقوس الحزن إلى جانب ما نزال نؤمن به على أنه دين القبط أو المسلمين، وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين! روى هيرودوتس أن الرجال في غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن على حين يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى، وذلك ما نصنع اليوم، وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفي دورهم؛ وما يزال ذلك شأن مزارعينا، وأنهم دون غير يختتنون أبناءهم، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان، وذكر غير هيرودوتس طقوسًا كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء، وفي ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضًا، بل يضاف بعضها إلى بعض، وأن كثيرًا مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم إنما هو بقايا متخلفة من أديان قديمة هي في النفس الإنسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة في الصخور، والتي لا يسهل لذلك زوالها.

«وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تتمة لحديث إيزيس وبعثًا لأوزوريس ما يعيد إلى ذهنك كثيرًا غير ما ذكرت من عادات أهل الجيل وعقائدهم».

اتجهت الأنظار إلى نجيِّ أبيس، كأنما يريد كلٌّ أن يعرف ما لا يزال في نفسه من آثار الفراعنة العظام، واستطرد هو في حديثه: ولما أدت إيزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفتيس وبالآلهة، فتلوا من الأدعية والأوراد لروح أوزوريس ما كفى لعودها

إلى جسمه تمهيدًا لبعثه، وهنا تختلف رواية البعث: فمن قائل إنه كان بعثًا زراعيًّا، ومن قائل إنه كان حيوانيًّا، والذين يذكرون البعث الزراعي يرون أنّ الجثة حملت بعد الأوراد والأدعية إلى شجرة جميز ووضعت خلال ورقها، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام إلى حياة خالدة تحياها في السماء، والذين يذكرون البعث الحيواني يرون أن الجثة وضعتْ بعد الأوراد والأدعية في صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك، ثم تم بعثها إلى الخلد.

«ثم عاد أوزوريس من العالم الآخر يومًا وسأل ابنه هورس عن أجمل الأعمال في نظره، فكان جواب الإله الشاب: أن يثأر لأبيه وأمه ممن أساء إليهما، وأعلن الحرب على إله الشر، وكانت بينهما موقعة دامت أيامًا، وانتهت بهزيمة الشر، ووقوع تيفون أسيرًا في يد إيزيس. لكنها بدلًا من أن تقضي عليه أو تسجنه أطلقت إساره، وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك».

هنا تدخل الأشيب معترضًا: يا لهورس من ساذج! أحسب أمه نسيت يوم خدعها الظلام، وألقى بها في أحضان تيفون فأخصبها! فهل تراها وهي إلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر، منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل وحسنات؟!

وعجبنا لضلال الأشيب بعد سحر الفاتنة إياه، واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء:

> انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه، فغضب لذلك الإله هرفس، وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الإلهة هاتور رمز إيزيس نفسها، ويذهب القصاص إلى أن هورس ازداد لذلك غضبًا فقطع رأس أمه. لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليوناني فلوطرخوس، وهو يذهب إلى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصرًا حاسمًا، وصارت إيزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير، ولعلهما ارتقيا بعد ذلك إلى السماء راضيين.

«هذا حديث إيزيس في مصر، أما حديثها في اليونان وروما …

هنا أشار الأشيب من جديد معترضًا: أمسك بربك وحق أبيس هنيهة. ألا ترون إلى ذلك الزورق المرخاة سدوله من حوله؟ اقصد بنا إليه يا ريس. إني لأتحسس فيه همسًا من نجوى الهوى لا أشك معه في أنه معبد سيدتنا سميراميس، وهذا هو يتجه صوب ذهبية صديقنا الخليل. فإذا صدق ظني فما قولكم في أن نسبق السيدات والسادة إليها حتى لا يحسب أحد منهم أنا تأثرناهم لغاية؟

وبدا على حديث الأشيب من الجد الذي تلهب به الزهرة دماء عبادها ما ردَّنا عن مخالفته، وردَّنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية الفاتنة من جديد، فأشرنا إلى الريس أن يقترب من الزورق المرخاة سدوله. فأخبرنا هو أنه حقًّا الزورق الذي استقله السيدات والسادة، واستحثه الأشيب كي يسبقهم إلى الذهبية، وألفينا الخليل واقفًا على ظهرها كأنما ينتظر أحدًا. فلما رآنا سابحين نحوه أشار إلينا مناديًا: تقدموا فشاركوني في ليلة ساهرة هي جديرة بمثلكم ظرفًا وأدبًا.

ولما رآنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا، وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه، وكانت ليلة ساهرة أرخى كثيرون فيها لأنفسهم العنان، وإن أبى نجيَّ أبيس إلا أن يتم حديث إيزيس في مصر وروما واليونان.

راعية هاتور

صعدنا إذن إلى ذهبية صديقنا الخليل، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس إليها، وألقت الفاتنة على الأشيب نظرةً معسولة ردت إليه صوابه، وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها باسمًا قرير العين، وتقدمهم إلى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة، وأدرت طرفي فيما حولي فألفيت مقصفًا بلغ من الكمال أن كان بشيرًا بليلة قَصَفٍ تثير في النفس أحلى المنى، وأخذنا من السيدات والسادة مجلسًا كمجلسنا منهم في الفندق، ثم كنا معهم أقل كلفة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم، وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمة: هل نسى من تاريخ الآشوريين حديثًا أو خبرًا، وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أبًا عن جد حتى لا يتميز الإفرنج عنهم في قليل ولا كثير، وحتى صارت عربيتهم إلى العجمة أو كادت، وبينا نحن نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق، وآخرون جاءوا من ناحية الشاطئ، ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخر رقًا والثالث عودًا والرابع كمنجًا، وعرفنا في العواد مغنيًا رقيقًا تعرفه مجامع الأصدقاء ولا يعرف المحافل العامة، وفي أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة ودل، هن الساقيات الراقصات المحييات في لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار، ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية في عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعًا غلالة رقيقة من ضياء فضي وهواء عذب يحمل معه قرًّا، وفي مثل هذا العالم يتسرب إلى النفس إحساس الرضا والمسرة، وتجري في العروق آمال حلوة مبهمة، ويستشعر الإنسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعيم، ويزيد في هذه الأحاسيس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات، والحق أنك كنت ترى الأشيب قد ملكه كل شبابه، فضحكت عيناه وافتر ثغره ونضح بالبشر محياه، ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها إلا لترتد إلى

قرارة نفسه تزيده ذوقًا لسعادته ونعيمه. أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر في مكان، بل كان دائم الانتقال يحيي من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف، ويتبرع بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنى، وأما نجيٍّ أبيس فجلس إلى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون، وفيما هم في سمرهم دلف إليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح. قال صاحب السيدات والسادة محدثًا الخليل ومشيرًا إلى نجيٍّ أبيس: لقد كان صاحبنا وإخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة. فليتنا عرفنا شيئًا من أمر حديثهم قبل اليوم، فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية، أو ليتنا يتاح لنا ذلك في وقت قريب.

قال الخليل: ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية؟ إن لدينا في هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها إن شئتم معبد الكرنك، أو إن شئتم قصر الفرعون، أو ما تشاءون من صور حياة آبائنا الأقدمين، وبين أولئك الفتيات اللاتي حضرن من تمتّ بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد آمون بأمتن نسب، وإليها يرجع الفضل في عدة الذهبية، كما يرجع إليها الفضل في غرام تأصل في نفسي بكل حياتنا المصرية، وسترون أنا لن نجد نصبًا في إعداد ذهبيتنا إلا ما يجد معد المسارح في تهيئتها لرواية جديدة.

قال الخليل هذا وأجال بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية، ثم نادى: إليَّ يا راعية هاتور.

– لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين! هل لنا في ليلة فرعونية؟ وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى؛ إذ أقبلت إلينا تشق موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحور وذات قسامة تعيد إلى النفس صورة الفرعونة نفرتيتي ورأسها الساحر، وألقى نداء الخليل وجواب الفتاة وإقبالها صمتًا خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء، واستقبلت الفتاة القمر في طريقها إلينا؛ فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة الفراعنة رقة وسحرًا، وتلفت الأشيب إلى ناحيتها مع من تلفتوا، ودارت حدقتاه معها في بطء دلّ على ذوقه جمالها، وأدرت ناظري لمحة فإذا فاتنة سميراميس تحدج الأشيب والراعية، وكأنما دب من الغيرة إلى نفسها ما دعاها إلى أن تلفت غيرها عن هذا المفتون بها، حتى لتخشى أن تفتنه عنها، والصمت مخيم، والفتاة تقبل، والأعين مشدودة إليها، والخليل يفكر في الليلة الفرعونية، ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت الفتيات والنساء حديثهن وتهاتفهن

كأشهى ما يستطعن ليصرفن الأنظار من جديد إليهن، ولكي لا يحسب أحد من الرجال أنهن أقل من تلك الراعية سلطانًا. قالت إحداهن: ما أعظم سرور الراعية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية! فهي لا تتقن رقصًا كالذي تقوم به في دورها هذا، وأكبر الحظ في إتقانها إياه أن ملابسه تخلع عليها شيئًا من الجمال.

وأجابت جارة لها: يجب أن نحمد للخليل على كل حال. فالضيف أسير الحليّ.

وأردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلّت خلالها ثناياها الحلوة العذاب فأمتعت النظر، كما أمتع صوتها السمع، واستعاد هذا وذاك التفات من حولهما، كما استعادت غيرهما التفات من حولهن.

وتداول الخليل والراعية وجيرانهما فيما يصنعون، ونادى هو بالخدم وسار معهم خلفها إلى الطابق الأسفل، ثم إذا بها يصعدون من جديد وإذا ستور تمد، وإذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعوني مشيد، وترى خلال جدر هذا القصر عمدًا تذهب إلى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من ناحية، كما ظل يطل من الناحية الأخرى على النيل ورياضه النضرة، ودعانا الخليل أن نهبط وراءه، وأشار إلينا جميعًا أن ندخل إلى غرفة الذهبية كي يلبس كل منا الرداء الفرعوني الذي يصادفه، وعدنا إلى القصر المطل على الكرنك، فإذا الحاضر الذي عرفنا يختفي، وإذا عصر سلف يبعث، وإذا الحفدة تتقمصهم أرواح الأجداد وإن ظلوا في ريعان الفتوة وإهاب الشباب، وجلسنا إلى موائد ألقي عليها بنسيج العصور الغابرة أيضًا، ومدت عليها ألوان الشراب في أباريق من فضة، وبقي صدر المكان خاليًا تخطر فيه أوانس زانتهن راعية هاتور وقد اتشحت بثوب أبيض انعقدت أطرافه بين ثدييها في صورة الوردة، وظل باديًا من خلاله تخطيط جسمها، ولبست على رأسها شارة إيزيس قرص الشمس مقتعدًا قرني هاتور، وأمسكت بيدها مفتاح الحياة، واحتذت حذاء راقصة شد إلى رجليها بسيور من فضة، ودار الخدم يصبون الشراب في أكواب من بللور صنعت على صورة زهرة اللوتس، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها صندوقًا صغيرًا على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطائه مومياؤه، وجعلت الفتاة تكشف عنها كلما وقفت إلى مائدة فرغ الخدم من صب الشراب في أكوابها للمحتسبين.

قال الأشيب وقد لبس لباس الراهب: ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها إلى التفكير! فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع مسرة وطرب؟ وما لهم يذكرون الناس وهم في ذرا نعمة الحياة بمصير الحياة

المخيف المزعج، بهذا الفناء فاغرًا فاه يبتلع فيه إلى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة إلى ناحيته؟! أو ما كان خيرًا لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة؟

وسمع نجيّ أبيس سؤال الأشيب، فأسرع إلى جوابه خيفة أن تظل حكمة الأجداد خافية على الحفدة، أو أن يحسب أحد أنهم في كال حضارتهم كانوا يعرفون الفزع أو يهابونه، قال: إن أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف إلى تفكير؛ فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون إلى مثلها، فلنغنم كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهدًا فيه وطمأنينة إلى خلد السكينة الأبدية، وهذا معنى تناوله الناس جميعًا في شعرهم ونثرهم، وتناوله الندامى في أسمارهم. بل لقد أحسب أنه كان لا بد أن سيدور بخلدنا لو لم تنبهنا الصورة الفرعونية إليه.

«على أني أرتاب في أن يكون هذا المعنى هو ما قصد إليه الفراعنة؛ ذلك بأن عقائدهم تنفر منه، وتدلنا على أنهم كانوا يقصدون إلى خير من هذا الخاطر الذي يرد إلى أذهان أبناء اليوم. فهم كانوا لا يرون الموت آخر مراتب الحياة، ولا يحسبون الإنسان يحرم متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها. بل إنه ليجد في العالم الآخر مثل متاعه معنا أو خيرًا منه ما بقي جسمه مصونًا من التحلل مستعدًا لأن تعود إليه الروح الشقيقة، وهذا سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور، وهو سر وضعهم أدوات المتاع في قصور القبور. أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون، فتعود إلى المومياء التي حفظها التحنيط، فتسمح لها أن تلذ بمتاع كمتاعها في الدنيا من غير حاجة إلى أكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع، وهي تبقى في خلدها وتبقى أسباب نعمة الحياة إلى جانبها مستمتعة بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن. فلينهل الناس في الحياة كل ورد النعيم، فلن يزيدهم ذلك إلا إمعانًا في المتاع بهذا النعيم بعد الحياة.

قال الأشيب: حكمة بالغة وحق إيزيس. إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها، ولم لا؟ ألسنا دائمًا نعيش على ميراث الماضي، وغدًا هو ابن اليوم، ومشيبنا ذكرى شبابنا؟ فليس إذن عجبًا يوم نذر الحياة أن نظل نحياها وإن على صورة أخرى.

وبينا كان السقاة يصبون الشراب وكان الأشيب ونجيُّ أبيس يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها. استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا طقوس عبادة إيزيس، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف

الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم، واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدءوا يوقعون أنغامًا أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون. فقد كانت بعيدة، بعيدة، هذه الأنغام، وكانت تزداد حينًا بعدًا، ثم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد، وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذي مد رواقه على المكان مهابة ورهبة، وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس الحاضرين جميعًا قداسة دينية. هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئًا فشيئًا مقتربًا بذلك منا، وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات ورهبانًا، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان، وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة في النفس قداسة المعاني الإنسانية جميعًا وفي مقدمتها معاني الخصب والإنتاج.

وتقارب الصفان، فإذا الأشيب إلى جانب فاتنة سميراميس، وإذا هو لذلك أشد إيمانًا بإيزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له في معرفة الفاتنة إياه فضل، وتباعد الصفان وختمت التراتيل، وتابعت الموسيقى أنغامها شجية في استسلام وحنان، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصًا دينيًّا، مقدسًا هو أيضًا، بدت قداسته على أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها في دعاء واستغفار، وخطرت في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قوامًا لدنا يتثنى في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها، وكان كافيًا أن تقف الراعية؛ لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالًا. لكن خطراتها بين صفي الراهبات والرهبان على أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع إلى النفوس أقدس معاني العبادة والإذعان، وأولئك الفتيات اللواتي نفسن على الراعية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين نهبًا إياها بنظرات الإعجاب والإكبار، أليس لكل امرأة ما تسحر به الرجال؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها لتنال هي أيضًا من إكبار ما لديها ما يزيد الرجال سحرًا وافتتانًا! …

وبقينا في عباتنا هذه زمنًا ولّت الراعية وجهها أثناءه صوب المعبد، فإذا صوت ذلك العواد يرتفع منشدًا في نغمة كنيسة بنشيد إيزيس يختم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل، وعاد الرهبان والراهبات إلى موائدهم، وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم غادة المومياء، واكتملت حلقتنا وحلقة أخواتنا السيدات والسادة عدا صديقنا الشاب الذي بلغ من عبادته مبلغ الذهول، وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقيل له من ذهوله إلا أن

تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعًا. أما نجيٌّ أبيس فقد وجد في الحفل الفرعوني المحيط به ما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث عن إيزيس وعباتها وأعيادها، قال: ها نحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس في ساعة متأخرة من الليل، مع أن عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهرًا ولا قصفًا. بل كانوا يذهبون إلى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الإمام الأعظم رواقي الطلعة حليق الرأس والذقن مرتديًا ثوبًا من التيل الأبيض بسيطًا كل البساطة، وكان هذا الإمام الأعظم يقضي حياته ناسكًا لا هم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبإدمان التفكير في القدسيات وبتعليمها، وكانت أولى المراتب بعد الإمام مراتب الأنبياء المقربين إلى الآلهة المحدثين عنهم والمتحدثين إليهم. أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتماثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة نصفها أسود والنصف الآخر أبيض لامع، للدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات، وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثيابًا أكثر بساطة من ثوب الإمام الأعظم، تبقى بادية من خلالها أذرعهم وصدورهم ورءوسهم الحليقة. أما الراهبات فكن يلبسن معاطف تنعقد أطرافها على صدورهن كما صنعت راعية هاتور، تحمل كل منهن في إحدى يديها وعاء فيه الماء الطهور وفي الأخرى «السستر» آلة القدماء الموسيقية، يهزونها ليوقظ صوتها الكائنات من سباتها. فإذا جاء عباد إيزيس إلى قدسها ووجبت الصلاة صعد الإمام الأعظم الدرج إلى تمثالها، فأزاح عنه ستوره، فظهرت باهرة في وقفتها بما عليها من حلي الجوهر الوضاء، تمسك بإحدى يديها مفتاح الحياة وبالأخرى الماء الطهور، وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويملسون به على الأتقياء، ثم يوقدون النار لتحرق ما في المكان من شر. فإذا طهر كل ما في المعبد دعا الإمام الأعظم الآلهة فلبت الدعاء. فقدم لها عبادها ما شاءوا من قرابين وضحايا.

«فإذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة ثالثة هي صلاة ختام اليوم يسدل الإمام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن في لباس الليل حتى صلاة الفجر.

«أما أعياد إيزيس فكانت تقام في أول الربيع وفي أول الخريف، وكانت غاية في البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس. ففي الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعوني) كان الرهبان يلبسون على رءوسهم صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون، ويذهبون إلى

معبد إيزيس فيمثلون أمام الشعب المأساة الإلهية الفاجعة، يقهر فيها الشر الخير، وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سخت، لتنتهي إلى بعث الخير من جديد دون أن يقهر الشر أو يقصى عن الأرض.

كان الخليل قد جاء إلى جمعنا يحيينا مستصحبًا صديقنا الشاب معه حين كان نجيٌّ أبيس في ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس. فلما سمع عبارة النجيِّ الأخيرة أراد مشاركتنا في الحديث فقال: ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة القدماء! أفحق أن إيزيس وأوزوريس وجماعتهما كانوا الخير والشر والصلاح وما إلى ذلك من صفات؟ أم كان تيفون البحر، وأوزوريس النيل، وإيزيس الأرض وخصبها، وهورس النبات الذي تمخض عنه ذلك الخصب؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر كانت في الماضي يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد في جبالها ومناجمها أصداف وآثار حيوانات بحرية، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميه البحر إلى الوراء فأخصب الأرض وأثمرها. أم لهذه الآلهة معان فلكية، فتيفون هو الشمس المحرقة، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر مخصب يثمّر الحيوان والأرض في حين تحرق الشمس الحرث والنسل، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذي أوقد للشمس نارها ولظاها، حين تبعث مياه الينابيع والأنهر أغنياتها إلى القمر وضيائه. أم أن أوزوريس هو النهار، وتيفون الليل، وإيزيس القمر وهورس الشمس؟ أم هذه كلها صفات الربوبية تجتمع للآلهة متعددين، وهي بعض صفات الإله الأعلى ذي الجلال؟!

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب: والأرباب جميعًا! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان. فأرباب من الحيوان؛ لأن في الحيوان للناس خيرًا ومتاعًا، وأرباب هم علم النصر وغلب الأعداء؛ لأن في النصر احتفاظًا بكل ما في الحياة من نعمة وحرية، وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة وأطوارها، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح في الحياة، وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن أجدادنا ثم آمن آباؤنا، واليوم وقد سخر الإنسان لنعمته غير الحيوان، وراض من قوى الطبيعة الكهربا والجو والأثير، وراض هذه وغيرها من طريق العلم، فهو يؤمن بالعلم وبها، وهو في مظاهر إيمانه جميعًا إنما يبحث عن مكانة بين كل ما في الوجود تحفظ عليه الحياة في أنعم صورها المادية والذهنية والروحية، وليست سليقة الحيوان وفطرته في الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذي

يتناوله إيمان الإنسان؛ ذلك بأنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة في خير صورها. فمن الحق إذن أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان.

كانت فاتنة سميراميس قد ألقت السمع أول ما حدث نجيّ أبيس عن إيزيس وعبادتها وأعيادها. فلما رأته بعيدًا عن مثل حديث سميراميس وجمالها، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والإيمان، شاحت عنا بوجهها، كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقاتٍ لا تغني. أحس الأشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا في الحديث ولا أعارنا سمعه بل اندفع يهمس في أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله. فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساقي ليملأها. فأشار إليه الأشيب، وسرعان ما حضر تتبعه غادة المومياء. فلما فاض الرغاء على حافات أكواب اللوتس قال الأشيب: إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها. فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهي، ولنذكر إيزيس بوصفها جميلة يبهر جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف، ولا نضيع هذه الفرصة السعيدة في قصص الأساطير وفلسفة الإيمان، وإذن هات يا نجيَّ الآلهة حديث الجمال وسحره.

وكانت من الشاب أثناء حديث الأشيب التفاتة فإذا راعية هاتور مقبلة، فأسرع إليها وارتمى عند قدميها قائلًا: صدق صاحبنا الأشيب. لا خير في قصص الأساطير ولا في فلسفة الإيمان، وإنما الخير كل الخير في الجمال وحديثه، وطلعتك ومشيتك وحديثك أدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال، بل هو أنغام موسيقاه القدسية الساحرة. بالله يا نجيَّ الآلهة إلا ما ذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة فيزداد ضياء وإشراقًا، وحق عليك وأنت نجيّ العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة.

قال النجيُّ ملبيًا دعوة الصاحبين جميعًا: لا تحسب يا صاح أن الرمز بالبقرة لهاتور معناه أن هاتور كانت بقرة بالفعل، وإنما كان ذلك رمزًا إلى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت ككل ربات الخصب ربة الجمال. بل هي في رأي أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة. هي من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان، وأفروديت عند اليونان، وسميراميس عند آشور، وحجتهم في هذا أن اسم هاتور معناه بيت هورس، فهي إذن من هورس ما كانت إيزيس في أمومتها له. بل إن بعض المؤرخين ليرون أن هاتور أقرب في نسبها لآلهة السماء من إيزيس نفسها أن كان الجمال مصدر الخصب والخلق، ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا، فيراها أقدم

الآلهة ومنبع الحياة، بل يراها إلاهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير؛ لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها، وكانوا يقرنونها إلى الآلهة جميعًا في كل المعابد، على أنها في كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرته، اللدن قوامه، الثابتة أردافه وسيقانه، كما كانت إلاهة الزينة والتحلي، ولذلك كانت في كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقًا هي أطواق الحب، ولابسة من الحلي عقودًا وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهرًا.

وأمسك النجيُّ برهة، فإذا الأشيب قد تحركت نفسه إلى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاي، فقال: هاتور في مصر، وأفروديت في الإغريق، والزهرة في روما، وسميراميس في آشور، كل أولئك كن في الإنسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة. فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزًا؟ وهل مصدر لإلهام الشاعر ووحي المفكر وفن الفنان ولكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة؟ وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ما سواه من صفاتها.

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها إلى جانب الخليل، وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه إلى جانبها والخليل محنق لذلك يكاد يتميز من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلها ويرعاها. على أنه إذا رأى الشاب يدنو من الراعية يهمس في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه: لا يملك الشراب يا صاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخمورًا، ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب، فأراد ألا يلاحظ أحد على وجهه تغيرًا، فاندفع معقبًا على حديث الأشيب: هاتور والزهرة وأفروديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير، وإيزيس في مصر كانت هي عشتروت في فينيقية وقبرص، وكانت هي سيرس في روما، وتوت المصري هو المريخ اليوناني. هكذا أذكر أني سمعت. أوليس هذا دليلًا على اتفاق الناس في تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم في طرائق النظر لما في الوجود؟ بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال إيزيس إلى جبيل بالشام باحثة عن جثة أوزوريس أن عبادة هذه الإلهة انتقلت معها إلى فينقية وقبرص، وأنها انتقلت من هناك إلى اليونان ثم إلى روما؛ فكان هذا سبب تشابه الأساطير حول البحيرة الكبيرة التي أسموها بحر الروم ونسميها البحر الأبيض المتوسط، وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر، فها نحن أولاء اليوم لا نعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو في الشعر ولا ظل لها من الحقيقة. مع أنها كانت تمثل الحقيقة الثابتة في تلك العصور. أو لو بعث ميت من أبناء

العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أتراه يشك في أن هذه الستور التي تمثل الكرنك وعمده وتمثايله إنما هي تماثيل وعمد من حجر، وأنه في طيبة لا بين أحضان القاهرة؛ وفي مكان هذه الأوهام التي كانت حقائق أهل تلك الأجيال أقمنا نحن حقائقنا؛ لتكون أوهامًا عند أجيال تخلفنا، وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة؛ لأن هذه الصورة هي التي تكفل طمأنينته في الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التفاني والتجدد، وإذا صح أن بقي شيء من الإيمان القديم لم يتغير — وهذا ما أشك أكبر الشك فيه — فلن يكون إلا ما يمس حياتنا المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المبهمة في خلد هذه الحياة.

استراح الخليل إلى عود الشاب إلى فلسفته في الإيمان أن صرفته عن الراعية وصرفت عنه الجميلات جميعًا، ولم يعبأ الأشيب بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات والسادة وبالمتاع أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحرًا، وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة إلى شرابه، فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب، ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف، وألفت في حديث الأشيب الشهي ما ملق زينتها وجمالها، زادت عليه عطفًا بأن زادت عليه دلًّا، ولم يصغ إلى حديث الشاب إلا نجيّ أبيس، وإذ رأى فيه تجديفًا سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الأقدمين قال: لا تصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير الإيمان، ولا تحسب أن الناس انتقلوا في بضع ألوف السنين القليلة التي يعرفها التاريخ بمقدار ما رويت. فلو أنك عدت إلى فلسفة الأقدمين وقرنتها إلى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الإيمان والشك والإلحاد يعرفها حكماء الفراعنة والإغريق كما يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته. ثم إنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر ممَّا تسمعه في أساطير الأقدمين وهمًا وخيالًا، وبين هذه المذاهب الفلسفية والأوهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة وما تزال، وإن كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها حبًّا فيها وحرصًا على طمأنينة نفسه إليها، وأنت إذا رجعت إلى رأي حكماء الأقدمين من الفراعنة والآشوريين والإغريق والرومانيين رأيتهم جميعًا يقولون إن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون غاية حياة الحكيم، وكثيرون من المخلصين دلهم إلهامهم على هذه الحقيقة، فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة، ثم لم تغير مباحث العلم ممَّا أذاعوا كثيرًا، وأحسب أن الناس ما داموا أناسًا وما دامت أدواتهم في البحث هي حواسهم، فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وإن اتَّسَعَ ميدانها، وإن عرفوا من أسرارها ما كان معجزًا لهم.

كان أهل القصر الفرعوني بعد نشيد إيزيس قد اطمأنوا إلى مجالسهم، وعكفوا على شرابهم، وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات، وكنت لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيسًا لا تكاد تميزه، فلما دَبَّ ما احتسوا في أكواب اللوتس إلى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكاتٍ رقيقة محتشمة، وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة، وأدَّى هذا إلى زيادة في التعارف والتفاهم، وإلى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر، وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا، فأومأت إلى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا، فإذا به يهمس في أذن العواد، وإذا بفرقة الموسيقى تختفي وراء الستور من جديد، ولفتت هذه الحركة الحاضرين فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثاني من مناظر الليلة الفرعونية، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا ما دوره فيه إلا كما يعلم ما تُخَبِّئُ الحياة من مفاجآت، وإن كان في مفاجآت الحياة ما يفجع، على حين كان الجمع ينتظر في مفاجآت هذه الليلة ما يلذ البصر والسمع.

أفروديت

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل التي انقلبت معبدًا فرعونيًّا قديمًا، وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر الثاني من مناظر هذه الليلة الساحرة، وسادت برهة صمت لم تطل أن حلَّ فعل الشراب عقدة الألسن، وبعث إلى النفوس من معاني الابتهاج ما أعجزها عن السكينة ... وأضاف ضياء القمر الذي ازداد نحولًا ورقة إلى بهجة النفوس هيامًا بالجو السائغ، وهيامًا أكثر منه بِدَلّ الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا، ولبثنا على ذلك برهة لم تطل، ثم إذا بنا نحس بادئ الأمر، ثم نستيقن بعد ذلك أن أصواتًا موسيقية بعيدة تجيء إلينا مبطئة مبطئة، كأنما هي تهبط من سابعة السموات، ووقفت راعية هاتور مبطئة مبطئة هي أيضًا تستقبل هذا الصوت السماوي الهابط إليها مع شعاعة من ضوء القمر. فلما كادت قامتها تنتصب تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها إلى ناحية الصوت، كأنما تستجدي من الآلهة مزيدًا في سعادة الليلة، وفي ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراعية رقصًا قدسيًّا، فلم تترك وسيلة لاسترضاء أهل السماء أو للتأثير فيهم بها، إلا لجأت إليها، وما أحسب أن هذا القوام اللدن المتثني استعطافًا الواهب نفسه للأرباب هبة حلال، إلا نال رضاهم وما يطمع فيه من نعيم. فلم يكد هذا الرقص ينتهي حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع في أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم، وما دامت الآلهة قد بعثت من سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالإذعان لمشيئتها وبالإمعان في الطرب. على أن القوم لم ينتظروا طويلًا ليعرفوا هذه المشيئة؛ فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشدًا: «شكرًا للأرباب، أرباب السماء. قد منحونا غبطة وهناء، فانعموا بالعيش في لج القمر، عاشق القبة الزرقاء وهَّاب الثمر، ثمر العشق لمن جن غرامًا. شكرًا للأرباب ...».

وعلى أنغام هذه الأنشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء إلى رقص الشكر، ومن التثني في ضراعة إلى القفز في مرح، كأنما تريد أن تطير إلى آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقبيلًا، أما الجمع فاندفع يغني: شكرًا للأرباب أرباب السماء، وفي نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالأنغام النسوية المشجية، وإن تميزت هذه الأنغام كما يتميز الماس المركب على الذهب الأبيض، وأمسى القوم في أنشودتهم وفي رقصهم زمنًا، حتى انقلبت الموسيقى مرة ثالثة إلى أنغام ردت النفوس إلى الشعور الديني، وعادت بالمنشدين إلى احترام معنى لباس الرهبان، ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الأول إلى أن يقفوا صفين رهبانًا وراهبات؛ لتخطر بينهما راعية هاتور راقصة رقصًا دينيًّا هو رقص التوبة والاستغفار خرت في ختامه ساجدة وقد علا بالنحيب صوتها، وما كان أشد دهشتنا حين ألفيناها، بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن اتجه كل إلى مقعده يريد أن يعود إليه، ما تزال دمعتها تنهل على وجناتها الخمرية اللون فلما سكن روعها قال الذي دعانا إلى الشاي: كذلك الحياة: ضراعة إلى النعيم فنهل منه فزهد فيه وتوبة عنه. صبًّا يتوثب، وشباب يستمتع، وشيخوخة تخشى وتستغفر. رجاء ما نكاد نحسبه تحقق حتى نراه حلمًا يتطاير. هذا معنى نراه كل يوم بأعيننا، لكنه لا يترك من الأثر في نفوسنا ما كان لدموع الراعية التي أذابت قلوبنا وفتحت على هذا المعنى نظراتنا التي لا ترى كثيرًا مما تقع عليه.

وعادت كل جماعة إلى مكانها، وعاد الأشيب مع السيدات والسادة فجلس إلى جانب فاتنة سميراميس كما كان. أما الشاب فقد ظل على مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها، وإن كره الخليل هذا التحكك الذي أثار من غيرته. على أنه في رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن ينادي السقاة؛ ليدوروا على الجمع بالشراب، وسرعان ما امتلأت الأكواب أترعها السقاة تتبعهم غادة المومياء. فلما عاد القوم إلى شرابهم استصحب الخليل الراعية إلى مجلسنا مع السيدات والسادة آملًا أن ينصرف الشاب إلى حديث غير حديث الهوى، ولم يخطئ الظن، فما كاد يستقر به المقام حتى اتجه إلى ناحية الذي دعانا إلى الشاي قائلًا: حق ما ذكره صديقنا نجيّ العجل المقدس. إن الناس اليوم هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التي يعرفها التاريخ من تفكيرهم. لكنني بإزاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسي، أصحيحٌ أن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضوع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم؟ وهل صحيح أن في الوجود حقيقة مجردة غير هذه الحياة التي نحيا بما فيها من شهوات وأوهام وآمال وبما تنتهي إليه من تفان وتجدد، يهبط بجيل إلى غيابات

الفناء؛ ليطفوا بجيل آخر إلى عالم الشهوات والأوهام والآمال؟ وخير ما في هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن الآن فيه من نعيم كنا ننهل منه، وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن تعود الراعية الساحرة إلى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعًا.

فأسرع الخليل خشية أن يعود الشاب إلى ما يثير غيرته فقال: لقد ذكرتم أن هاتور في مصر هي سميراميس في آشور، وهي أفروديت عند الإغريق، وقد أسمعنا نجيّ أبيس من أمر هاتور حديثًا شهيًّا، فهل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث؟

وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى الشاب وغير الشاب راعية هاتور؛ لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعًا، فلا يضطر أن ينبه أضيافه إلى فضل الراعية وحبه لها في إعداد هذه الليلة لمتاعهم، وأن ينبه الشاب إلى ألا يخرج به الشراب عن صوابه.

وكان الأشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التي صدفت عن صاحبها الأول لنسيانه إياها في شرابه ما جعله يملق جمالها بنظراته دون أن يستطيع قولًا إلا همسًا لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها، لكنه إذ سمع دعوة الخليل إلى قصص حديث أفروديت، وإذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني الحياة محققة على الحياة، فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة إلى مخاطبة صاحبته في شخص إلهة الرغبة؛ لذلك سارع إلى هذا القصص في لهجة مطمئنة تنطوي طمأنينتها على شيء من الإيمان بأفروديت يشبه إيمانه بسميراميس وفاتنتها. قال: ليست إلهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب، بل هي فينيقية من قبرص، ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس. على أن أزيود يذهب إلى أنها نشأت نشأة أخرى. ففي معركة بين الإلهين القديمين أورانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول، فسقطت هذه البقايا المقدسة على لج الموج، فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرص الإلهة الساحرة ذات التاج الذهبي، ويذهب هوميروس إلى أن الإلاهات أعجبن بأفروديت ساعة رأينها، فأنشدن في حضرتها أغنيات المرح، وزُين آذانها بأقراط الذهب، وخلعن عليها ما كن يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات. فلما تمت زينتها خرجن بها إلى الآلهة حافات من حولها. فما كاد الآلهة يرونها حتى هام كل بسحرها، وتحركت فيه لواذع الرغبة، وتقدم يريد منها زوجًا له وزينة لمضجعه الإلهي وكمالًا لربوبيته، وكيف كان لأي منهم سبيل إلى النجاة من سحرها، وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها، وكان يتضوع مع عذاب شذاها سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جميعًا.

«على أن إلهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تنال من رغبة كل إله، وكانت من الكرم والفطنة بما دعاها إلى أن تصل بين الآلهة والناس بأوثق صلة، وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به من كبرياء الآلهة وحرصهم على ألا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم، فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء، وجعلت تخدع الآلهة في الناس والناس في الآلهة، فتدس في مضجع الإله جميلة من بنات حواء، وفي مضجع الإلهة ... جبارًا من بني آدم، وكأنما دفعتها الرغبة آخر الأمر إلى تذوق ما أتاحت لغيرها ذوقه، أو كأنما حنق عليها أبو الآلهة زوس، فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له غيرها من الآلهة؛ لذلك ما لبثت أن رأت أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الأيدا حتى امتلأ جسمها بجماله الساحر سحر جمال الآلهة غرامًا ورغبة. فأسرعت إلى معبدها، وأحاطت بها الشاريت حتى استحمت ثم عطرنها بالعطور الإلهية، وازيّنت ولبست ثيابها النمامة، وخرجت قاصدة سفح الأيدا، حتى إذا رآها أنشيز جنَّ بها ما يجن كل من رآها من الناس والآلهة طرًّا. على أن الخوف ملكه أن تكون إلهة فيصيبه من الاقتراب منها أذى. لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا، وإنها جاءت إليه بأمر أبيها لتصبح له زوجًا، ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبرًا، وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التي صادها، فذهب بها إليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء، ولما أفاق من غشيته وبصر بها وقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها، فتضرع إليها ألا يصيبه ما يصيب من تخالط الإلهات الخالدات من ذهوب الشباب. فطمأنته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين يهدم الناس هدمًا، ثم إنه سيعتاض من هرمه ومن مشيبه أبناء من الآلهة تخلد فيهم قوته. أما هي، أما أفروديت، فسيصيبها من فعلتها معه سخرية الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها. لذلك حذرت أنشيز أن يقول شيئًا أو يفخر بما صنع، وإلا أصابته الصاعقة بإذاعته سرًّا يجب كتمانه.

«وإنما كانت صلة أفروديت بأنشيز عماية ساعة. لكنها أولعت حبًّا بأدونيس، حتى لقد ذهب يومًا للصيد فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحًا مميتًا، وكان هذا المنظر بمرأى من أَفروديت، فطارت إليه ناسية أن تحتذي، فوطئت قدمها شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم، وكان الورد إلى يومئذ أبيض اللون فاحمرَّ لونه من دم أفروديت، وأقامت تبكي محبها زمنًا أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل معاني الوفاء.

«ولأفروديت غير هذا من قصص العبث بالآلهة والناس استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه. على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة إلى الشاب البارع باريس لا يجهلها عالم

بتاريخها. فقد تنافس النسوة الإلاهات الثلاث في الجمال فاحتكمن إلى باريس، وكيف كان له أن يتردد في حكومته بعد الذي تضوع به جمال أفروديت الباهر الفاتن، ولما حكم لها أرادت العبث بمنافستها هيلانة زوج أجا ممنون، فبعثت إلى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها مرتضية الشاب الذي حكم عليها خليلًا لها، وكانت هذه الفعلة سبب حرب طروادة، وفي هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين لصاحبه، فجر الزوج باريس من خوذته. لكن أفروديت أسرعت إلى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فأنقذته وفرت به، وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذي رأت من ضعف خليلها. لكن إلهة الرعد هددتها إن هي فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة، وأرغمتها بذلك على أن تظل في أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضعفه وحنقها على نفسها.

وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعًا إناثًا وذكرانًا، وكذلك حكمت أفروديت آلهة الأولمب كما حكمت الناس بذكاء جمالها الساحر، وحق لكل من منحت أفروديت أن تجلس على عرش الجمال حاكمة على القلوب والأرواح والأفئدة، مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيرًا يستريحون له ويرضون عنه، بل يرغبون فيه أعظم الرغبة».

في هذا الموضع من حديث الأشيب التفت الشاب إليه وعلى شفته بسمة الساخر فقال: تحدث أخي تحدث. هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة والجميلات. حدثنا عن أفروديت إلهة البغي والفجور، وقل لنا بعد ذلك إنها إلهة تستحق العبادة، وأن تقام لها الصلوات، وأن يحرق لها البخور، ولك أن تذكر أكثر من هذا أن الإغريقيين القدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء، والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق، قد شادوا لبغيها ولفجورها من المعابد ما لا أدري أي دافع يدفعك إلى التحدث عنه بكل هذا الإطراء والإعجاب.

أتم الشاب حديثه، فأدار الأشيب إليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها على شفتيه ابتسامة ازدراء وإشفاق، ثم شاح بوجهه وتوجه به إلى نايحة صاحبته الفاتنة، وقال: يخطئ الذين يحسبون أفروديت إلهة البغي والفجور. إنما هي إلهة الخصب، تريد أن تهدي للعالم أجمل ثمرات الحب وأبهاها، ولذلك كان الإغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون لهما من الأبناء في مثل جمال أفروديت وذكائها، وكيف تريد بإلهة الجمال والرغبة ألا تهب من هذه الفضائل لكل مختاريها؟ أو لو ضنّ إله

الحكمة بحكمته على الناس أيبقى مع ذلك جديرًا بالربوبية؟! ولو ضن إله الحصاد أو إله الخصب بالخصب وبالحصاد، وتركا الأرض جرداء قاحلة ليموت الناس جوعًا، أو ليطعموا الزقوم، أيكون أيهما قمينًا بقليل أو بكثير من حب الناس واحترامهم، والناس مطالبون بهما لكل إله؟! فماذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من أفروديت أو من سميراميس أو من كل إلهة من آلهة الجمال والخصب إذا هي اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة، وخلعت من جمالها ومن رغبتها على العالم؛ لتزيد العالم جمالًا، ولتزيد الناس في العالم رغبة؟! ولسميراميس ولأفروديت في العالم رسل من بنات حواء لهن مثل جمال أولئك الآلهة، ويملكن من وحي الرغبة ما كانت الآلهة تملك. أولئك الرسل يباركن العالم ويبعثن إلى جوه شعرًا ونعمة.

وفي هذا الموضع من حديثه زاد توجه الأشيب للفاتنة ولمعت حدقتاه بندى بللهما وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة إليها لتردها إلى حنايا فؤاده، وشعرت هي منه بهذا، فتندت نظراتها هي أيضًا، ونسيت صاحبها العاكف على شرابه فما يسمع مما يدور حوله من الحديث شيئًا، ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه في الراهبات حوله لا يفضل منهن واحدة على أخرى، وبدت من الفاتنة حركة دلّت على حرصها على أن تبدي جمال ذراعيها، كأنما تريد أن تبين عنهما للأشيب المسحور بجمالها لتقول له: هما لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد تطويقهما شيئًا، وتابع الأشيب حديثه، وقد تندى صوته كما تندت حدقتاه فقال: تبارك أولئك الرسل العالم، ويبعثن إلى جوه شعرًا ونعمة، وإذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب، فحسبهن فضلًا أن يوحين لغيرهن من تلك الأوعية حرصًا على أن يثمرن ثمرًا جميلًا. ألستم ترون إلى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذي ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة، وتجاهد أكثر من ذلك لتتنسل نسلًا يخفض من نسبة القبح في العالم ولو اقتصرت رسالة أولئك الرسل من ذوات وحي أفروديت، وعددهن على ما يزال عليه من قلة، على أن ينفحن العالم بثمرات جميلة، ولم يكن المثل الذي تجاهد غير الجميلات ليكون ثمرهن مثله، لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم إلى نواحي الكمال كما تدفع رسالتهن الأفروديتية القدسية اليوم به.

ومع أن الأشيب كان متجهًا بكل حديثه هذا إلى فاتنته فقد افترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بسمات الرضا لسماع قول هذا المفتون بالجمال، ومالت كل منهن عند ختام الحديث إلى ناحية الصاحب الذي يملقها، وكان الخليل قد نسي الشاب ونسي أنه صاحب الليلة، وترك نفسه لعواطفها، وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة. ألم

يكن قد أخذ هو أيضًا من الشراب الحظ الذي ينسي الحكيم قيود الحكمة؟! ثم إنه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كلٌّ في شغل بنفسه وبمن يستلين فؤادها، وكان ذلك كله يحدث في رهبة المعبد الفرعوني الذي ازداد رهبة أن أطفئت رويدًا رويدًا بعد انتهاء المنظر الثاني كل الأنوار الساطعة، فلم تبق إلى جانب شعاعات القمر التي تخترق الستور سوى أضواء مستورة بحجب مختلفة الألوان تزيد جمال كل جميلة وضوحًا، وتخفي ما أحدثه عبث الزمن بالوجوه، فتلبس الكل حلة الشباب.

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة في عذب حديث الأشيب وحلو ثرثرته، ثم أجالت النظر فيما حولها، فإذا بها تجد صاحبها الأول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة، أو كأنما وصلت النشوة من غور نفسه حتى نسي كل ما حوله، فهبط إلى إحدى غرف الذهبية ليتمطى فيها، وأحس الأشيب تغيرًا في بسمات الفاتنة لم يرتب في أن الأسف، على ما حل بهذا الصاحب، كان سببه. لكن هذا التغيير لم يدم إلا قليلًا، وما لبث أن انقلب إلى زيادة في إقبالها عليه وفي صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه، وزاد هذا الرضا في إشراق وجهها، وضحك عينيها، وفتنة ابتسامتها، وضياء كل جمالها ضياء زادته الرغبة ذكاء فضاعفت جماله، وعقد لسان الأشيب إزاء ما رأى. لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر إيضاحًا عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر عنها، وأي كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار القدسية، يمكن أن يعبر عن التفاني في عبادة الجمال والإخلاص الصادق في العبودية لفاتنته! وذلك الإخلاص وهذا التفاني يتضاعفان إذا حلا نفسًا كنفس الأشيب أولعت طوال حياتها بتقوى الله وتورعت عما عند عباده، ولو كان ما عند عباده هو الجمال، وطال بهما الصمت وإن نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتز به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان.

وبعد زمن رفرف فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر، عاود الخليل رجع من واجب المضيف، فإذا به يهيب من جديد بالسقاة وبغادة المومياء، وإذا به ينادي العواد وأصحابه: هلموا يا رفاق فأوقعوا لنا دورًا، ولعل الصحب جميعًا يغتبطون أكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم: «غننا في الشوق أو غن بنا».

وأصلح الموسيقيون آلاتهم، وغنى العواد أنشودة كليوباطرة، وعاودت الجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى، وردد الليل الصامت

على نواسمه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الأوتار وألحان المغني الذي استثار من طرب الحضور واستحسانهم ما زادهم عرفانًا لفضل الخليل. فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانبًا، قال الذي دعانا إلى الشاي: ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباطرة بأن ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون في حياة شعرية لا تقل عن حياة أفروديت كما وصفها لنا صاحبنا؟

قال نجيّ أبيس: كلا، لم يخلع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذي خلعه الإغريق على آلهتهم، وإذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية، فلعلها، من بين ربات عرش مصر وأربابه، الوحيدة التي خرجت على حكمة الأقدمين، ولعل لها من العذر أن لم يكن دم آبائها مصريًّا خالصًا، ولم يكونوا عبادًا مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين. أما التاريخ فلم يحفظ لنا في قصص إيزيس ولا هاتور ولا أية آلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان عن آلهته وإلاهاته، ولعل ذلك يرجع إلى الفرق الكبير بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان. فبينا ما في هذه من جبال وأوية يجعل سماءها عرضة لتغيرات كثيرة تبعث إلى النفوس ألوانًا مختلفة من الشعور والحس، وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون، إذا بمصر ساكنة إلى حياة واحدة هي الحياة على ضفتي النيل في نضرة الوادي الدائمة، تنفرج عنها الصحراوات إلى آفاق الآفاق، وتظلها سماء دائمة الصفو. هذا النوع من العيش أدعى إلى التفكير في القدسيات، وأولها الموت ثم ما بعد الموت، من تلك الحياة الإغريقية التي يُنسي حاضرها مستقبلها، ويجعل أهلها يكبون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب، وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل في الحاضر، وليست حياة باكوس إله الخمر ولا دمتر إلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور. فأما آلهة مصر الفرعونية، فكانت تزين جباههم جميعًا سكينة خلد الوادي المطمئن إلى حاضره طمأنينة تبعث بخياله وبتفكيره إلى المستقبل الرهيب الذي ينتظرنا في الأبدية. هاته السكينة ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة أوزوريس وإيزيس وهاتور من آلهة الخير، وترونها كذلك على جبهة إله الشر نفسه. جباههم جميعًا مطمئنة كجباه المصريين جميعًا، في حين تشتعل في حناياهم نار المستقبل والتفكير فيه، وهذا هو ما دعا الفراعنة الأقدمين إلى أن ينقروا في الصخر قبورهم، وأن يعدوا فيها كل معدات الحياة الأخرى، كي يكفلوا من طمأنينتها ما كفلوا من طمأنينة الدنيا، وهذا هو ما جعل صحاري مصر مأهولة في عصور كثيرة بمعتزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صومًا وصلاة؛ لينالوا الرضا في الحياة الآخرة، وهذا كذلك هو ما جعل مصر مهبطًا لوحي الحكمة أكثر منها مهبطًا لآلهة الشعر وشياطينه.

كان الشراب قد أخذ لب صديقنا الشاب. لكنه كان من قوة الإرادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشي أن يجد الناس في هذه النوازع موضعًا لنقد؛ لذلك ترك المحبين يعودون إلى التناجي بالأسرار، واندفع معقبًا على قول النجي: لست أعتقد أن الفراعنة من أجدادنا قد قصروا أنفسهم على الحكمة وحدها، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التي لا تعنى إلا بالموت وبما بعد الموت فلقد كان لديهم إلى جانب آلهة الخير، آلهة الزينة كهاتور، وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من ألوان الحياة. ثم إن في القليل من القصص الذي قرأنا عنهم شيئًا كثيرًا عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها، ولعلهم كانوا ككل العالم الوثني في حرصه على المتاع بالحاضر، وفي تعلقه به تعلقًا اجتمع له من الحكمة حظ كبير. فنحن إذا نذكر المتاع على أنه أس من أسس الحياة ترانا ننتقل به إلى النظام الفكري الذي ألفناه، والذي نتوهم أن في العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها. فإذا كان المتاع هو هذه الحقيقة وجب التوفر على الحاضر إلى حد الإفراط فيه بما يخرجه عن معنى الخير الصحيح الذي له، إلى النقيض منه ويجعله شرًّا بحتًا. أما هؤلاء الأقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصد في المتاع ما تمليه غريزة الاحتفاظ بالمتاع نفسه. هذه الغريزة التي تدلك في غير منطق ولا تفكير على أن دوام المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إمعان وإدمان؛ بل بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به، كما أنك إنما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعتها كل يوم بالنوم إلى الحد الذي يريح النوم جسمك فيه إلى يقظة جديدة، وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة، على أنهما ضدان متناقضان، فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة، وهما ضدان، وأنت في حاجة إلى الامتناع وإلى المتاع حاجتك إلى النوم وإلى اليقظة، وهذا شأن كل حقيقة إنسانية يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة، أي إنها يجب أن تكون الحياة في كمالها. فأما هذه الأمور التي نسميها حقائق؛ لأنها ترضي منطق العقل وحده فحظها من الحق ضئيل، أو قل إنها ليست من الحق في شيء.

ومضت بعد حديث الشاب برهة صمت أعقبتها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره. ثم عاد التهامس إلى مثل ما كان تكلؤه أفروديت برعايتها، وكان الليل تولى مدبرة أعجازه، وكلما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون إلى حيث يخلعون لباس الرهبان، ثم يستقلون السيارات إلى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر، ولم يكن أحد يدري في أي سيارة جاء، وإنما كان يعود إلى حيث يريد في السيارة التي يدعى إلى العودة فيها.

واعتذرت فاتنة سميراميس لأصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها مضطجع في الذهبية، ولا بد لها من انتظاره. لكنها لم تكد ترى المكان خاليًا إلا من الخليل والراعية، وترى رجال الخليل ينزلون ستور المعبد الفرعوني لتعود الذهبية كما كانت، حتى أشارت إلى الأشيب قائلة في ابتسام: هل لك في أن ترى مطلع الشمس على وجه أبي الهول عند سفح الأهرام؟

ولما أجابها في طرب واغتباط إلى ما أرادت، استأذنا الخليل والراعية، وخلعا لباس العبادة، ثم استقلا سيارة صاح الأشيب بسائقها: هيا بنا إلى الأهرام.

وصاحت الفاتنة: هيا بنا، إلى بيت مِنا.

حُكم الهَوى

كان لنا في قرية ... من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره بمشايخ الفلاحين ومن سواهم من أصحابه وغير أصحابه ومن العظماء وذوي الحاجات، وكنت وجماعة من أصحابي نمضي عنده كل عام أسابيع نطمئن فيها إلى نفوسنا، وننسى فيها متاعب الحياة. فإذا ذهبنا إليه استقبلنا بالبشر والترحاب، ونزلنا منه في رحب وسعة، وقضينا وقتًا بين التنزه في رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التي تقام لمسرتنا، وبين المزارع الواسعة نقطع شاسع مسافاتها سعيًا على الأقدام أو ممتطين متون الجياد، ولقد غرس صاحبنا في مزارعه كثيرًا من الشجر أعان خصب الأرض على نموها وكثرتها، فكانت للسائرين تحتها ظلًا ظليلًا يبعث إلى النفس أنسًا ومسرة، ويقيها حر الشمس أيام القيظ.

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون، على تقدم سنِّ أبيهم، يتمتعون بلذائذ الطفولة ويرتعون في نعمة حريتها، وكان أبوهم يحبهم حب العبادة. فإذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف، ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم، وإذا اقترب أحدهم منه أخذه إليه في تلطف وقبل جبينه النقي وحدق إليه طويلًا، ثم أجلسه على ركبته ومسح شعره، وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد، وكذلك كان غلوه في محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه.

وقد انتقلنا يومًا ونحن عنده من غرف الضيافة إلى فناء رحب؛ لنشهد ملعب خيل اجتمع إليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من فرح كانوا يتسابقون فيه، وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف بجوار أبيه، فرفعه إليه وقبله وأجلسه إلى جانبه، وسرعان ما انتظمت الحلقة فدق الطبل وتقدم إلى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن والساق طويل شعر الذنب ضليع، وراض الفارس جواده، حتى إذا تمكن من تتبع إيقاع

الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح، يترنح ويميل ويدل ويعجب، يرفع رأسه تارة فتمسح أصداغه «كراريت» رأس لجامه، ويتقدم إلى الأمام مسرعًا تارة أخرى فيضيف إلى نغمة المزمار نغمة صريف الأهلة الفضية التي تزين واسع صدره، ثم إذا به كأنه ثمل انتشى فتثنت أسؤقه حتى كاد بطنه الضامر يمسح الأرض، وما هي إلا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة ويسرة في كبر وخيلاء، وإنا لكذلك مأخوذون برقص الجواد؛ إذ أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه، وأجلسه رب الدار إلى جانبه، وقام الابن فوقف مع الأطفال الواقفين، وعاد الجواد يدهش الناس بتمايله وتثنيه، وبدلّه وكبره، وبلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة على إبدائه حين تفتن في لين الحركات، وتثني القد، وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من أنغام الجمال. فلما أتم دوره خرج يتبعه الإعجاب والعطف، ودخل الحلقة جواد أشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره، وما كان أكبر الفرق بينه وبين سلفه! احتاج فارسه إلى أن يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه، وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الأول، وليت هذا الأشهب ما خرج. فإنه لمَّا أمضه السوط ومزق جنبيه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا، ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشيًّا عليه؛ فقام أبوه كالمجنون يجري إليه ليرى ما حل به، وجعل يحدق إليه، فإذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب، فصاح: «يا بني!» صيحة سمعها الناس، وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم في كلمة عزاء لهذا الأب الذاهل يشاركه بها في ألمه بعد إذ دعا هو الناس ليشاركوه في غبطته ومسرته، وأحطنا نحن بصديقنا، ومن بيننا طبيب أراد أن يستخلص الطفل من يد أبيه، فإذا الأب ممسك بابنه حريص عليه تختلج قلبه الزفرات، وتجول في عينه العبرات، حتى كأنما بدا له اليأس منه، فهو يريد أن يعانقه عناقًا أخيرًا طويلًا. ثم ذهبنا إلى دار الضيافة واقتدناه معنا إليها. فلما احتوتنا الدار أدناها أمسك الطبيب يد الطفل ونظر إلى وجهه، وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه، فإذا الطفل يفتح عينيه ويجيلهما في الغرفة، وما يزال به أثر الذهول. فلما رآه أبوه رجع إلى الحياة أخذ يده وقبلها، وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زايل الولد ذهوله، وعاد إلى الحياة، وعاوده تورده الجميل.

بعد أيام وقد انصرف أصدقائي لبعض رياضتهم، ولزمت البيت لبعض شأني، وبقي صديقنا معي يحادثني، أقبل علينا هذا الابن وجلس معنا. فقلت لأبيه في ابتسامة: لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه، ولا أنكر عليك أن أبًا يحب أبناءه حبك لأبنائك جدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك.

فتنهد طويلًا وقال: أي هم وأي شجن رأيت! لقد قضيت طوال السنين وحياتي في شجن وهمّ حتى ابيض شعري وشاب مفرقي. ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت، وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الأبناء الذين ترى. أفتراني بعد ذلك مغاليًا إذا بلغ حبي لهم حد الجنون؟!

لم أفهم كل ما أراد أن يقول. لكنني أدركت أن له في الحب حديثًا طويلًا، وأنه قاسى في سبيله أكثر ما يقاسي الرجل، ثم حصل على من أحب وبنى بها، فأنجبت له هؤلاء الأبناء، فشاقني أن أقف على همه الأول وشجنه الماضي، فقلت: أي هم تريد؟ لعل لك حديثًا لا تضن عليَّ بذكره! قال: إنه يا صاح حديث حياتي، وما ذكرته مرة وذكرت كيف توّج القدر جهادي بالظفر إلا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها، وإنك لصديق وفيّ لا يضن عليه بشيء، فاستمع إليَّ:

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبي، وكان لهذا الجار ابنة أصغر مني بنحو ست سنوات، جمعت الطفولة بيني وبينها برابطة المودة. فلما كساها الشباب بديع حلته أخذت قلبي محاسنها، وفتنني جمالها، وجعلت أختلس اللحظات لأخلو بها أحدثها متعارف القول ومألوف الحديث، وأشعر بكل ما في ذلك من نعمة ومتاع وحياة. ثم أحسست أن لي في نفسها مثل ما لها في نفسي، ففاتحتها حديث الحب، وتعاهدنا على الوفاء.

ومضت سنون وهذا الحب ينمو في نفسينا، ونزداد نحن إحساسًا بعظيم ما له من سلطان علينا، حتى بلغنا من ذلك أن كنا لا نتفارق إلا على موعد للقاء، وأن كنا نقضي ما بين اللقيين في شوق ولهف ما أشدهما! فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار. فهالني الأمر، وأزعجني، وأدخل الهم على نفسي، وكدت أجن من فرط ما بي. ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر. ففتقت لي الحيلة أن أستعين بعجوز تتردد على بيتنا لأستطلع رأي محبوبتي فيما اعتزمت، وجعلت أحابي العجوز بالإحسان، وأمنحها أشياء ضئيلة القيمة ولكنها ذات شأن في نفوس أولئك الريفيات. فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتي في أمري لترى أهي ما تزال مقيمة على عهدي. فلما اطمأننت إلى حرصها على لقياي فكرت مع العجوز في وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها، ولم يكن ذلك عسيرًا على امرأة قضت السنين بريد المحبين، ومستودع سر المشوقين، وكانت لقيانا كل ليلة في فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا في الجامع يصليان الفرضين، ويقومان لله بواجب

الحمد على عظيم نعمته. في هاته الساعة كنا نلتقي فنجدد عهدنا، ونتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التي تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضي. فإذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب، وما كان أمر ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل في اللقاء!

ثم تحادثنا في أمر الزواج كيما ينتهي ما يوجب الفراق. لكن الشعور بأن الحياة الزوجية، وإن أسعدها الإخلاص، تخمد سعير نار الحب الذاكية، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نفاتح أحدًا من أهلنا في أمره، وبقينا قانعين بتلك السويعة بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ما تحويه من سعادة.

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس النعيم، وإنا لجلوس ذات ليلة نتناجى، إذ أقبلت العجوز قبل موعدها مذعورة تنادي بصوت مختنق، مخافة أن يسمع، منذرة بالويل والثبور، قائلة: إن أبا محبوبتي عاد قبل عادته، كأنما كان على علم بما بيننا. فإنه ما لبث بعد أن تخطى عتبة الدار أن سأل عن ابنته وألح في المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون.

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولاني الجمود أترانا سنفتضح؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتي بسببي؟ لا. لا! إني لن أحتمل هذا، ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة.، ولم تمر لحظة حتى ملكتني فكرة اللحاق بأبي ومصاحبته طوعًا أو كرهًا إلى أبيها وخطبتها إليه زوجًا لي، وملازمته حتى يذعن لما أريد، وأخبرت صاحبتي بعزمي، وطلبت إليها أن تبقى حيث هي حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أبيها فتدخل هي إلى الدار خفية حين يكون أبوها مشغولًا بنا عما هو فيه من الهياج.

وهرولت مسرعا إلى أبي وناديته وكان لا يزال في المسجد، فخرج إليَّ، وتبعني من غير تفكير، ومن غير أن يسألني عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رآني عليه من اضطراب؛ لتسوقه كي يتبعني ويقضي طلبتي وغرضي، ولم أجد كبير عناء في إقناعه بالذهاب من فورنا إلى جارنا نخطب إليه ابنته، ودخلنا منظرة الرجل، وبعثنا له بالخبر بقدوم أبي إليه. فما لبث أن جاء متكلفًا البشاشة مطرحًا ما استطاع مظهر الهياج والغضب، وطلب القهوة ورحب بأبي، وإن لم تخف علي نظرات منه كانت تتجه أحيانًا إلي وبها شيء من الحنق، بل من حب الانتقام.

وحضرت القهوة فقمت من حضرتهما تأدبًا، وتلفت ساعة خروجي من المنظرة، فرأيت العجوز تومئ إليّ أن أطمئن، وأزالت حركة العجوز مخاوفي، فجعلت أفكر في أمر

ما سيتم هذه الليلة، وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه. ثم رجعت إلى المنظرة فوجدت أبي وحده، فسألته عن جلية الأمر، فأخبرني أن صديقنا دهش لهذه الخطبة غير المنتظرة، وطلب إليه أن يمهله حتى يدخل إلى أهله فيشاورهم في الأمر لعل لهم فيه رأيًا، وقد علمت من بعد أنه أول ما دخل سأل زوجه: هل جاءت البنت؟

– نعم إنها فرغت من استحمامها وخرجت. أفأنادي بها إليك؟

– إن جارنا يخطبها لابنه. فما رأيك؟ وهل لك علم برأيها في ذلك؟

– ومن لي بأن أعلم، وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة، ودعني أسألها.

فصاح الرجل بغتة: يا فاجرة! من لك بأن تعلمي! أوما عرفت ما بينهما وكيف يلتقيان؟

– كيف يلتقيان! هدئ من رعك يا صاح! إن ابنتك من يوم احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا، فأنى لك بتصيد أخبار كالتي ترميها بها؟!

– كفى كذبًا يا خبيثة، وأدخلي البنت عليَّ لتوها وإلا فإني قاتلها. لن أرضى الخنا تحت سقف يظله الشرف! أين هي؟

فظهرت على الأم سيماء الجد، وقالت بلهجة الحازم القدير: إن لم تهدئ من حدتك فلن تراها، اقتلني إن شئت لكني لن أدعها تدخل على أب طائش الحلم يرمي فتاة طاهرة بأقبح سبة من غير سبب. فأما إن راجعك صوابك، وأعطيت على نفسك موثقًا أن تقابلها ببشر الأب الرزين، فستراها بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك.

فأطرق الرجل ثم خرجت الأم، ولم تك إلا برهة حتى عادت تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها محمر. فلما رآها أبوها كذلك وجم هنيهة احتقن أثناءها الدم في رأسه ثم سألها: إن جارنا يخطبك لابنه فماذا تقولين؟

خفضت الفتاة طرفها حياء، وتولت الأم الجواب: الأمر لك وما كان لبنت أن تراجع أباها أو ترد عليه قولًا …

ثم أشارت لابنتها أن تخرج. فلما قاربت الباب ناداها أبوها مغضبًا: لعلك مرتاحة لهذا الخبر! ألا فاعلمي أن الطلاق يلزمني ثلاثًا إن أتممت هذا الزواج! وأنت أيتها الفاجرة! قومي من وجهي. اخرجا، اخرجا، واعلما أني رقيب عتيد.

ورجع الرجل من حرمه إلينا وهو في هياجه، ولبث زمنًا سكت عنه الغضب فيه، ثم قال لأبي: اسمع يا أخي. ما كنت لأعز عليك شيئًا وإن جل، ولا كنت لأمنع عنك ما طلبت. لكنك تعلم أني حجزت ابنتي بسبب ابنك الذي لا أسميه كي لا أغضبك، ولقد

حلفت اليوم بالطلاق ثلاثًا ألا أزوجها منه، ولن أحنث في يميني، وما لك عندي من الحب والاحترام لن يؤثر فيهما أمر تافه كهذا، لكن بحق هذا الحب الذي بيننا إلا عقلت ابنك عما قد يمس بيتي وما يقيم بيننا ثأرًا لا تمحوه يد الزمان، وفتيات بلدنا كثيرات، وبينهن من يفضلن ابنتي. فما عليك إلا تزويجه من إحداهن، وفي ذلك …

لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتني حمى صحت معها: ألا لعنني الله إن لم أتزوجها! وتعسًا لك أيها الشيخ وللزمان! وخرجت هائمًا على وجهي، وقد تولاني اليأس فأضل صوابي، وضيق العيش أمامي، وجعلني أرى كل ما في الحياة عدوًّا لي، وخُيل إليّ لحظئتذ أن لا بد لي من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتي وانتزاعها من بين أهلها والفرار بها لنقيم معًا دائمًا وإلى الأبد.

وكانت ليلة قرّة، لكن السماء كانت صفوًا، وكان البدر المتألق يبعث في لجة الليل خيوطًا من فضة تنير دجاه بضياء رقيق مطمئن؛ لذلك خشيت، بعد كل ما سكن هواء تلك الساعة روعي إن أنا هممت بتنفيذ عزمي أول الليل، أن يحس الناس بي، وأن يكون الإخفاق نصيبي. فعرجت إلى المسجد، ومكثت فيه ردحًا من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع، وإني لكذلك إذ مر بخاطري أن مباغتة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذي أنوي، ربما أدخل الجزع إلى نفسها، وجعلها تعترض ما أريد؛ لذلك رأيت أن ألجأ إلى العجوز المدبرة أستعين بها، وأتدبر الأمر معها، وألفيتها عند مجاز الدار مكتئبة بائسة. فسألتها عما أصابها وفاتحتها فيما اعتزمته، ومنيتها كبار الأماني. فما زادت جوابًا على ذلك كله أن قالت: قضي الأمر يا مولاي؛ فقد أقفل بابهم في وجهي، فلا أستطيع أن أدخله بعد اليوم.

قلت: واليوم، الآن، هل في طاقتك الوصول إليها، ولو عن طريق الشياطين؟

فأطرقت طويلًا، ثم رفعت رأسها، وقالت: لا سبيل! فلعنتها وخرجت قاصدًا بيت محبوبتي لأتم فعلتي ولو كلفني ذلك ما كلفني. فلما كنت إزاء بيتنا بصر بي أبي فناداني إليه، فأفقت حين سمعت صوته وتوجهت نحوه، فجعل يطمئنني بكلمات رقاق، وصحبني حتى أمسى الليل وغلقت دوني الأبواب، لكن ذلك لم يزدني إلا عزمًا. فخرجت بعد هجعة الناس، وتسلقت جدار جارنا، ووقفت إلى جانب الغرف أتسمع فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت إلى غرفة نومها ونوم أمها، وطرقت الباب، فانتبهت الأم وفتحت، وإذ تبينت وجهي في ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة، ثم أقبلت إليّ ثانية، وأدخلتني إلى الغرفة وأوصدتها، وقالت بصوت تخنقه العبرات: بربك يا بني، ارحم أسرة إن أنت أتممت

ما قدمت له قذفت بها إلى حضيض العار. بربك يا بني! بحق هاته النائمة المهدودة التي نهكها التعب. بحقي أنا وبحق الجوار لا تجن عليها، لا تقتل أباها المسكين. ابنتي تحبك ولكن نفذ القضاء. ارجع وأنت واجد من النسيان خير تعلة، وفي غيرها من تعدلها مرات. ارجع يا بني.

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتًا صلدًا منتظرًا أن تفرغ من خرافتها كي أحتمل فريستي وأذهب بها، وفيما أنا في انتظارها استيقظت الفتاة وحدقت إليّ. فلما تبينتني على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدها، وأقبلت إلي وتعلقت بعنقي وجعلت تبكي، ثم قالت: الوداع …

– كلا! اذهبي معي الآن إلى حيث أريد.

فارتجفت الفتاة ثم تمتمت: رحماك حبيبي بأمي وأبي، ورحمة بي أنا أيضًا. الوداع الآن، ولكنا سنلتقي في المستقبل. بالله إلا ما رجعت أدراجك، وبحق هذه الزيارة لن يكون لغيرك في قلبي مكان ما حييت.

وأغلظت في الأيمان وألحت وبكت، فأخمدت عبراتها عزيمتي، وقبلتها قبلة الوداع، ورجعت أدراجي.

بعد هذا الحادث بأشهر زوَّجها أبوها من أحد أعيان القرى المجاورة، وكانت ليلة عرسها ليلة مأتم عندي. لزمت البيت، وانفردت في غرفة من الغرف، وذرفت الدمع، وتولاني القنوط، وفي الصباح رأيتها خارجة من القرية في هودج، وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس، وساروا جميعًا وفي يد كل منهم نبوته، ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب في الهواء. فلما ابتعدوا رجعت إلى نفسي أفكر والحزن يفيض عني، وإني لكذلك إذ جاء أبي وصديق له. فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذا يرفهان عني، وأكد لي أبي أنه سيزوجني من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتي، ونسيت ما كان بيننا من ماضٍ طويل سعيد.

وصدق أبي وعده. فعقد لي بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد المحيطة بقريتنا، وأقيم لي ولها عرس نادر المثال. فلما حضرت زوجي عندي رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن، فرأيت أن أنسى فيها نفسي، وأجعل منها موضع حبي، وأسدل على ما قبل يومها عندي حجابًا كثيفًا يحول بيننا وبين ماض كان لذيذًا، وكان لي فيه سعادة وهناءة؛ فما مضى انقضى، وليس لي إحيائه أو استعادته سبيل، وعملت لذلك بإخلاص

وجد، ووجدت من زوجي نعم المعين، وكان أكبر ما وجهت إليه عنايتي أن أخلق بيننا في وقت قصير ماضيًا طويلًا فأكثرنا من التروض والأسفار، ووصلنا ليلنا بنهارنا؛ لنظفر بأكبر قسط من السعادة يجب أن نناله، وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة؛ فسرعان ما فهمت مواضع الضعف مني، فاستفادت من فهمها هذا، ونالت بذلك كثيرًا من عطفي وميلي، وجعلتني أعتقد أني سأجد فيها ما ينسيني كل هم وشجن، وبقينا كذلك شهورًا اطمأنت هي فيها، واطمأن كثير من أهلي إلى اندثار كل أثر لمحبوبتي الأولى من نفسي، وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبي، والحق أنه اشتمل نفسي هدوء صادق، وذهب ذلك اليأس القاتل الذي كان آخذًا بتلابيبي إلى ما بعد زواجي، وسكنت كلوم طالما استثارت مني صيحات الحزن والأسى.

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبي وجارنا الخروج معًا إلى الحجاز. فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر، أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين، وكان فيمن أتى مبحبوتي وزوجها، وبقي الناس في هرج الوداع ومرجه أيامًا. فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافران ومعهما جمع غير قليل، فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم. ألا سقيًا لك يا ليلة بروز أبي للحج! لقد جررت عليَّ مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها كاهلي، لكنك توجتها جميعًا بالفوز وختمتها بالسعادة.

كان فيمن خرج إلى خيمة النساء محبوبتي، وفيما أنا أطوف والناس في زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة، فوقفت مبهوتًا أحدق إليها، ورأتني هي أيضًا فبهتت. ثم إذا قوة قاهرة دفعت كل واحد منا نحو صاحبه، فتقاربنا حتى وضعت يدها في يدي من غير أن ينبس أحد منا ببنت شفة. في تلك اللحظة الرهيبة الرغيبة، لحظة اللقيا بعد طول الفراق، في تلك اللحظة الجميلة المهوبة خيم علينا الصمت، وتولانا الذهول ... وبعد زمن خيل إليَّ فيه أن وجودي تلاشى فلم يبق لي من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدي، سمعت ملكي تتمتم وكأنما خنقتها العبرة: هكذا تنسانا!

لولا أن الأرض انشقت، والسماء هدت، والجبال دكت، لكان ذلك أهون وقعًا عليَّ من هذه الكلمة. نعم نسيتها أنا الشقي. فيم عساي أكفر عن ذنبي؟ وأي جواب أردُّ به عليها؟ وبعد لأي قلت: غفرانك صاحبتي! لقد أحييت من نفسي لوعة لا بد لي بعدها من الظفر بك أو الموت في سبيلك، وموعدنا غدًا بعد عودتي من السفر حيث كنا نلتقي في رعاية العجوز.

وتتاركنا ...

تتاركنا وقد نفر من كلومي ما كان قد سكن، وجشأت نفسي وجاشت، وثار وجودي كله، وصرت لا أعي شيئًا مما يدور حولي ولا أبصر إلا موعد الغد، وقضيت ليلة نابغية ملؤها الهم، وقابلت زوجي لبعض شأني، فما وقع نظري عليها حتى رأيت الثعبان الذي نفث سمه في حياتي، ودفعني إلى ارتكاب جريمتي.

ولم يتسع الوقت لأصب عليها جام غضبي، فاختطفت من يدها ما قدمت وأسرعت إلى الباب، فتبعتني تريد أن تعرف ما بي، فزجرتها بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها مني: ارجعي يا لعينة أو أنت طالق!

رجعت هي، وسافرت أنا إلى السويس، وأنزلت أبي الباخرة، وعدت قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معي في العودة، ومن غير أن يعلم أحد بعودتي: وقطعت الطريق بين المحطة وقريتنا واجلًا سالكًا أقرب الطرق رغم ورعورتها ويممت موعدي، فإذا حبيبتي تنتظرني. فلما رأتني بادرت بالسؤال: كيف وجدت عودتك؟ ولعلك كما أحب وتحب!

– نعم يا صديقتي، ولعل مقدمي يسرك، وكيف أنت الآن؟

– كيف أنا؟ ... أواه يا صاحبي لو تعلم! لقد قضيت أيامي منذ تزوجت وأنا أقطع نفسي حسرات من أجلك ... ولكن! ... ما لك أنت وهذا! ... متعك الله بزوجك ومد في أيام سعادتك ... ولله أيام تقضت في هذا المكان حين كان البدر يغمرنا في سابغ لجته، وحين كان يحدونا الميل والعطف إلى أسباب الهناء والنعيم. أتذكر يا صاح تلك الأيام؟ أتذكر عهودنا ومواثيقنا؟ أتذكر مجيء العجوز تنبهنا إلى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود، أتذكر مجيئك إلى أبي تخطبني؟ وهل تذكر تسوّرك دارنا وتعريضك نفسك وإياي للخطر؟ ثم هل تذكر وعدي إياك أن لن يكون لغيرك في قلبي مكان ما حييت؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعارًا. أقسم بحياتك أنت ما حنثت في الوعد، ولن أستطيع أن أحنث فيه ... لكن ... كل شيء يا صاح مضى وانقضى. رحم الله ذلك العهد ويرحمني أنا أيضًا. إنه غفور رحيم.

... وانهدت يهزها البكاء. أما نا فقد صغرت أمام نفسي، وتضاءل في عيني قدري، ورأيتني مجرمًا بائسًا شقيًّا. هذه السيدة أمامي تبلغ من علو النفس هذا المبلغ، ويكون جهادي أنا أن أسدل على ما تذكره الساعة حجابًا كثيفًا، وأنسى مواثيقي وعهدي، وأنسى قلبي وروحي، وأنسى كل ما في الحياة من جميل وعظيم، وأرضى ذلك العيش السخيف الذي ألبسوني! كلا كلا! لا بد من استعادة هذا الماضي ولو ضحيت بالحياة في هذا السبيل.

وصح ذلك العزم مني، فهدأت جأش صاحبتي، وقلت لها: ما نسيانًا لعهد سلف، ولا فتورًا في حب يملأ وجودي، حصل ما تقولين. لكني خشيت أن أنغص عليك عيشًا ربما وجدت فيه الطمأنينة، والآن أفتعدينني إن أنا طلقتك من زوجك أن تكوني لي زوجًا؟

قالت وما تزال العبرة تخنقها وعيناها مغرورقتان بالدمع: وهل رأيتني يا صديقي رجوت في الحياة غير هذا؟

وقضينا ما بقي من الليل في حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب والاستغفار. فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هي إلى المخدع الذي أُعد لها، وقمت أنا إلى المسجد فنلت فيه إغفاءة ما كان أحوجني إليها بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الإحساسات وأقساها، وبعد سفر يوم طويل. فلما خلوت إلى نفسي ساعة الضحى أخذت أفكر في الوسيلة لتنفيذ ما اعتزمت.

عملت جهدي، وأفنيت كل وسائل السلم لإقناع زوجها بتسريحها؛ فكنت كلما ازددت إصرارًا ازداد هو ضنًّا بها وإمساكًا عليها. ثم أصبح الأمر بيننا عنادًا، وصار هو يرى عملي هذا جريمة أنغص بها عيشه، وأفسد عليه حياته، وأجني بها على الفضيلة والمرءوة، وشاركه في رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم علي أن خاطبني مواجهة بأن ما أجترحه أكبر الكبائر.

لم يكن ذلك ليغير من رأيي ولا ليثنيني عن عزمي، بل جاءت محبوبتي إلى بيت أهلها بإشارة مني، وتبدلت وسائل السلم مع زوجها وسائل وعيد وتهديد، ولقد سوَّلت لي يومًا نفسي أن أدس إليه من يقضي عليه، وكنت مقدمًا على هذا لولا أن وقفت هي دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد.

وإنا لفي شغل بتدبير أمرنا إذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التي تقل أبوينا عائدة من الحجاز، فانقلب الفرح مأتمًا، وارتدت النساء ثياب الحداد، وأصابت الفاجعة موضع الألم من نفسي ونفس صاحبتي، وصارت تجمعني وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المشترك.

وانتهى المأتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدي لزوج صاحبتي، وذهبت أفكر في وسيلة أخرى لبلوغ غرضي، وانتهيت إلى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها، وكم تهللت هي حين عرضت عليها هذا الرأي من غير أن تفكر فيما تحتاج إليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما تريد.

على أن هذه المجهودات لم تكن شيئًا أمامي، ودُعي الزوج للمحكمة الشرعية كي يسمع حكمها بأنه طلق زوجته، واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت مني

من العناية واليقظة والجهد ما لا يحيط به خيال إنسان. فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به، ولا كاتبًا في المحكمة إلا رشوته، ولا قاضيًا إلا وصلت إليه، ولقد كاد الملال من هذه الجهود يصل بي إلى اليأس مرات. فلكم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى أن ما وصله غير كافٍ فأراد المزيد! ولكم طلب مني باسم حضرة القاضي فلم أجد حيلة إلى رد طلبه! وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود … ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعني إلى الانتصار لهان عليّ أن أترك كل شيء.

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق؛ فطرت وحملت الخبر إلى صاحبتي وعانقتها عناقًا طويلًا، ولبثنا يومين ثملين بلذة النصر في هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذي يتم فيه زواجنا. لكن تعاقب الأيام دس إلى نفوسنا ما شغل بالنا؛ ذلك أن المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلالًا عند الله؟

هنالك ذهبت إلى زوجها وعرضت عليه جلية الأمر، وقلت له: يا شيخ! لقد أرهقناك من أمرك عسرًا. لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزرًا، وأنت تعلم أنا لم يدفعنا إلى ما عملنا الوقيعة بك أو المس بشرفك، وإنما دفعنا إليه مالًا قبل لنا بدفعه. فهل لك في مثوبة من الله فتنطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضمائرنا؟

فأطرق الرجل طويلًا يفكر، ثم قال: لقد والله حملتماني همًّا طويلًا. أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما، وهي طالق. طالق. طالق …

فشكرت له منته، ورجعت إلى أهلي، وبلغت صاحبتي الخبر، ثم ناديت زوجي، وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون، وقلت: وإني لأخشى بعد زواجي ألا أعدل بينكما، فإن شئت راضية سرحتك سراحًا جميلًا.

وانقضت أشهر وتزوجنا، وكان يوم زواجنا حافلًا جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملي يهنئونني، وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق.

ورزقت من زوجتي أبناء ثلاثة: بنتًا وولدين، وهؤلاء الأبناء هم عندي زينة الحياة بل الحياة. هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذي أنفقه أبوهم السعيد بهم. أفتعجب بعد ذلك مما رأيت من ذهولي حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد؟!

إلى هنا انتهت قصة صاحبي، وهي قصة ألقت للهوى بزمام الحكم حتى في دور القضاء، وقد غادرت صاحبي بعدها، فغادرت رجلًا من السعداء القليلين الذين رأيت في حياتي. غادرته وأنا أغبطه على ما متعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقيم …

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معاشرة أهل بلده، وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة في مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادرًا، وارتسمت على جبينه — الذي كان نقيًّا إلا من آثار الورع والتقى — تجاعيد الهمِّ والألم، أما نظراته التي كانت مملوءة بالإيمان وتنم عن راحة الضمير وسكينة القلب، فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تعاسة قلقة لا تدري أين تستقر. وغارت عيناه، وغاض لونه، وبدا عليه نحول عصبي نكَّره لنفسه ولكل من عرفه. مع ذلك كانت حركاته أكثر بطئًا، وكأنما أمسك الهم الذي أثقله بكل عصب من أعصابه، أو كأنما شَلَّ القلق الذي تولاه سلطان إرادته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل.

طرأ هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن في أولِيَّاتِ الشتاء، وطرأ عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمة، وبعد أن كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى ولي من أولياء الله الصالحين؛ ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل في كمال الخلق وصدق الإيمان وسمو النفس، وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجرًا، فكان يعظهم بعد كل صلاة ويعلمهم ويفقههم في دينهم، وكان سمح النفس سريعًا إلى المواساة، يشاطر الناس سَرَّاءهم وضَرَّاءهم، ويفيض عليهم من إيمانه بلسمًا لجراحات آلامهم وأحزانهم، وكان نساء القرية يجدن في سلطانه على أزواجهن ما يحميهن من عسف هؤلاء الأزواج وما يقف حائلًا دون التلاعب بأيمان الطلاق، وكان خاصة أهل القرية وعامتهم في احترامه وتبجيله سواء. بل لقد كان كثيرون من أكابر القرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضًا عليهم كلما زاروا واحدًا من أعيان بلده، وكذلك كانت حياته وكان عيشه راضيين عنده مرضيين عند الله والناس.

وقد ظل متمتعًا بطمأنينة الإيمان منذ نشأته، فلم يثقله من الهم إلا ما كان منذ ست سنوات حين ماتت زوجته تاركة وحيدتها فاطمة في العاشرة من عمرها. فقد كان يوم ماتت هذه الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس فجيعة وأهولهم جزعًا، جمدت الدموع في عينه، ودب المشيب إلى فوديه، وتجاوبت في قلبه كل أصداء الحزن والألم، ويومئذ سارع الناس من أهل بلده ومن كل البلاد المجاورة إلى تعزيته، ومن اليسير على قلب يملؤه الإيمان أن يتعزى. فهو على شدة جزعه لوقع المصاب لم يلبث أن ذكر أن الله في كل أمر حكمة، وأن تلا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. عند ذلك قشعت حرارة الإيمان سحب الهم، وحمد الشيخ ربه إذ أسبغ عليه نعمة التقى، واستبقى له فاطمة كي يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما في نفسه من حنان وعطف وحب أبوي.

وبعد انقضاء المأتم بقيت في الدار معه أخت له تحبه وتبجله. فلما انقضى الأسبوع الأول فاتحته في أمر زواجه من جديد، وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أي مجهود لإقناعه بضرورة الإسراع إلى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه بين الناس، ويدعوه إليه قلبه المشوق ولا شك إلى ابن له يخلفه ويخلده. ثم إن النساء جميعًا مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطيق عليهن صبرًا أو يستطيع عنهن بعدًا؛ لذلك كانت دهشة أخت الشيخ عظيمة حين بدا منه التردد والإحجام، وكانت بعد ذلك أشد دهشة حين رأته التزم عيش العزوبة قانعًا بهذه البنت التي أبقاها الله له. لكن حبها أخاها وتبجيلها له منعاها من الإمعان في الإلحاح بعد أن أمرها بالكف عن الكلام في أمر زواجه، وجعلاها تدرك ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وتربية فتاته.

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة، ومع صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقة الأنوثة ودماثتها مع شيء من الأنفة في غير كبرياء، ولم يبعث بها أبوها إلى المدرسة ولا إلى الكتاب أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار، وأن حكم الدار حكمًا صالحًا في غير حاجة إلى درس شيء غير ما تتوارثه أجيال النساء خلفًا عن سلف، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من معارف كثيرًا ما تجني على الخلق وعلى الفضيلة التي يجب أن تكون زينة المرأة وحليتها. على أن كثرة معاشرة البنت لأبيها وسماعها ما يفيض من علمه في حديثه العادي فتقا ذكاءها لكثير مما لا يجود به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياف والناس الطيبين فيها، فكانت تعرف شيئًا عن المدن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها، ومن الذوات الذين يزورون هؤلاء

المشايخ ويؤدون لهم فرائض الإجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليها؛ ليشعرها بماله ولها من سمو المكانة ورفيع القدر، وليدخل بذلك إلى نفسها معاني الإباء والكرامة، فتشرف أخلاقها وتعظم نفسها.

وتتابعت الأشهر والسنون، وكل سنة تمر تزيد فاطمة جمالًا وتزيد أباها تعلقًا بها، وكانت الفتاة محبة لجمالها شغوفة به أي شغف؛ لذلك جعلت من مرآة خلفتها أمها خير صدق لها. فكانت لا تمل التحديق إليها بصفحة هذا الجبين النقي المصقول، فوق حواجب نونية واسعة، قوست على عيون دعجاء مملوء بريقهما الندى حياة وأحلامًا، وبأنف دقيق يستوي والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلًا ليرتد عن وجاري منخرين اتسعا لشميم كل ما في الحياة مما يحملهما إليه الحسن والهوى، وليفصل بين خدين ممتلئين في استدارة جميلة، تعلوهما حمرة تنطق بما في الشباب من صحة ورغبة، ثم تذوب في سمرة قمحية جذابة، وكان أشد إعجاب فاطمة بهذا الفم الذي تراه في المرآة كأنه وردة لم تبرز من كمها الأخضر إلا بمقدار ما تنبعث القبلة من بين هذه الشفاه، فتبتسم له مسرورة به راضية عنه، فتنم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض، وعن ثغر تجري مع سلافة ريقه كل ما توحيه سنو فاطمة من أحلام وآمال ورغبات.

على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجه صاحبتها المطل من خلال المرآة المحبوبة، فتزداد به شغفًا وإعجابًا. أما قوامها فكان لدنا غضًّا كأنه قوام ناعمة نؤوم الضحى. ارتفع ثوبها فوق صدر ناهد في غير إغراق، وأخذ بتلابيب خصر ريان في غير بطنة، وكانت ساقاها وقدماها كمال هذا الجمال الشاب المتطلع للحياة بنظرات الأمل الجاهل كل ما في الحياة من غدر ومن ألم.

وكان أبوها ضنينًا بها على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه، فقل أن كان يسمح لها بمغادرة الدار إلا تحت جنح الظلام وفي ستر الليل.

لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ما جعله يتسامح في ذهاب فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمام لها وأخوال هم أكابر أهل البلد والقائمون فيها بالعمدية والمأذونية، وكان يسره أحيانًا أن يعرف منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لا يتاح له الوقوف عليه وهو في عزوبته وفي تقاه.

وكان لها مع بعض أقاربها في البيت الكبير صداقة نشأت منذ الصغر، وخشي أبوها عواقب هذه الصداقة، فأسر إلى أخته أن تحرم عليها ملاقاة أحد من الشبان، وكأن ما كان من فرط حذر عمة فاطمة قد نبه فيها لأول ما كملت لها حياة المرأة معاني نسوية ما كان لتتنبه بهذه السرعة.

وثار وجود الفتاة ثورة لم يفكر عقلها في كبحها؛ إذ كانت ثورة الجمال المهان. فكانت لا تأبى تحيات أكابر أقاربها ممن سمح لها بالجلوس إليهم والتحدث معهم، كما كانت لا تضن بابتسامة عذبة على ذوي الود منهم، وسحر بجمالها غير واحد كان يجد فيه قدس إعجاب وعبادة، وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورون تمليقًا لها وتدليلًا، ولكل ثورة نفسية لا تجد من سلطان العقل ما يكبح جماحها انفجار لا وسيلة لمقاومته إلا إذا استطعت مقاومة انفجار المرجل الثائر جوفه ببخار ما تفتأ النار تزيده ثورانًا. لذلك لم تطل مقاومتها ابن عم لأبيها، له ما لابن عمه من مظاهر التقى، وللناس به من الثقة أن كانوا يأمنونه على أموالهم وأعراضهم.

ومرت أسابيع بدأ فيها على صحة الفتاة من التغير ما أدخل الريبة إلى نفس الشيخ حسن، فحاول بادئ الأمر أن يقنع نفسه بأن ما بابنته من علة لا صلة له بعفافها. لكن للنساء في القرى ألسنًا طوالًا، وما هي إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية رجالًا ونساء، والهمس إذا عم صار حسيسًا، وصار له صوت وكيان، وأحس الأب البائس هذا الصوت، بل رآه رأي العين في نظرات كانت توجه له وفي بعضها من الإشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه ما هو أشد قسوة من نظرات الحقد والكراهية؛ لذلك انقطع عن معاشرة الناس وعن الذهاب إلى المسجد، وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم والألم، واضطربت نظراته، وغارت عيناه وغاض لونه، وضعفت حركته، فكأنما شل الهم أعصابه وأخمد سلطان حركته، حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل.

وكان أول ما قام بنفس الشيخ حسن، حين هزم اليقين منها كل هواجس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية، وأراه رأي العين كل عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها القمحية المتوردة تجري فيه لذائذ الإثم والعار، أن يذهب إليها ويقتحم الباب عليها ويقتلها ويدفن معها عارها وإثمها، ولم يك ذلك منه عن روية أو عن تفكير. بل إن سلطان الوسط، وفطرة الجماعة التي يعيش بينها وقد تكونت على الزمان من عقائد وعادات توارثتها أجيال بعد أجيال، هما اللذان دفعاه إلى ما أراد القيام به؛ لذلك لم يكن في حاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر فيه نتائج فعلته. بل غلا الدم في عروقه، وثار ثائر نفسه، وملكته فطرة القضاء على هذه الأثيمة المجرمة، وتم ذلك كله في أقل من لمح البصر، وهمَّ بالتنفيذ، لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة عاقت حركته، تلك عاطفة الأبوة التي جاش بها قلبه وهزت أعماق وجوده. أتراه يقتل ابنته الوحيدة التي وقف عليها حياته، ووقف على سعادتها وجوده؟ ابنته الوحيدة الباقية

ذِكرًا لزوجته المحبوبة ولأيام سعادته وهناءته؟ ولو قتلَها أتراه يطهر من إثمها ومن عارها؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا إليه نظرات الإشفاق القاتل والحقد البغيض؟

وقف عند الباب برهة زلزلت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة، ثم عاد إلي مخدعه، وارتمى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكأً بعد عوده من الصلاة وحين تسبيحه، وانحط مهدود القوى عاجزًا عن التفكير وعن الإرادة لا يرى شيئًا مما أمامه، ولا يدرك الوقت ومروره، ولا الأشباح التي تبدو من خلال نافذته، وظلَّ في ذهوله حتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغروب، ثم دخلت عليه أخته تسأله: ألا تذهب إلى المسجد لصلاة فرضي المغرب والعشاء؟ وكأنما أزعجه صوتها من حلمه الأليم، فما يدري أيهما أشد لنفسه وخزًا: أهذا الحلم المبهم الذي نهكه، والذي نسى فيه الحياة ونسى الألم، أم هذا الصوت الذي نبهه إلى الحياة وآلامها، وأعاد إلى نفسه ذكر أخته، وذكر ابنته، وذكر عاره الذي لا يمحى!

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباءته وعمامته ومركوبه، وخرج قاصدًا المسجد. لكنه ما لبث حين اقترب منه أن شعر كأن شيئًا يصده عنه. فقد خُيل إليه أنه إذا تخطى بابه فسيحدجه من فيه جميعًا بنظرات الإشفاق أو الازدراء أو الحقد، وستبدو هذه المعاني في حدق تلك العيون المتجهة نحوه واضحة ناطقة تحترم نياط قلبه، وتنفذ إلى أعماق نفسه. فكر راجعًا كأنما يريد العود لداره. لكنه عرج بدافع من وجدانه لا شعور له به، ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير به بين المزارع، وهل في الدار إلا الإثم والعار؟ وهل الدار أقل إيلامًا له من نظرات المصلين؟ وحملته قدماه إلى شاطئ غدير قامت حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضر ثوبًا قائمًا لا يخلو من بهجة، فانعطف والشاطئ حتى بلغ مصلى بعيدًا عن السكة العامرة بالناس والدواب، وهنالك ألقى بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض المصلى، وعاد إلى مثل ما كان فيه في الدار من ذهول.

وظل في ذهوله، حتى إذا اقترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض ربه، وليس من كان مثله في ملك نفسه بل هو في ملك دينه وإيمانه، وهل أصابه إلا ما كتب الله له! وهل كان ما حل به إلا من عند الله، ولله الشكر والحمد على السراء والضراء! فقام فتوضأ وصلى المغرب ثم صلى العشاء، ثم رفع أكف الضراعة إلى الله أن يهديه سواء السبيل.

عاد الرجل إلى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس ونظراتهم، وإن لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام، وذهب إلى غرفته وحاول أن ينام. لكن الهم

والنوم لا يلتقيان في نفس قبل أن يذيبها الهم ويضنيها الألم. فبات يتقلب في مضجعه إلى ما قبيل الفجر، إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام؛ لكنها كانت مع ذلك مسعدة أن جددت له بعض قواه، ومكنته من القيام بعدها مبكرًا؛ ليؤدي الله فرض الصبح، ويستغفر من عظيم ذنبه.

وتعاقبت الأيام بعد ذلك، والرجل يزداد كل يوم نحولًا، وأعصابه تزداد ضعفًا، وقل أن كان يفكر، بل كانت نفسه ميدانًا لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة. فطرة الجماعة تناديه أن لا سبيل للخلاص من العار إلا بالخلاص من ابنته، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتفاعه ليطهر بالدم المراق دنس العار ورجسه.

وفي الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تتغلب عنده على فطرة الجماعة، وكانت تعاوده هزات حنان وإشفاق على نفسه، وكان لا يرى جرمًا في التحدث إلى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نقمة الله، ولتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف؟! في عرض ابنته الوحيدة التي كان يرجوها ملك طهر وعفاف، فأبى القدر القاسي إلا أن تكون شيطان رجس وفسوق!!

وجعل المسكين يفتش في ماضي حياته عما اجترح من إثم ومعصية؛ إذ من المحال أن يقضي عليه أعدل الحاكمين بغيًا بتلك النكبة النكراء، ولم يزعزع من إيمانه أن كان يرى ماضيه طاهرًا نقيًّا، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمارة بالسوء دفعته يومًا إلى كبيرة لم يفطن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيرًا، ولم يدر بخلده لحظة أن رحى القدر الطحون تدور فتخطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وما جنوا إثمًا، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائكة حب ورحمة، وتيتم أبناء من آباء وأمهات كانوا مصدر بر وعطف وحنان لا يفنى، وهي في دورتها وفي طحنها هذه الذرات الإنسانية التافهة في حياة الوجود العظيم ليست أكثر عناية بها منها بحجر أو بنبات أو بحشرة كالنملة أو كالدودة شأنًا، وكيف يدور ذلك بخلده وهو يقيس عدالة السماء التي يؤمن بها بعدالة الأرض التي يعيش عليها، ويتوهم أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الأرض من عقائد وعادات، ومن أوهام وترهات، ومن أباطيل وخرافات.

على أن هذه الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها، والتي كانت تُغلِّب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة في نفسه، لم توجه فكره لحظة نحو ابنته وما قد يكون لها من عذر في إتيان ما أتت. بل صارت أبوته وصار إشفاقه سببًا في عطفه على نفسه ورثائه لحاله. فإذا تخيل فاطمة ارتسمت أمامه صورتها ساعة ثورة معاني الخصب والتخليد في

جسمها الشاب البديع. هنالك يغيض تفكيره، وتتوارى عاطفته، وتلبسه عقائد الجماعة فتملأ وجوده، وتتحكم فيه، وتجعل منه شخصًا مفترسًا يريد أن ينقضَّ على هذا الإثم الذي خرجت به ابنته على شرائع الجماعة ونظمها، والذي يوشك أن يثمر نغلًا لا تعرف الجمعية له أبًا، ولا تطبق عليه قوانين الحضانة والنفقة والميراث. ثم يزيد في حيوانيته وفي افتراسه هذه المئات بل الألوف من العيون التي امتلأ بها الفضاء حوله، والتي تنظر إليه نظرها إلى أبي فاجرة لطمت وجه الطهر والكرامة، وأحلت الشهوات الدنيئة منها محل العفاف والشرف.

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولًا، وأعصابه ضعفًا وفكره ذهولًا، وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فرارًا من هذا العار الذي لحقه، ولكي لا يقتل ابنته فيأثم في حق بارئه بأن يقتل نفسًا حرم الله قتلها إلا بالحق لكن هذه الفكرة انهزمت كما انهزم غيرها من الأفكار، وكان الرجل كلما زاده الهم نحولًا صار أضعف تفكيرًا، وأكثر خضوعًا لفطرة الجماعة، وامتثالًا لها في خلايا ذهنه وفي شعاب قلبه وفي ثنايا نفسه ودخائل فؤاده. عند ذلك بدأت هذه الإرادة التي شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع الانفعال وحده، كما تتحرك إرادة السبع والنمر وكل حيوان مفترس، وبدأت شهوات الرجل تنتبه للطعام وللشراب تقوي فيها هذه الحيوانية التي أخضعت كل قوى الإنسان وحسه وشعوره، وتحكمت فيه فكرة ثابتة كان يؤمن بها ويخضع لها، تلك أن لا سبيل لمحو العار إلا بمحو مصدره، وخلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقًا، وسلحت الرجل بكل وسائل تنفيذها. فهذه البنت الفاجرة لا يمكن أن تكون ابنته وهو التقي الورع القوي الإيمان بالله البعيد عن مواتاة الرذيلة والنقص، ومن يدري! فلعل أمها خانته في غفلة منه، فكانت الأثيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والإثم. بل لا شك عنده في هذه الخيانة التي أورثتها الأم ابنتها؛ فما كان الله ليقتص منها فتموت شابة في قوتها وفي نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية في حق الله. لكن البنت تنسب إليه، وقد أسبغ عليها من نعمة العيش ما كفرت به حين أسلمت نفسها لهذا الإثم فكان من كفرها ما جعل الناس ينظرون إليه هذه النظرات القاتلة.

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة نقية، فذلك مما يزيد في جريمة فاطمة ولا يخف منها. هي زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقًا، وإذا كانت القوانين التي سنها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ في حمأة الشهوات وهم من القصاص بمنجاة، فما كان لمؤمن بالله وشريعته أن يدع الآثام التي حرَّم الله أن ترتكب وهو عنها لاهٍ ولها مطمئن. أو

لم يقل الرسول — عليه السلام —: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطبع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان»، وهذه البنت قد أصبحت منكرًا يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه في أعماق نفسه، فوجب أن يزيله بيده، ويومئذ يكون قد أدى لله وللفضيلة وللأبوة حقًّا مقدسًا، ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يزدرونه اليوم فيرد إليهم ازراءهم، ثم هم يكونون بورعه وتقواه أشد إيمانًا.

وشحذت فكرته الثابتة عزمه، فلم يبقَ إلا أن ينفذه فيزيل هذا المنكر، ويرضي بذلك إيمانه الثابت، ويرضي فطرة الجماعة التي تحكمت فيه، وسواء لديه بعد ذلك ما يكون من حكم شرائع الناس عليه، ولم يرضَ خياله المفترس إلا أن يذبح ابنته ذبحًا، ويشوه وجه البغي تشويهًا، ويقطع أوصالها إربًا إربًا، فلا يبقى بعد ذلك عالقًا بنفسه من إثمها ولا من عارها باقية، وانتظر الشيخ، حتى إذا كان يوم السوق ذهب بنفسه إلى أحد باعة السكاكين، فابتاع سكينًا مرهف الحد لامع النصل متين القبضة وحمله إلى داره، وجلس بقية يومه ينظر إليه ويصور لنفسه الدم يقطر منه، فيبتسم لهذه الصورة، وتبرق عيناه بريقًا شديدًا، ثم يعتريه شيء كأنه المس أو الذهول، فإذا عاد إلى نفسه استعاد منظر الجريمة التي قُدر عليه أن يرتكب، كما قدر على ابنته من قبل أن تخضع لسلطان الهوى، فاغتبط بإثمه اغتباطها يوم سقطتها بإثمها، وشعر بلذة تملأ حواسه حتى لكأن منظر الدم ورائحته وطعمه وصوت تفجر القلب به كان يملأ عينه وأنفه وفمه وأذنه بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

وأرخى الليل سدوله، وسكن كل من في القرية إلى أهله، وذهبت فاطمة إلى مضجعها، وبها من علة الحمل وسقم الهم؛ لما كانت تسمع من عمتها من تقريع وتأنيب ما ذهب بحمرة خدها، وإن لم يذهب بجمالها، ولا بابتسامة خالدة بديعة كانت تطوق ثغرها العذب الساحر، وفيما هي تحتمي بالنوم من علتها وهمها قام أبوها من غرفته وبيده ذلك النصل المرهف، وسار إلى مضجعها بخطوات ثابتة. حتى إذا كان عندها ونظر إلى وجهها شعر كأن قلبه يريد أن يضطرب بنبأة من حنان، فرفع يدًا لم تَخْلُ رغم ثبات جنانه من بعض الرعشة، ثم أغمد النصل بكل قوته في قلب الفتاة التي فتحت عينها تحت أثر الطعنة، فرأت أباها تلمع عيناه بالشرر، ويرتجف جسمه، وتتمتم شفتاه في صوت خفي ولكن بحرارة وقوة: الحمد لله على قضائه!

وأرادت أن تتنصل أو تدافع عن نفسها، لكنه وضع يده اليسرى على فمها، واستل النصل من القلب فانفجر الدم حارًّا قويًّا كله الشباب والحياة، وأحس الرجل أن رشاشًا

منه يصيب وجهه ويده فزاده إقدامًا وافتراسًا، وبيد ثابتة ذهبت عنها كل رعشة وزايلها كل خوف حزَّ الرجل عنق المسكينة التي حاولت أن تتخلص بكل ما فيها من قوة اليأس. لكن أباها كان أشد منها يأسًا، وبعد ما انفصل الرأس عن الجسم لذَّ لهذا المخلوق المفترس أن يشوه ذلك الرأس وذلك الجسم، وما يزال دمهما حارًّا تتفجر به شرايين تلك الضحية التي أرداها الجمال والهوى.

وخرج الرجل بعد جريمته مؤمنًا بأنه أدى فرضًا واجبًا عليه أداؤه؛ لذلك ظل هادئ النفس مطمئنًا. فلما سُئل أمام القضاء لم يتردد في الاعتراف بأنه قتل، ونال من إشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على أمره أن أعفاه وبرأه.

ولم يطل به المقام بعد ذلك في قريته. فقد بدأت بعد أشهر من عودته تنتابه أطوار غريبة. كان ينقطع إلى خلوة في بعض المزارع البعيدة أحيانًا، ثم يعود إلى معاشرة الناس أخرى، فيراه الناس ذاهلًا تارة، هائمًا تارة، وقد ازداد أكثرهم إيمانًا بورعه وبتقواه بعد الذي رأوه عليه من هذه الأعراض، وآمنوا به وليًّا صالحًا، لكن مدة ولايته لم تطل بعد ما اقترن هياجه بالاعتداء على الناس؛ فقد نُقل إلى مستشفى المجاذيب وهو لا يزال إلى اليوم فيه، وإنك لترثى لحاله حين تراه في ساعة سكونه يذرف الدمع سخينًا على ابنته التي قتل، وزوجته التي اتهم، ويضرع إلى الله أن يبعث إلى قلب رجل من الحنان عليه، والبرِّ به، فيورده حتفه، ويضع حدًّا لآلامه …

خاتمة في الأدَب والحضَارة

كنت مشغوفًا بقراءة الأدب العربي القديم وما أزال، ويرجع هذا الشغف إلى أيام كنت طالبًا بالقسم الثانوي، وحين كنت أتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية، وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب، وحفظت عن ظهر قلب ما حبب إلى نفسي مدخله. فلما كنت في السنة الأخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثرًا بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها أقرأ كتبًا في الأدب الإنجليزي وفي الفلسفة الإنجليزية، ككتاب الأبطال لكارليل، والحرية لجون ستوارت مل، والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر. إذ ذاك انفسح أمامي من عوامل التفكير ما لم تمهد إليه مطالعاتي العربية، وسافرت من بعد ذلك إلى باريس، وجعلت أدرس اللغة الفرنسية، وأتصل بأدبها، فأخذ إليه من هواي كأشد ما تأخذ حسناء إليها هوى مغرم بها. فأمعنت في قراءة هذا الأدب، وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التي كانت مقصدي من سفري لنيل إجازة الدكتوراه فيها، ودفعتني هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناي من جمال البيئة المحيطة بي إلى الإعجاب غاية الإعجاب بالحضارة الغربية التي تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية، ولعل أشد ما أعجبني من هذا الأدب روح الثورة الذي يبدو فيه دائم الضرام، وحيوية متوقدة لا تخبو نارها، وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية في كل صور الأدب سواء. فالقصة والأقصوصة والرواية المسرحية وكتب الأدب والفلسفة، تنم كلها عما تضطرم به أرواح كتابها من نشاط دائم لا يستقر ولا يهدأ، وهو كذلك في الكاتب الواحد، وهو أشد من ذلك في الجيل يعقب الجيل. فالشعر الكلاسيك لراسين غيره لكورني، وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان، وشعر معاصرهما موليير في مهازله ومآسيه ثورة عليهما؛ لأنه ثورة على القديم، بل طليعة الثورة على القديم، وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب القرن السابع عشر، والقرن التاسع عشر ينسج في أدبه كما

ينسج في علمه وفلسفته على طرائق هي الثورة على القرنين اللذين سبقاه جميعًا، وفي كل قرن تتطاحن في الأدب مذاهب وتقتتل آراء، وتقوم بين الأدب والعلم، وبين الأدب والفن، وبين الأدب والفلسفة، ثورات لا يهدأ أوارها، وهذا النشاط المتصل، وهذه الثورة الدائمة الضرام، هما خير ما يقنعك بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملًا، فكرة تسبق العمل وتوجهه سبيله، والحياة في هذه الصورة هي الحضارة الحية القوية التي استلهمت الفن والعلم والأدب وألهمتها، فكانت حضارة العلم والفن والأدب، وكان الأدب من العلم والفن هو الصدى الناطق للحالات النفسية التي يعبر عنها الفن، وهو الفن البديع الاتساق الذي يكسو بآياته قواعد العلم روعة وجمالًا.

ومن أشد ما يلفت النظر في هذا الأدب الفرنسي، وما يشترك معه فيه أدب الغرب كله: دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية، وبينه وبين العلم من ناحية أخرى. فقل أن تجد كاتبًا من كبار الكتاب لم يعرض في واحد أو أكثر من كتبه لمسألة العقيدة أو للمسيحية، سواء عرض لهذه أو تلك بما يملأ قلبه من جلال الإيمان، أو من الثورة على العقيدة أو الدين. فالفردوس المفقود لملتن في الأدب الإنكليزي، والجحيم لدانت في الأدب الإيطالي، وكتب روسو وفولتير في الأدب الفرنسي، هذه وغيرها كلها آثار خالدة في الأدب الديني وفي الأدب المناهض للعقيدة وللدين، وهذه الكتب كلها، سواء منها الديني والمناهض للدين، تطبعها روح الثورة التي أشرنا إليها، وليس في ذلك من عجب؛ فقد كان البعث الأوربي في القرن السادس عشر ثورة من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية، ولوثر وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة. ثم كانت من بعد ذلك ثورة على هؤلاء، ومحاولات عنيفة لتقويض عمد الكنيسة كلها، وإنما كان ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة الديني والزمني. فلما بدأت حركة البعث بدأت متمردة من جانب رجال الدين على زملائهم؛ لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الإنسانية كانت محصورة أو تكاد في رجال الدين، وكان واجبًا على من سواهم أن يخضع لهم أو يطرد من الكنيسة، ويكون جزاؤه التعذيب والنكال أشد النكال. فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر ديكارت كتابه «عن الطريقة»، وأصبح للناس جميعًا أن يناقشوا الكنيسة، وخطا العلم خطواته القوية، كان النزاع على أشده، حتى كان إنكار سلطان الكنيسة بعض ما نادت به الثورة الفرنسية، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا في أوائل هذا القرن المتمم العشرين. فلا عجب إذن أن يتأثر الأدب وهو مرآة

الحضارة بهذا النضال كله، وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة في هذا النضال العنيف الذي قام في الغرب، والذي عاد اليوم يضطرب في مختلف الدول خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة.

كان هذا الخوف بعيدًا عن الأذهان في عهد الأدب الكبير الذي أشرنا في تقديم هذا الكتاب إليه؛ لذلك لم يفطن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم في أوربا إلى الأسباب التي أدت بالأدب الغربي إلى أن يطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية، مما أدى بأوجست كومت إلى أن يقرر قانونه عن الحالات الإنسانية الثلاث — التيولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية — على أنها الحالات التي يمر بها عقل الجماعات البشرية، وكأنها لا يمكن أن تتجاوز أو تتصل، وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الإنسانية وما إليهما من مثلهما، مما وضع روسو وكومت، ببرجسن ومدرسته إلى وضع فلسفة «البرجماتيسم» أو الإلهام، وبهذه المذاهب تأثر الأدب الغربي تأثرًا له علته؛ لأن الأدب في اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة والحياة المادية، والمصريون والشرقيون الذين لم يفطنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والعلم والفلسفة والأدب في الغرب، والذين فتنوا بأدب الغرب، هؤلاء وأولئك خيل إليهم أنهم قديرون على نقل صور الأدب إلى الشرق كما هي. فخيل إليهم أن في الشرق كنيسة ككنيسة الغرب، وأن ما انتهى إليه النضال بين الدولة والكنيسة في الغرب يجب أن يبدءوا عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة في الشرق، وخيل إليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث في فرنسا، وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسي في أوقات متفاوتة. لكني إذ فكرت وفكرت، رأيت تاريخ الحضارة في الشرق غير تاريخها في الغرب، ورأيت الحضارة الإسلامية لا تعرف شيئًا اسمه الكنيسة؛ لأن الإسلام لا يقرأ الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين، وإنما يقرر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولست أدري: أفطن الغرب إلى ما لمركزه السياسي في الشرق من مصلحة في قيام هذه الحركة الجديدة التي سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوروبية «تغريب الشرق»؟ أم قد خيل إليه أن حياة الشرق كحياة الغرب، وأن رسالة الغرب التي ألقتها الحضارة على عاتقه إنما تكون بهذا «التغريب»، للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه.

ولا أحسبني أمل القارئ إذا أنا كررت في هذه الخاتمة ما قدمت في فصول الأدب القومي وفي أكثر فصول هذا الكتاب من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون بإحيائها

من سبيل بحثها على الطرائق الحديثة، لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد في جمودها وتكلسها تكلسًا يحاول أبناؤها إزالته عنها، وهذا الإحياء إنما يكون بتعاون العلم والأدب: العلم الذي ينقب ويمحص ويجلو الغامض، والأدب الذي يلقي الضياء الشفاف على ما يكشف العلم عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والأسلوب الممتلئ بذاتية صاحبه وبحياته. سنكون مدينين في هذا الإحياء لطرائق العلم الغربية الحديثة، ويجب علينا لذلك أن نقر لهذه الطرائق بالفضل. لكنني أحسبني لا أغلو إذ أنا ذكرت أنا إذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد في علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة، وقد تتفق على الأقل معها، وقد اتفق لي أن كنت أطالع في كتاب بالإنجليزية عن تاريخ الكيمياء، فكانت دهشتي عظيمة وأنا أقرأ في تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه. فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله، كان مما آمن به العرب في علمهم إيمان الغرب به في علمه، وأذكر أن هذه النصوص العربية ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري، على حين لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا في القرون الأخيرة. على أنه يجب عليّ أن أعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتي العربية لم يهدني إلى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب الواقعي «البوزيتيفزم»، ومع ما يجد الإنسان في مذاهب الفلسفة العربية من التشكك واللا أدرية والإلحاد فإنه، في حدود ما قرأت، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية. أفيرجع ذلك إلى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تفريقًا وقف العلم موقف الخصومة من الدين، على حين لم يكن من ذلك شيء في تاريخ الحضارة الإسلامية؟ قد يكون هذا. فقد رأينا من خلفاء محمد — عليه السلام — من يجعل المناقشة في القرآن: أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ موضع رعايته وعطفه، وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها في أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها، ويختلف بعضها مع بعض، بل يختلف التلاميذ مع الأئمة، كاختلاف أبي يوسف ومحمد مع أبي حنيفة، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة في شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة. صحيح أن صورًا مختلفة من النضال الديني كانت تقوم، وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جليلة الخطر، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب

إلى ما صارت إليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والأندلس وغيرهم، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلًا تختلف اختلافًا جوهريًّا عما سلكت المسيحية وكنائسها.

إذا أردنا إحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب، فلا مفر لنا من إحياء هذه التطورات وتاريخها، من شق الطريق في غيابات الماضي الخفي اليوم على أكثرنا، بل علينا جميعًا، لنعيد بذلك بعث هذا الماضي والروح الذي كان يحركه، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن، روحنا القومي في مصر، وروحنا المصري في اتصاله بفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التي اتصلنا بها وخضعت وإيانا في أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك، لتكن الحضارة التي تقوم على أساس هذا الإحياء حضارة إسلامية كما أعتقد، أو حضارة عربية كما يريد البعض، أو حضارة شرقية متصلة بحضارة فارس والهند؛ كل ذلك قليل الأثر عند من يريد إحياء هذه الحضارة العظيمة، ولا يريد التلاعب بالألفاظ لغاياتٍ سياسية أو غير سياسية.

ولا مفر للأدب العربي من أن يسهم بنصيب عظيم في هذا الإحياء، ولا مفر له من أن يوجه؛ فكثيرًا ما يسبق الأدب العلم في بعث الحضارات، وقد لا يخطئ كثيرًا من يقول إن الأدب كان دائمًا أسبق من العلم في هذه السبيل. فالحضارة لم تكن يومًا ما مذهبًا منطقيًّا يقيمه العقل وحده، وإنما هي مجموع مطامح الحياة إلى المثل الأعلى الذي ترجو الجماعة بلوغه، وهي إلى جانب ذلك تصور الجماعة الإنسانية لصلتها بالوجود في مجموعه صلة تنتسب للماضي وتنفذ إلى أعماق المستقبل، والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود، هذه كلها تمتزج بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من الإيمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضي وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر «ما لا يكن معرفته»، وما يدخل بعضه الآخر في دائرة الإلهام العريق النسب بالأدب والمحتاج إلى زمن لا يعرف أحد مداه؛ ليكون أوثق بالعلم نسبًا، وإن أنت أردت فارجع في تحقيق ذلك إلى مختلف الحضارات التي تعرف: ارجع إلى الحضارة اليونانية، وإلى الحضارة الإسلامية، وإلى الحضارة الغربية الحديثة، تجد الأدب دائمًا سباقًا إلى اقتحام الميادين التي هيأت لهذه الحضارات بروزها، وإلى شق السبل التي يسرت بلوغ الحضارات هذه الميادين، وقد ظل ذلك شأن الأدب في صلته بتلك الحضارات أجيالًا متعاقبة حتى جاء العلم بخطاه البطيئة الأكيدة يستصفي من هذه السبل ومن هذه الميادين خلاصة القوانين العامة التي توجه الإنسانية وتوجه الحياة، وإذا كان العلم قد نفى في كثير من الأحايين ما أثبت الأدب، فقد ظل ما نفى العلم من

آثار الأدب متوقدًا ملتهبًا يصهر في بوتقة العلم حتى أطفأ العلم شعلته. فإذا قيل بعد ذلك أن هذا الأدب قد قضى العلم عليه فهو إنما قضى عليه بعد أن أدى للعلم والحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة الأدب، وهو من بعد إنما يخضع في ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له العلم نفسه، فكثيرًا ما أثبت العلم في عصر من العصور قواعد وقوانين، ثم جاء العلم في عصر آخر فحطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين.

ليقتحم أدبنا إذن ماضينا، وليقتحم هذا الماضي بأدوات البحث الأدبي وبأساليب الكتابة الحاضرة، وليقتحم هذه الميادين حرًّا طليقًا غير هياب ولا متردد، وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الأدب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما، وبروح الثورة التي اقتحم بها الأدب العربي تراث فارس ومصر واليونان، وليقلب في هذا الماضي ما شاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده، الحق في أسمى صوره التي تلتمس الإنسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحيانًا حين يكشف عنه أنبياء الإنسانية وشعراؤها وكتابها، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح، والحق الصحيح؛ الحق الذي تقوم الحضارات على أساسه، والذي يدعمه الأدب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتاب، وهو الحق في صلة الإنسان بالوجود كله: بهذه الأفلاك التي نرى، وبهذه السماوات التي تغمرها، وبالروح الفياض بالضياء، والذي يحيط بذلك كله ويبعث إليه الحياة والنور، هذا الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه، وصلة الإنسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعًا، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب، وأن تكون رسالة كل أدب يطمع في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للإنسانية المجد والسعادة.

الأدب الذي يسمو بالنفس إلى هذه المعاني العليا، والذي يرتفع بها لتتصل بالوجود كله، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة، حقيقة هذا الروح العظيم الذي تعنو له الحياة، والذي تستمد منه كل حقيقة وجودها. هذا الأدب هو الذي يقيم الحضارات السليمة الصحيحة، وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا: في هذا الأمس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعًا، والذي يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد.

أترى آن الوقت الذي يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد؟ بذلك أناديه، فهل بلغت النداء؟ …


هنداوي